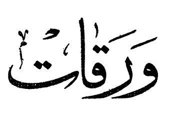
حسن حسني عبد الوهاب



ورقات

عن

الحضارة العربية بافريقية التونسية

القسم الاول

الناشر
مكتبة المنار - تونس

١٩٦٥



ورقــــات

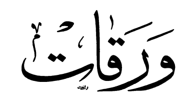
عن

الحضارة العربية بافريقية

التونسية



حسن حسني عبد الوهاب



ورقات

عن

الحضارة العربية بافريقية

التونسية

الناشر
مكتبة المنار - تونس

١٩٦٤




بسم الله الرحمن الرحيم



الى القارئ

هذه ورقات اقتبستها من كتاب أفنيت فيه عمري ، واستنفدت صبري ، قضيت في جمعه وتدوينه زهـــاء خمسين عاما على الولاء ، ولم أتوان في تحقيق مصادره ، وتتبع مراجعه ، واستقصاء موضوعاته ، حتى يسّر الله لي أن أقيد منه الأوابد ، وألم الشوارد ، وأؤلف بينها في صعيد واحد .

والكتاب الذي أشير اليه ، يتضمن كل ما يمتّ بصلة الى تاريخ العلم والاجتماع والأدب والفن في البلاد التونسية ، منذ استقرت بها طلائع النور العربي الى هذا الزمان القريب .

عنيت في كتابي هذا بان أتابع حركة الثقافة العربية على اختلاف أطوارها ، موضحاً ظواهر الحياة الفكرية وما تعاقب عليها من سهود وخمود ، ولم يفتني ان أستجلي الاسباب التي مهدت لانبثاق العـــلوم المتنوعة ، فاذكر نشوءها وارتقاءها ، وأشيد بمن نهض بها من أبناء الامة ، وأعرّف بهم في تراجم تلائم مراتبهم العلمية ، وأعرض لمؤلفاتهم باسمائها

ونعوتها وما لها من قيمة وشان ، وأخذت نفسي بان أبيّن المفقود من هذه المؤلفات والموجود ، فما كان منها موجوداً اشرت الى مكانه في المكتبات العامة أو الخاصة ، وقد انطوى الكتاب على التعريف بنحو الف من العلماء والمؤلفين التونسيين .

وراعيت في هذا الكتاب أن أبسط الحديث عن كل علم على حدة ، ملاحقاً أيّاه في عصر بعد عصر ، منذ مطلع تاريخ العلم العربي في افريقية التونسية ، سوآء أكان من العلوم الدينية كالقراءات والتفسير والحديث أم من العلوم الرياضية والكونية كالحساب والطب والفلك والكيمياء ، أم من العلوم الأدبية من نثر وشعر ومقامات ونقد ، أم من العلوم العمرانية كالجغرافية والرحلات والتاريخ والسيّر ، أم من العلوم الفنية كالموسيقى والألحان والتصوير ، أم من العلوم الروحية كالتصوف والزهد ، الى غير ذلك من فروع المعرفة .

وكان تعويلي في استنباط الحقائق وعرض الموضوعات على أصول مشهورة بالصحة ، ووثائق تاريخية ثابتة ، ومظان تطمئن اليها الأفئدة . فاستقصيت ماير بو على خمسمائة مصدر ، بين مطبوع ومخطوط جآء حديثها عرضاً في صلب التراجم والبحوث ، وسردت عنواناتها كاملة في قائمة مختوم بها الكتاب .

كذلك عقدت في هذا الكتاب فصولا جلوْت بها نواحي من الحياة الاجتماعية في شتى مظاهرها ، كالعادات والمراسم في الأفراح والمآتم ،

وفي الاعيـاد والمواسم ، وفي صنوف المشارب والمطاعم ، وفي أجنـاس الأزياء ، للرجـال والنسآء ، وكذلك ضـروب الوظـائف والمناصب ، الشرعي منها والمدني ، ودور الصناعة البحرية والاساطيل وكل ما يتعلق بالأجناد ومراكزهم وانظمتهم في حرب وسلم ، وكذلك شؤون الدواوين الحكومية ، ودور ضرب النقود ، وطراز الثياب والخلع ، والقصور الملكية وما اليها من منازه ومخادع وخزائن للذخائر والكتب سوآء في عصر الاغالبة ودولة الفاطميين أو من جآء بعد هؤلاء من بني زيري لتكوين دولة الصنهاجيين .

ومبلغ ما أردت من هذه المباحث التي تتناول نشأة العلوم والفنون وسير الحضارة وأثر الملابسات السياسية والاجتماعية في افريقية التونسية ، ان القي أضوآء على تاريخ المجتمع الافريقي وما انطوى عليه من أحداث ، وما أسفر عنه من نهضات وذلك منذ فجر الاسلام الى يوم الناس هـذا .

تلك عجالة في وصـف الكتاب الذي قصرت عليه وكـدي ، وابثثته جهدي ، فيما سلف من أيامي ، وكلما عَنَّ لي ان أهيئه للطبع حالت بيني وبين ذلك رغبة في الاستزادة ، وولع بالإحاطة ، وتوسّع في بعض الموضوعات والترجمات ، وتطلّع الى الامعان في الاتقان ، ولا أقول انه طلب للكمال ، فان الكمال غاية لا تـدرك ، وشأو لا يلحق ، وسبحان من تفرّد به ، جلّ جلاله ، وتمّ كماله .

وقد كان صفوة من الأخلآء والرفقة يستحثونني في شأن هـذا

الكتاب، ويتقاضونني ان أخرج به الى الناس، إذ يرون الحاجة اليه ملحّة، ولا سيا في هذا العصر الذي تنهض فيه البلاد التونسية نهضتها المرموقة، مواكبة ما في الشرق العربي وشتى البلاد الاسلامية من نهضات جسام، حتى يكون الكتاب بين أيدي النشء الجديد والجيل الطالع، يهزّ أشواقهم الى إحياء تراث العروبة، وابتعاث مجد الاسلام، ويبصّرهم في سيرهم الحاضر بما شاد أسلافهم من حضارة معمرة، وما أفادوا من علم نافع، وما سلكوا في الحياة من طريق مستقيم.

وظللت وقتاً بين إقدام واحجام، حتى بدت في شان الكتاب فكرة، تلك هي أن أبادر الى نشر المقدمات التمهيدية لمباحث التاريخ، وصنوف العلوم، تعجيلا للنفع بها، ريثما ينتهي اعداد جملة الكتاب «كتاب العمر».

وقد رحّبت بتحقيق هذه الفكرة، وعمدت الى الكتاب، فاستخرجت بعض ما فيه من تمهيدات تناولت أطرافاً من أخبار العمران العربي في نشوئه وتطوره، ونظام البيئة الافريقية وعلاقاتها بالشرق والغرب، الى مناحٍ من الثقافة في مقوماتها، والتعليم في وسائله، والدرس للآداب والفنون والصناعات، وما يتصل بذلك من مظاهر الحضارة العربية في أرجاء البلاد التونسية.

وأرجو أن تلقى هذه التمهيدات من النابتة الجديدة إقبالاً يزيد به التونسيون المحدثون ارتباطاً بماضيهم الخالد، ويتلمسون فيه

عوناً على مستقبلهم الزاهر ، فاني لأومن أصدق الايمان بأن جذورنا المتاصلة في تاريخ أجدادنا وثيقة الصلة بوعينا القومي الحديث ، ولكن الانتفاع بتقليب النظر في الماضي لا بد أن يؤيدبالسعي الجادّ في الحاضر ، وما أصدق القائل :

إِذَا أَنْـتَ لَـمْ تُحْـيِ الـقَـدِيمَ بِحَـادِثٍ

مِنَ المَجْـدِ لَـمْ يَنْـفَعْكَ مَا كَانَ مِنْ قَبْـلُ !

وفّق الله وطننا التونسي الأعز الى بلوغ الغايات المأمولة من العزة والمنعة والمجد ، وجعله في يومه وفي غده ، كما كان في أمسه ، مناراً من منارات الحضارة العربية ومجد الاسلام .

والى الله أبرأ من العجب بالنفس ، والغرور بالعمل ، وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب . . .

عبد الوهاب




انبثاق الحضارة



آفاق تونس

ان شان هذا البحر المتوسط لشان عجيب ! مهد الحضارة ، ومبعث الرسالات ، ومنبع الشعر ، والفن ، والسحر . . .

البحر المتوسط ! قلب الدنيا النابض ، وفلك العالم الدائر ، وقطبه المنير . . .

على ضفافه الهادئة المعتدلة نشأت مدنيات ومدنيات،قديمة وحديثة، وظهرت آيات التفكير البشري، وعجائب الحقائق ، ونبعت معجزات سرمدية . . .

في هذا البحر الخالد ، وفي نقطة الوسط منه ، تقع البلاد التونسية فتجعل سطحه نصفيْن مستويَيْن ، تبارك الله أحسن الخالقين!

انبثاق الحضارة

والناظر في تاريخ هذا القطر المحبوب يرى من تصاريف الامور ، وتقلّبات الشؤون ما يبعث أول وهلة على الحيرة والدهش ، وذلك بما يعرض له في سياق الأحداث من المفارقات والمتناقضات .

أما الواقف على ما يجري من الاحوال ، والسابر لأغوار الامم ، فلا يزيده ذلك الا تبصرة وتفقهاً في هذا الكون الكبير ، وتمكيناً من القضايا الاجتماعية ، وما يعتور الشعوب من التطور والانتقال بتوالي الصروف والأحداث .

من الحقائق المسلمة أن قيام الامم العظيمة موقوف على توفر اللقاح العنصري فيها ، ومتى لقحت بالعوامل والمؤثرات الخارجة عن محيطها ، وظهر مايسمونه «بالفساد الاجتماعي» ـ وهو الاختبار بعينه ـ انبرت لليقظة والنهوض بفعل النواميس الطبيعية العاملة على بقاء الاصلح والانسب .

وبديهي ان عظمة الامم المعروفة بالسيطرة والهيمنة على العالم هيْ أثر طبيعي لما مرّ عليها في الأعصار المختلفة من الاحداث والصروف المملوءة بالمفارقات : فالحروب ، والتغالب ، والامتزاج ، والاختلاط ، وتعاقب الحكومات ، هو أصل أولي في تكوين الشعوب الضخمة ، والمدنيات الراسخة التي لاتنقرض مشاهدها في العالم .

عرف هذا القطر بسكّانه الاصليين من البربر ، وهم (الافر ـ Afer) الذين أورثوا اسمهم البلاد التونسية ، فعرفت (بافريقية) بل أورثوه قارة كاملة هي الربع المعمور من الدنيا .

وقد فزع أولاً الفنيقيون الى تونس ، فالرومان ، فالوندال ، فالروم البيزنطيون ، فالعرب ، فالاسبان ، فالترك ثم الافرنج ، وكانت هذه الامم الفاتحة تفد عليه تباعاً حاملة ثمرات كدّها ، ونتائج سعيها ،

وأصول نظاماتها ، وصـور تشكيلاتها ، وطرائق معائشها ، وأنواع فنونها،وصنوف لغاتها . وكانت بمجرد توطّنها واستقرارها تنشر لقاحها فيمن حولها من السكان ـ بقصد أو بغير قصد ـ ثم انها لا تلبث أن تنعزل عن أرومتها ، وتتحول عن صبغتها الاولى ، وتندمج في العنصرية التونسية الخالدة !

وهكذا تسـبي (لتونس) ابتلاع المتغلبين على أمرهـا ، وهضمهم جيعا ، وجعلهم تونسيين !

من يستطيع انكار فضل هذا الامتزاج على التونسيين ؟ وقد أحدث فيهم ذكاء فطريا نقلوا به وطنهم من طور الجمود والضمور الى طور النباهة ومنافسة المتغلبين في الصفات والنعوت ، ومزاحمتهم في استخدام الوسائل والوسائط للاستثار والاستمتاع بمصالح البلاد ومنافعها .

فقد اقتبسنا من القرطاجنيين : الملاحة ، والتجارة ، والمقايضة ، وفلح الأرض ، وغراسة الاشجار .

ومن الرومـانيين : سنّ القـوانين ،وتنظيم المدينـة ، وتعبيد الطرقات ، واستخراج المعادن ، وجلب المياه ، وتشييد الهياكل ،

ومن الروم البيزنطيين : الترف . والملاهي والملاذّ . والتانـق في في المآكل والملبس والتكلف ، والتبذير ،

ومن العـرب : الدين . واللغـة . ومكـارم الاخلاق ، والعـدل ، والمساواة ، وفصاحة اللسان ، وحماية العشير .

ومن الاسبان : كراهية المخالفين ، والتعصب للدين ، والتظاهر .

ومن الاتراك : الاخذ بناصر الضعيف ، وقلة المبالاة بالعواقب ، والانفاق في أوجه البر ، واحتمال الخطوب .

ومن الفرنجة : مضاء العزم وانتهاز الفرص ، والترتيب والنظام واستعمال الآلات في المصنوعات ، واخضاع القوات الطبيعية ، وتسخيرها لارادة الانسان وترك الونـاء في طلب الرزق ، الى غيرذلك من السجايا والنحائز التي يعسر التخلق بها بمحض الارادة والاختيار ، ولا يتأتى رسوخها إلا بالتسلط والاستيلاء ، جرياً على قاعدة اقتداء المغلوب بالغالب .

* * *

وقصارى القول ان المجتمع التونسي اليوم هو صفوة ما اجتمع فوق أديم هذا القطر العزيز من المدنيات الكثيرة المتنوعة ، وليس يعوزه من الوسائل المتممة لرقيه سوى ملء الفراغ المعد لقبول المدنية العصرية وضمها اليه ، ليكون الوارث الحقيقي لسائر مدنيات العالم القديم ، ومتى فعل فاز باحراز قصبات السبق في معترك الحياة على المجتمعات الاخرى التي يظهر الآن انها السابقة في المجال ، وهي - وان امتازت عليه بهذه المدنية المادية السهلة المنال - فهو ممتاز بما ورثه من التمدن القديم أضعاف أضعاف امتيازها ، وذلك هو الدليل على قوته ، وعلى استعداده للبقاء .

ان عصر عود الشباب لقرطاجنة ، والقيروان، وتونس، لايحتاج

لعمل شاق أوكدّ عظيم ، وانما يحتاج إلى عناية دائمة من الآباء المخلصين، والحكام المنصفين، والعلماء المتحمسين، والمزارعين الكادحين، والصنّاع العاملين ، والتجار الماهرين ينصرفون بها الى اقتباس التعليم الملائم ، وتقريبه من متناول الطلّاب على أنماط معاصريهم ، والدخول مدخلهم في التكسب والعمل كما اقتبس آباؤهم من قبل أنماط معاصريهم ، بحيث لا يمضي جيلان حتى تنهض تونس وتصبح أحدى عواصم المدنيات السائرة ، لها صوت مسموع بين الشعوب ، وكلمة نافذة بين الامم في العمل ، والعلم ، والفن .




قصة الثقافة التونسية



قصة الثقافة التونسية

إذا ما اعتنى الباحث بمظاهر الثقافة في سيرها بالبلاد التونسية ، وتتبع خطواتها منذ فجر الحضارة علم أنه من عهد بعيد في التاريخ أدرك الفنيقيون في جولاتهم البحرية طيب مناخ تونس ، فالقوا سفن ترحالهم واستوطنوا سواحلها ، متخذين منها الوطن والمقر ، واحدثوا بها - بعد دهر وحين - محطهم الاكبر : مدينة « قرطاجنة » وجعلوها أم البلاد .

ومن هناك انتشر القرطاجنيون فاتحين ومعمرين ، ومعلمين للشعوب المغربية وللاقوام الايبارية - سكان اسبانيا - وبثوا بينهم وسائل تمدينية ، واسباب رقي ، ما بين فلح الارض ، وتصنيع المعادن ، وإنشاء السفن لخوض عباب البحر . ولا مرآء انهم أول من أدخل غراسة الزيتون المباركة في هذا القطر وفي جميع ممتلكاتهم المغربية ، وهذا (ماجن - Magon) أحد شيوخ قرطاجنة يضع للافريقيين - وربما كان ذلك للعالم أجمع - أقدم كتاب في الزراعة وغرس الاشجار ، ولم يجد الرومان بدًّا من نقله الى لغتهم اللاطينية حينما أخضعوا البلاد ، لاعجابهم بهذا الأثر الفريد ، وافتقارهم الى تعاليمه .

وما كان القرطاجنيون ليرتضوا لانفسهم أن يكونوا معمّرين

للارض وأصحاب صناعة فحسب بل خصّوا الوعي الفكري باوفر نصيب ، وشاركوا من تقدمهم في هـــذه الرسالة البشرية بامتزاجهم الامتزاج القوي بالافارقة وصاهروهم ولم يستنكفوا من تزويج بناتهم أقيال البربر .

ولما بدّد الرومان سلطان القرطاجنيين من افريقية ، وخلفوهم بها لم يجدوا مندوحة من تقليد أسلافهم في علومهم ، والانتفاع بتجاريبهم ، والاستفادة من خزائن كتبهم الغنية الثرية ، والعمل بوسائلهم في التمدين وتعمير الارض .

وعلى انقاض العاصمة الفينيقية رفع الرومان « قرطاجنة » جديدة اجتهدوا في جعلها ـ بعد رومة ـ ثانية مدائنهم وقرينة لقاعدة ملكهم الواسع ، فازدهت بالمباني والهياكل الضخمة ، وامتد نفوذها السياسي والادبي الى مغارب الارض ،وقد أخرجت البلاد على عهدهم علماء افذاذاً من ابنائها مثل (يوبا الثاني) الملك البربري والمؤلف البديع ، ومثل (أپولى ـ Apulée) صاحب التصانيف الفلسفية والقصص الفكاهية وغيرهما .

ونستوقفك هنا قليلا وندعوك ألا تجزم بأن جميع ما يشاهد من الآثار العديدة المنبثة في انحاء التراب التونسي والمنسوبة الى الرومان هي من محدثاتهم بل ان جلها من عمل ابناء البلاد انفسهم شيّدوها بسواعدهم وانفقوا عليها من مالهم وحسبهم انهم قلدوا الطراز اللاطيني ، وليس للرومان فيها من من فضل سوى الزخرف والشكل .

وبعد معارك دامية هاجم جنود الوندال الجرمانيون البلاد، وأزاحوا عنها القوات الرومانية وحلّوا مكانهم ، واستقروا في ربوعها نحو مائة عام ، ولم يكن للحضارة في مداها حظ يذكر سوى ما اظهروه في تغيير المعتقد المسيحي الشائع ، وقد تمسك بنحلتهم جمّ غفير من البربر المقاومين للهيمنة الرومانية ، واشتد بين الفريقين صراع قاست افريقية من جرائه ألوانا من التخريب والتهديم .

وخلف الروم البيزنطيون الوندال في حكم تونس ، وأعادوا النضارة برهة من الزمان إلى (قرطاجنة) غير أن الحروب الداخلية والنزعات المذهبية شغلتهم عن الاهتمام بالوعي القومي وتمدين البلاد ، وفي تلك الاثناء قام رجال افريقيون ناضلوا عن المبادىء الدينية وسعوا جهدهم في محاربة الوثنية وكفاح المقاومين لنشر مبادىء العقيدة ، وفي مقدمة المدافعين المخلصين (أُقَشْتِين ـ Saint Augustin) الذي ناضل عن الاعتقاد ورفعه الى درجة عالية من البحث وقد عرفه علماء العرب وذكره البكري في « مسالكه » .

في منتصف القرن الاول للهجرة تمكن العرب من إقامة سلطانهم على البلاد الافريقية ، ولاول وهلة من فتحهم انشأوا (قيروانهم) فكان لهم في آن واحد . مركزا حربيا ، ومحطا لرحالهم وعيالهم ، وقاعدة لبث لسانهم ومبادىء دينهم القويم ، ومن « القيروان » امتد سلطانهم فعمّ المغرب باجزائه ـ تونس والجزائر والمغرب الاقصى ـ ثم عبر الى العدوة الاروبية فاستقر في الاندلس من ناحية وانتشر الى السودان من أخرى فادخل كامل القارة الافريقية المعروفة حينئذ في حضيرته .

ومن القرن الثاني للهجرة ابتدأت عناية ابناء مدينتي القيروان وتونس بحمل العلم، فقصدوا موارده بالمشرق كدينة الرسول، والكوفة والبصرة ، ثم دمشق وبغداد والفسطاط وملأوا من العرفان وطابهم ، وعادوا بعد حين الى وطن ولادتهم لبثّ ما لديهم بين أبناء جلدتهم .

ونبغ من بين الرعيل الاول أفذاذ مبرزون وصلوا بالعلم التشريعي الى اقصى درجات البحث والاستنباط والتخريج ، مثل (على بن زياد) تلميذ مالك ودفين تونس و (أسد ابن الفرات) صاحب مالك وابي يوسف ، و (سحنون بن سعيد) محدث المدرسة المالكية الافريقية، وسواهم كثير .

وما كان اشتغال أفراد هذه الحلبة باديء بدء بالحديث والفقه (الحقوق) الا لمسّ حاجة العالم الاسلامي حين ذاك لتنظيم هيئته الاجتماعية ، وتدبير سياسته الشرعية على أصول نظام الدين .

ولما تمهدت وسائل التشريع وابحاثه ، اتجهت الطبقة التالية الى العلوم العقلية والرياضية ، ويرجع الفضل في ظهور هذه الحركة الجديدة ، الى رجلين يجب ذكر اسميها بكل تقدير واحترام ، أعني : (اسحاق بن عمران) الذي اشاع الفلسفة في القيروان ، وفسر غامضها ، كما نشر علم الطب وما يتفرع عنه من فنون الحكمة والصيدلة .

والثاني هو الاديب الكبير ، والكاتب البليغ : (أبو اليسر ابراهيم الشيباني) حامل لوآء الرواية للادب والترسل العربي .

وقد ساعد الامراء الاغالبة على ظهور هذه الحركة العقلية المباركة

وعلى نشرها بتأسيس أول جامعة أفريقية للعلم والترجمة وبث المبادىء الرياضية في الاوساط المغربية ، وهي (بيت الحكمة القيرواني) الذي ترأسه أبو اليسر الشيباني المقدم(حدود سنة ٢٦٥ هـ)

وقد جلب اليها الاغالبة نفائس الكتب من اطراف العالم العربي : من العراق والشام،ومصر، كما ألحقوا به بعدُ ثلة من القسيسين المسيحيين، استقدموهم من صقلية ، التابعة يومئذ لملكهم ، فانكبّت تلك النخبة على ترجمة مؤلفات يونانية ولاطينية في شتى الموضوعات من فلسفة ، وتاريخ وجغرافية ، وطب ونبات والمؤكد أن من ضمنها قسما من من مصنف (بلنيوس الكبير ـ Pline l'Ancien) في معنى التاريخ الطبيعي المتعلق بالحيوان والنبات كما أشار اليه الوزّاني المراكشي في تعريفه باقطار المغرب ، وكانت هذه الترجمات ، تتمّ بمعونة رجال افريقيين متضلعين في العربية .

انتفعت افريقية التونسية أيما انتفاع بهذا الوعى،فظهر فيها فلاسفة مجيدون منهم أبو سعيد الحداد،وأطباء ماهرون من أشهرهم أفراد بيت (الجزار) وهم أربعة تداولوا رياسة الصناعة ،ومنهم (زياد بن خلفون) و (أعين بن أعين) وسواهم .

ولا يغيب عنا أن نسوق هنا ما كان لجماعة من أبناء اليهود الافريقيين من الاشتغال بالاخذ عن علماء بيت الحكمة القيرواني ، ثم تدريسهم به لفنون الفلسفة والطب والفلك والتقويم ، وفي مقدمة هؤلاء الطبيب الطائر الصيت : إسحاق بن سليمان الاسرائيلي،والطبيب

دونش. ويسمى أُدُنِيم بن تميم المعروف . بالشَّفْلُجِي ، وموسى بن العزار ، وغيرهم كثير وقد قاموا بوضع أمهات الكتب في الفلسفة ، والطب ، والفلك ، وحوّلها بعضهم بعد ذلك من العربية الى اللغة العبرية والى اللسان اللاطيني .

ومن تلاميذ هذا الرعيل ـــ الم اسرائيلي يدعى (نسيم بن يعقوب القيرواني) ، فاق اقرانه في علم الهيئة وحركة الكواكب حتى أن الأسئلة كانت ترد عليه من يهود العراق في المشرق ، ومن الاندلس في المغرب ، يستفتونه في توقيت مواسمهم الدينيـة إذ لم يكن من بينهم من هـو أعلم منه بهذا الشان .

ومازال (بيت الحكمة) يضطلـع باداء رسالته العلميـــة في ربوع افريقية وخارجها الى أن نقله ملوك الفاطميين الى القاهرة عند تحوّلهم الى المشرق (سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٣ م) فزاد هنالك ازدهارا ، وغـــا قوة وانتشارا بفضل من صحبهم من العلماء الافارقة ، وبفضل ما نقـــله الفاطميون معهم من تراث افريقية العلمي .

لكن نقل (بيت الحكمة) الى القاهرة لم يمنع من امتداد روحه ، وسريان تأثيره في العقلية المغربية، الى ان توقفت الحركة العلمية بسبب ما اعترى البلاد الافريقيـة من اختـلال الامن ، واضطراب الاحـوال على آخر عهد بني زيري الصنهاجيين .

وفي الوقت الذي كان تأثير بيت الحكمة القيرواني ينضوي ، كانت روحه العلمية تتمادى قدماً وتنتشر نحو العدوة الاوربية، بواسطة احد

الافريقيين المسيحيين واعني به (قسطنطـــين المشهـور بالافريقي Constantin l'Africain) لولادته بمدينة قرطاجنـة ، فانه أخذ العلم بالقيروان عن البقية الباقية من رجال بيت الحكمة ولقن علوم العربية والرياضة وخصوصا الطب والفلك ، ثم انتقل الى مصر ومنها عاد الى بلده قرطاجنة ـ وكانت عندئذ قرية ضئيلة ـ ومنهـا قصد ايطاليا واستقر اخيرا بمدينة (سالرنو ـ Salerno) واتصل هناك بملك النرمند (Normands) ثم التحق بدير جبل كاسينو الشهير (Monte Cassino) ولم يلبث ان تولى رئاسة هذا الدير وحمل رهبانه على الاشتغال بالعلوم العربية . ورغّبهم في ترجمة مصنفاتها لا سيا ما كان منهـا في العلوم الرياضية كالطب والهيئة والفلك الى اللغة اللاطينية ، فكان قسطنطين بعمله هـذا في مقدمة نقلة تلك العلوم التي انفرد المسلمون عندئذ باتقانها ومعاناتها والابتكار فيها .

وفي نظرنا ان هـذا الحادث العظيم كان من أهم الاسبـاب لدخول علوم العرب الى العدوة الاوربية وانتشارها من هنـالك الى الاصقـاع الشمالية خصوصا وقد صادف ان كان ذلك في مبتدأ ظهور النهضـة الافرنجية (la Renaissance) في العلـوم الطبيعيـة والهيئة وغيرها ، وجـدير بالملاحظة ان جـلّ ما ترجمـه قسطنطين من الكتب العربية الى اللاطينيـة أو حـاول تقليده والوضع على غراره انما كان مستمـدًّا من مصنفات اطبـــاء قيروانيين خاصة ، مثـل تاليف اسحاق بن عمران . واسحاق الاسرائيلي ، واحمد بن الجزار كما

انه اعتمد في الفلك وعلم الهيئة على تاليف أبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني ، وفي ذلك بلاغ ! ...

ولا يفوتنا أن نستطرد هنا الى ذكر ذلك العهد العلمي التطبيقي الذي أنشاه الامير الصنهاجي (علي بن يحي) حفيد المعز بن باديس ، فانه أسس بمدينة المهدية حين تولى امـارتها (سنة ٥٠١ هـ ـ ١١٠٧ م) مدرسة للعلوم الكيائيـة ، وأشرف على تسيير التدريس بها حكيم من أشهر حكماء العرب في وقته ، وهو الطبيب الفيلسوف الأديب (أميـة بن أبي الصلت الداني) وقدابتنى الامير لذلك عمارة اسماها (دار العمل) أشارة لما يباشر فيهـا من تطبيق علم الكيمياء وفروعها ، زوّدها بآلات تحليل المعادن والاحجار، وأدوات تقطير الاعشاب والنبات وتبخيرها وتحويلها مما يناسب معلومات ذلك العصر ، كما انه جعل حولها غرفـا وفيرة لاسكان الطلبة المعتنين ، وتمكينهم من العمل العلمي المجـرد، وللاسف الشديد لم يعش هذا المعهد الفريد في بابه اكثر من ربـع القرن ، فيما رواه نقلة الاخبار .

مما تقـدم يتضح للباحث المنصف أن العرب لم يكونوا ليستأثروا بعلومهم ، ويضنّوا بنتيجة ابحـاثهم واكتشافاتهم ، بل كانوا يلقونهـا لكل راغب ويلقنونها لكل طالب ، ولا يهمهم جنسه ومعتقده ، وبمثل هذا العمل تتفاضل الأمم ، وتتفاخر الشعوب ، اذ كانت الرسالة العلمية أمانة يؤديها حاملها الى البشريـة قاطبة ، من غير ارتقـاب جـزاء أو

أو شكور ، وبذلك قضت سنة الكون بين ابناء الخليقة،ليتم العمران ، ويسود العرفان ، ويعم التواد ، والتعاضد بين أفراد الانسان ! ..

ولم يزِ البشر ـ في مرحلته العقليـة ـ وسيلة أنجع من الدراسة ـ والدراسة العلمية خاصة ـ لتقريب الافهام وإزالة التشاحن بين مختلف الطبقات ! ..

* * *

بعد زحفة الاعراب من بني هلال وبني سُليم على افريقية ، قامت (الدولة الحفصية) بعاصمة تونس ، وارثـة قرطاجنة والقيروان معا ـ (القرن السابع للهجرة،الثالث عشر للميلاد)ومن أول تأسيسها انضاف الى أهل البلاد عنصر جديد هم لاجئو الاندلس « فقد هاجر الى تونس نخبة ممتازة من كبار علماء وادباء العـدوة الاسبانية ، وما انفكت هجرتهم الى افريقية في نمو وازدياد وكل منهم يحمل اليها أوضاعا جديدة وتقاليد في العلم والفن والصناعة حتى اصبحت تونس أم البلاد المغربية ، وقصبتها الكبرى بلا منازع .

ومما أعانها على ذلك (وجود جامع الزيتونة) الذي هو أسبق المعاهد التعليمية للعروبة مولدا ، وأقدمها في التاريخ عهدا ، وقد حمل مشعل الثقافة العربية اثنى عشر قرنا ونصف القرن بلا انقطاع ولا انفصال ، تجرّد في خلالها لدراسة العلوم ، وذلك منذ سنة ١٢٠ هـ ـ ٧٣٧ م وظل على مر العصور منارا وهاجاً للتعليم والبحث والاستنباط،فتخرج منه الفقيه

واللغوي والاديب ، وأصبح أكبر جامعة اسلامية عرفها المغرب باسره ، وتفرّع من دوحة الزيتونة المباركة أغصان علم وفلسفة زانوا الثقافة البشرية في المغرب والمشرق نكتفي بذكر أفذاذ منهم ، مثل الكيائي المشهور (احمد التيفاشي القفصي) أول من وضع موسوعة عربية شملت كل فن معروف حتى الغناء والرقص ، ومنهم الفيلسوف المؤرخ الغني عن التعريف (عبد الرحمن بن خلدون) ، والحقوقي الكبير (محمد بن عرفة الورغمي) ، والرحال الكاتب البليغ (عبد الله التجاني) والشاعر المبدع (أبو القاسم الشابي) وغيرهم ، وغيرهم .

* * *

ودأبت الزيتونة من يوم وضعها على اداء رسالتها العلمية والروحية وإرساء دعائم القومية العربية ، مطردة النمو والازدهار ، زادها الله إنارة ونورا .

من فجر العصر الحفصي اتخذت المدارس التعليمية الكبيرة على غرار ما كان موجودا بالمشرق : العراق والشام ومصر ، وتسابق أفراد أمراء الحفصيين وأميراتهم الى انشاء مثل هذه المعاهد في حضرة تونس ، وأقدمها تاريخا (الشمّاعية) التي أقامها مؤسس الدولة (أبو زكرياء الاول) .

واقتدت بسنته الاميرة (عطف) في تشييد مدرستها (التوفيقية) ثم اقتفى أثرها الامراء والكبرآء في انشاء المدارس وتزويدها بالعدة

المناسبة من غُرف لسكنى الطلبة ومسجد للصــلاة ومكتبات قيمة موقوفة عليها ، ولازال غـالب هذه المعـاهد قائم الذات مع ما اعتورها من التغيير في الوضع والغـاية .

ومما يعدّ من حسنات الحفصيين عنايتهم بجمع الكتب وفتح أبواب خزائنها الثمينة للخاصة والعامة ، فقد جمع الامراء الاولون منهم جملة وافرة من المخطوطات في شتى المواضيع خصّصوا لها جناحاًمنفرداً من مباني القصبة كان يقصدها الباحثون والطلاب من كل حدب وصوب، وهذا علّامتنا ابن خلدون يفيدنا انه بعد أن وضع أصول مقدمتهالخالدة بقلعة أبي سلامة في جبل بني راشد ـ ببلاد الجزائر ـ احتاج الى مراجعة أمهات الكتب فنزل الى تونس بقصد التزوّد والاستقـاء من المكتبة الحفصية بالقصبة .

ومن احصاء أجري على تلك المكتبة ـ بعد اضطرابات داخليـة وثورات متعاقبة كسحت المهمّ منها ، نعـلم ان ما بقي من المخطوطات وصل عدده الى ستة وثلاثين ألفا .

ثم قام السلطان (أبو عمرو عثمان) وحافده (أبو عبد الله محمد) من أواخر أمراء الاسرة ـ بانشاء مكتبة عمومية في احدى أروقة جامع الزيتونة ، أطلق عليها اسم (العبدلية) وقد حوّلا اليها ما تركته يـد الحدثان في قصورهم من المصنفات .

ولما تغلب الاسبان على تونس ـ أواسط القرن العـاشر للهجـرة ـ هاجوا الزيتونة وبدّدوا نفـائس دررها فذهبت أدراج الريـاح ، وقسم

ضئيل منها التحق بمكتبة (الفاتيكان) بروما ، أهـــداه اليها بعض الاسبان المغتصبين ، وهي ماثلة هناك الى يوم الناس هذا .

وفي العهد الاخير اعتنى (احمـــد باي الاول) بالمكتبة الزيتونيـة فجدّد قواعدها .

وقد اقتنى طرائف ثمينـة من المصنفـــات أوقفها عليها ، فاعـاد للمكتبة رونقها الغابر . وقلده رجالات الدولة وكثير من أهل الفضل في توسيع نطاقها وتوفير ثروتها ، فعادت اليها نضارتها الاولى ، وهي الآن من مفاخر القطر .

وجاء الاتراك العثمانيـون ـ آخر القرن العاشر ـ فسلكوا منهج سلفهم في إقامة المدارس في العاصمة وفي كبير المدائن التونسية ، ويبلغ ع دها زهاء الثلاثين .

ويظهر ان المقصد الاصلي من إنشاء هذه المعاهد التعليمية هو رغبة أولي الامر في اعداد فئة صالحة من الشباب للقيام بمهام الدواوين الادارية ومصالح الحكومة .

* * *

اما في العصر المتاخر فان أول المنشآت التونسية للتعليم العالي المقتبسة من النظم الاروبيـة كان (المكتب الحربي ـ Ecole Polytechnique) ببـاردو الذي أسسه (أحمـد باي الاول) في منتصف القرن المـاضي ، وجلب اليه عدداً من الضبّـاط المرشدين من ممالك أجنبيـة مختلفـة :

من تركيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ومن النمسا ، وأخرجت المدرسة رجالا كانت لهم المكانة الكبيرة في ميادين الادارة ، والسياسة ، والتعليم ، نخص منهم بالذكر : الفريق (حسين) أول وزير معارف للبلاد ، والفريق (رشيد) وزير الحرب وقائد الجيش التونسي الذي شارك في حرب القريم (Crimée) وخلفه الفريق (سليم) وسواهم كثير ، ومن جميل مآثر هذه المدرسة الحربية أن ترجم تلامينها ـ في مدة دراستهم ـ زهاء الأربعين مصنفا في فنون الحرب والهندسة ، والرياضة ، عرّبوها من لغات مختلفة ـ تركية ، وفرنسية ، وايطالية ـ ولازال معظم هذه التراجم في حيز الوجود مخطوطا .

ولما أنشئت (المدرسة الصادقية) ـ سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م ـ بمساعي الوزير خير الدين . ألغى المكتب الحربي ، وتلقت « الصادقية » من يد سالفها شعلة النهضة التعليمية ، وهيأت في معملها المصل الملقّح لعناصر الشباب ، فايقظته من سباته العميق وبعثته مقاما محمودا من العرفان والغيرة والتفكير ، وبذلك استحقت الصادقية ولاء تونس والتونسيين.

* * *

وبعد ، فهذه خلاصة الاشواط التي قطعتها البلاد التونسية في مراحل « التثقيف » العالي ، وأملها اليوم أن يتواصل سيرها بعزيمة ثابتة في هذا العصر السعيد الذي نالت فيه البلاد استقلالها الغالي ، وها

هي ذي مقبلة على احياء ماضيها الزاهر ، بتوسيع آفاق المعرفة ، مجدة بهمة لا تفتر في سبيل اظهار الوعي القومي ، باذلة النفس والنفيس في استرجاع المكان اللائق بها بين الامم المخيمة على ضفاف البحر المتوسط، واظهار ماخصّ الله بـه « تـونس » من عبقرية نادرة ، واخـلاص في نشر أسباب الحضارة الحقّ والتمدين الصحيح .


العمران العربي في تونس



العمران العربي في تونس

خبر فتح العرب لافريقية معروف ، أطال ذكره المؤرخون ، وجاب تفصيله رُوّاة الاخبار .

فما كاد يقرّ قرار العرب في افريقية بعد فتحهم إيّاها واخضاعهم أصقاعها لسلطانهم القاهر ، حتى حولوا اهتمامهم الى تمصير البلاد وتعمير مدائنها وقراها ، وتنظيم هيئتها الاجتماعية على أصول أوضاعهم وقواعد دينهم الجديد ، معتمدين في ذلك على الأُسس التي اتبعها معاصروهم من الصحابة والتابعين في عمران السلطنة العربية في الحيرة والشام ومصر .

واول سؤال يتبادر لذهن الباحث هو ماذا وجد العرب أمامهم من العمران السالف في المدائن الكبيرة بافريقية ؟ ولا بُدّ هنا من التعرض الى الحالة التي كانت عليها هذه البلاد في العصر الرومي البيزنطي .

لامرآء ان العرب لم يجدوا في البلاد من المدائن التي تستحق الذكر سوى مدينة قرطاجنة ـ عاصمة القطر من عهد الفينيقيين ، فالرومان ، فالوندال ، فالروم البيزنطيين ـ ومن يتبع تاريخ استيلاء الروم عليها يرى ان قرطاجنة لم تكن عند ظهور العرب الاعاصمة تزلزلت أركانها ،

وزالت عنها النضارة القديمة وروعتها ، ولم يبق بها من المعالم الجليلة الوارد خبرها في كتب الاغريق واللاّطين سوى ظل متقلّص ، وبقية تافهة من الزخرف التالد التي كانت عليه ، وسبب ذلك الحروب والفتن المتوالية عليها مدى عصور مضتْ ، وقرون خلتْ ، ولم يبق بها من سكّانها غير حثالة صغيرة لاعبرة بها ، تعيش متحصنة بقلاعها القديمة ، وتعمل في ظل أسوارها المنيعة التي حاربت الدهر ، وبقيت سيّاجا حافظًا لها من غارة المهاجين .

وما عدى قرطاجنة ، ماذا كان في البلاد ؟ لا شيء يذكر من المدائن العظيمة ، بل كنتَ ترى قرًى مزجاةً متفرقة هنا وهناك ، ضعيفة المبنى ، قليلة المساكن ، اللهم الا ما يقال عن بقية باقية في سوسة (حضر موت) ، وقفصة وتبسة ، وفيما سوى ذلك فبعض الحصون المتلاشية في البراري من بقايا آثار الرومان ، أعاد الروم ترميمها مدة عز دولتهم باستعمال ما تيسّر من أنقاض المعالم الرومانية الشاخة. ولم يكن الروم ليتوقفوا عن هدم هياكل الرومان وقصورهم لترقيع القلاع والحصون التي شيدوها بسرعة لردّ العصابات البربرية المناوئة لهم ، وإتقاء هجوماتهم .

فمتى وجدتَ في البلاد مسرحاً قديما منهدم الجوانب ، أو معبداً مندكّ العرصات ، أو هيكلا منتقض الاركان ، فاجزمْ بأن معاول الجيوش البيزنطية عملت فيه وقوضته للغرض الذي ذكرنا .

وأدل دليل على ذلك ملعب « الجم » العظيم الشان ، الشامخ البنيان ، الذي هدّم كامل ركنه الغربي (بليشار ـ Bélisaire) القائد البيزنطي لما اغتصب افريقية من الوّندالين ، وما زالت تلك الثلمة المشوهة للبناء منقضة الاوصال متبددة الاطراف الى يوم الناس هذا .

وعبثاً يحاول بعض المغرضين من كتاب الافرنج اليوم إظهار البلاد التونسية في مظهر العمران الزاخر ، والزخرف البديع ، وغزارة التمدين قبيل قدوم العرب وحين استيلائهم على افريقية ، فالتاريخ ـ وخصوصا علم الآثار ـ يكذبان هذه الدعوى الملفّقة ، وما هي في الواقع الّا ترّهات زائفة حمل كُتّاب الافرنج على محاولتها ليثبتوا بها ان ماضي افريقية الروماني الزاهر أصبح بعد الفتح العربي أثراً بعد عين .

والحقيقة التي لا يطرقها شكٌّ ، ولا يعتريها وَهْم هو أن العرب لما قدموا فاتحين لَم يجدوا في البلاد سوى خرائب متهدّمة تعلوهـا مسحةٌ من زخرف قديم أبلاه الدهر ، وغير نضارته الزمان ، لتعاقب الفتن ، وتوالي المحن ، ولم يصيبوا غير مدائن ـ مثل جلّولا وغيرها ـ متداعية البنيان ، نزرة السكان ، ضعيفة الايراد بالنسبة للعهد الروماني غير منتظمة ولا متآلفة الهيئة .

ولهذا السبب نفسه لم يفكّر العرب في نصب مركزهم الذي عزموا على إيجاده في البلاد المفتوحة على انقاض إحدى تلك المدائن البالية ، وقد

يصعب على الانسان ايجاد الجديد بترقيع القديم ، بل انهم صمّموا على إحداث مدينة مستقلّة في مركز لم يسبقهم أحد بالعمران فيه ، وهذا ما حمل القائد عقبة بن نافع واصحابه على تاسيس معسكرهم في وسط غيضة مشتبكة ذات أشجار وأحراج ، فانشاوا فيها (قيروانهم الخالد) .

وكان اختيارهم لمكانه بعد التأمل والتروي الشديد ، وطرق أطراف البلاد طولاً وعرضاً في ارتياد موضع يكون معسكراً لجندهم ، ومقرا لحكومتهم ، ودارا لولّاتهم ، ومخزنا لاسلحتهم وأقواتهم ، ومستودعاً لتجارتهم ومصنوعاتهم ، فاختاروا عن خبرة تامة ذلك الموقع لحكمة حربية وعمرانية واقتصادية معا .

فلو كانت في البلاد عاصمة قديمة تناسب الفاتحين لما ارتادوا سواها كما فعلوا بدمشق في الشام . وطليطلة ثم قرطبة بالاندلس ، ويؤيد نظريتنا في خلو البلاد من الامصار ذات الشأن اعتناء العرب بعد فتحهم باحداث مدائن لم تكن موجودة إسماً ولا رسماً مثل: تونس وصفاقس والمهدية .

وهنا نتوقع معارضة ناقد ينكر علينا صحّة ما ذهبنا اليه ، لما تعلّق بذهنه من غزارة عمران افريقية على عهد الرومان ، ولا سيا ما تمليه عليه عواطفه اللاطنية وحنينه الى آثار ذلك الزمان الغابر ، فنقول لذلك الناقد ليس الامر من باب العاطفة او الوجدان ، وانما هو رجوع الى قواعد العمران ، وتأييد لما أثبته التاريخ وعلم الآثار ، وليست

نظريتنا من باب المجازفة أو رغبة في إظهار مزايا العرب ، ولكن اتباعاً للحق ، وعملاً بأصول التاريخ .

ولنبدأ بخبر القيروان عاصمة العرب الاولى :

تأسيس القيروان

تتابعت الغزوات الاولى على افريقية مدة ربع قرن ـ من سنة ٢٧ الى سنة ٥٠ هـ ـ وما منها واحدة الا كانت توسع نطاق الاستيلاء وتضيف الى التي قبلها منطقة « جديدة » لم يسبق اخضاعها .

ولم تكن هذه الغزوات في الحقيقة الا حركات حربية لاطـــلاع العرب على مجاهل البلاد ، وكشف ما تحويه من قوة معارضة ، واختبار مسالك يطرقها الفاتحون في حملاتهم القادمة تمهيداً للفتح النهائي .

ويمكن تحديد الغزوات الاولى باربع ، عدا السرايا وجرائد الخيل التي كانت تاتي في اثنائها الى اطراف افريقية ـ قابس وقسطيلية وغيرها ـ فتُسْبِرُ احوال البلاد وتعود ببعض الغنائم .

وأول هذه الحملات غزوة عبدالله بن سعد بن أبي سرح ـ سنة ٢٧هـ ـ وتعرف ايضا باسم غزوة « العبادِلة السبعة » من الصحابة الذين شاركوا فيها ، وكان من أثرها أن خضدت شـوكة الروم والبربر المنحازين الى « سبيطلة » قاعدة الجهة الوسطى من افريقية التونسية ، وبعد الصلح مع أهلها على غرامة حربية عاد الجيش العربي الى مصر ـ سنـة ٢٩ هـ ـ

وكان فى هذه الغزوة وجوه من كبار الصحابة مابين مهاجرين وانصار.

وفي كل مرة كان العرب يتركون في البلاد المغزوّة أفراداً من وجوه الجيش نوّابًا لتنفيذ شروط الصلح او الهدنة ، وفي واقع الامر كان هؤلآء النفر أعوانًا لإفادة القيادة العربية العليا بما يحصل في البلاد، وكانوا ، خلال اقامتهم يتصلون بالسكّان ، ويتعرفون باخلاقهم وعوائدهم واستعدادهم .

والعرب يسمون هؤلاء الاعوان « عُيُوناً » وهم المعبّر عنهم اليوم في ممالك الغرب « باعوان الاستعلام » .

ولم يكن الغزاة ليطيلوا مقامهم في البلاد بعد انتهآء المعارك والمواقف الحاسمة وحصول الصلح ، بل كانوا يسارعون بالعودة الى المشرق ، فيلتحقون بمراكزهم الاصلية في مصر وفي الشام ، والسبب في اسراعهم بالرجوع هو انه لم يكن لهم وقتئذ بافريقية معقل حصين يحميهم ، ولا مدينة خاصة بهم يلتجئون اليها بعدالمعارك ، لإصلاح شؤونهم ، واستجماع قواتهم، وتضميد جراحهم ، وتجديد أسلحتهم .

قال المحقّق البلاذري - من القرن الثالث - : « ولما صالح عبدالله بن أبي سرح أهل افريقية ، رجع بعسكره الى مصر ، ولم يكن لافريقية يومئذ « قيروان » ولا مصر جامع (١) » .

على ان بعض قواد الغزوات اهتموا من أول قدومهم بإنزال القُوّات

---

(١) فتوح البلدان .

المصاحبة لهم في مكان مناسب اختاروه عن تدبّر وروية ، واتخذوه مقرًّا يرجعون اليه ، ويجتمعون فيه كلّما وضعت الحرب أوزارها ، فنصبوا فيه خيامهم ، وانزلوا به حريمهم وذراريهم وأثقالهم ، ريثما يرتحلون قافلين بها الى المشرق .

وأول من اختار قيرواناً للنزول به هو الامير معاوية بن حُدَيْج ، قال ابن عبد الحكم :

« ثم خرج الى المغرب بعد - عبد الله بن أبي سرح - معاوية بن حديج التجيبي - سنة ٣٤ هـ - فافتتح قصوراً عظيمة واتخذ قيرواناً عند (القرن) [١] ، فلم يزل فيه حتى خرج الى مصر ، وكان معه في غزواته هذه جماعة من المهاجرين والانصار » .

« ثم كرر ابن عبد الحكم الخبر من طريق آخر : فقال : [٢]

« وانتهى معاوية بن حديج الى « قمونية » وهي موضع القيروان ، ثم مضى الى جبل يقال له (القرن) فعسكر الى جانبه » .

وقوله عسكر به يقصد انه نزل مع اصحابه المكان من غير ان يكون به بناءات تاويهم ، وانما سكنوا اخبيتهم وخيامهم الى وقت قفولهم ، ومما يثبت هذه الرواية ان من مات في هذه الغزوة من الصحابة

---

(١) « القرن » جبل عال في الجنوب الغربي من القيروان . وهو المعروف الآن باسم (جبل الباطن) أي باطن القرن .

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ١٩٣

ومن التابعين دفن في ذلك المكان ، منهم « ابوزمعة البلوي » الصحابي الذي استشهد في وقعة (جلّولا) ـ سنة ٣٤ هـ . وسيق جثمانه فدفن الى جانب المعسكر ، حيث مقام ضريحه الآن في القيروان ، ومنهم البنية (فاطمة) بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، حفيدة الخليفة الثاني .

قال الدباغ : (١)

« غزا معاوية بن حديج افريقية ثلاث مرّات إحداهن سنة اربع وثلاثين (٦٥٥ م) في خلافة عثمان ، فنزل بمكان القيروان اليوم ، واحتفر بها آبارا تسمى « آبار حديج » غلب عليها اسم ابيه وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرق عند مصلى الجنائز »

ثم زاد تفصيلا آخر نقلًا عن غيره طبعا ، ولم يذكره ، فقال :

« كان معه في هذه الغزوة عبد الله بن عمر بن الخطاب . وعبد الله بن الزبير ، وابو زمعة البلوي ، فمات ابو زمعة ودفن «بالبلوية » احدى مقابر القيروان الآن سميت به .

« وفي هذه الغزوة ماتت بنت صغيرة لعبد الله بن عمر بن الخطاب ودفنت بمقبرة باب سَلَمَ الآن ...

« ثم غزا معاوية افريقية سنة احدى واربعين ، وسنة خمسين وفي احداهما نزل «القرن» واقام به ثلاثة اعوام ، وبنى هنالك بيوتا بالطوب وذلك قبل تخطيط القيروان » .

---

(١) معالم الايمان - ١ - : ١١٣ و ١١٤

ومن هنا يتبين الباحث المحاولات المتابعة التي بذلها قادة الجيش العربي الغازي في ارتياد موضع مناسب يكون مقراً دائماً لجنودهم في البلاد قبل مباشرة الفتح النهائي .

ويعود كامل الفضل الى القائد عقبة بن نافع في عزمه على تأسيس «قيروان» ثابت المكان وكان بناؤه رغبة منه في إقرار الفتح وتركيز سلطان العرب في البلاد ، وهاهو ابن عبد الحكم يخبرنا كيف نفّذ عقبة عزمه بعد ان تولى قيادة الغزو سنة ٥٠ هـ . قال : (١)

« ... ثم انصرف عقبة الى القيروان فلم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج انشاه قبله ، فركب والناس معه حتى اتى الى موضع القيروان اليوم ، وكان وادياً كثير الشجر ، كثير القطف ، تأوي اليه الوحوش والسباع ... وامر الناس بالتنقية والخِطَط ، ونقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله الى مكان القيروان اليوم ، وركز رمحه وقال : « هذا قيروانكم ! »

وبعد ان خَطّط عقبة لاصحابه المجاهدين أماكن منازلهم ، شرع في بناء المسجد الجامع في مقره الحالي ، واتخذ حذوه من الجهة الجنوبية (دار الامارة) لنزول الولاة ، وكأنه قلد في ذلك كله السُنن التي اتبعها قبله العرب في انشاء مدائنهم الاولى : الكوفة ، والبصرة ، والفسطاط المتقدمة الانشاء عن قيروان افريقية ، فانهم كانوا يفردون كل قبيلة

(١) فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٦

أو بَطْن من بطون الفاتحين بناحية معيّنة من التقسيم لانشاء دور مساكِنهم .

فنزل قوم من (فِهر) بالجهة الشمالية من الجامع وبنوْا بها المساكن واتخذوا حولها بعض الاجنّة . و (فهر) ، كما لايخفى بطن من قريش، قوم عقبة بن نافع الفهري ورهطه ، وعرف هذا الحي بمنازل الفهريين [١].

وكانت بناءآت القيروان في اول امرها على غاية البساطة ، وقد استعمل لتشييدها قراميد الآجر الغير المطبوخ لوجود الطين المناسب على عين المكان، ولخلو ضواحي العاصمة من الحجارة .

ويلوح لي ان الذي حمل عقبة على اختيار مكان المسجد الجامع ودار الامارة في ذلك المكان هو وجود بئر عذبة غزيرة الماء وهي بئر (أمّ عِيَاض) [٢] وقد جعلها وسطا بين البِنَاءَيْن . ومعروف ان ضاحية القيروان معطشة ولذا ترى عناية الولّاة - من أول الامــر - متّجهة لانشاء صهاريج كبيرة - فسقيات - لخزن مياه الامطار والسيول.

واما من قال ان (بئر روطـة) هي البئر الاولى التي أحدثت في القيروان . أو من أجل وجودها أختيرَ مكان المدينة فـــانه في رأينا محض وهم ، لان هذه البئر تبعد عن الجامع ودار الامارة بمسافة شاقّة

(١) البكري ٢٣

(٢) بئر (أم عياض) هي المسماة اليوم (بئر تكفة) وهي خارجة عن الجامع وتبعد عنه بخمسة عشر متـراً من ناحيته الشرقية . ولا ندري من هي (أم عياض) هذه ؟

من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان ذكر اسم (بئر روطة) لم يرد في كتب التاريخ والتراجم الا في القرن الخامس الهجري [١] ولم نقف على تسميتها قبل ذلك ، ولا يعقل ان الجامع وعمارة دار الامارة لا يكون بمقربة منهما بئر للشراب والوضوء والغسيل، كما هو الشان في بئر (أم عياض) الوارد اسمها من القرون الاولى والتي لا تبعد باكثر من بعض الاذرع من الجامع ومن دار الامارة معاً .

يضاف الى ذلك ان البئر المعروفة الآن باسم (بروطة) او (بئر روطة) هي من محدثات الامير هرثمة بن الاعين الذي أولاه هارون الرشيد أمر افريقية والمغرب ، وقد انشاها في سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) قال الكاتب الرقيق في تاريخه : [٢]

« وفي مدة اقامة هرثمة بالقيروان حفر بها بئراً واسعة الفم ، لها سفرة رخام ، غزيرة الماء ، بالقرب من سوق الأحد »

ومن هذا السياق يفهم ان البئر التي أحدثها هرثمة هي (بئر بروطة) بدليل ان سوق الاحد كان حول ذلك المكان ، ويظهر أيضا ان هرثمة

---

(١) الذخيرة لابن بسام : القسم ٤ ـ المجلد ١ ص ١٨٢ في شعر لابن شرف من قصيدة له في القيروان بعد خرابها :

يا بئر روطة والشوارع حولها معمورة ابدا تنص وتمتلي

(٢) من ابن الشباط التوزري (خط بمكتبتي) نقلا عن تاريخ الرقيق المفقود الآن .

انما أراد بعمله هذا الاكثار من منابع الماء بالعاصمة لامتداد عمرانها في وقته .

ولا ننس ان الامير هرثمة هو الذي أنشأ ايضا القصر الكبير (الرباط) بالمنستير في السنة المؤرخة ، وله غير ذلك من البناءات الجليلة في افريقية .

ولنعد الى ذكر عقبة . فانه لما عُزل عن ولاية افريقية وخلفه عليها (ابو المهاجر دينار) مولى الانصار - سنة ٥٥ هـ - وكره ان ينزل في القيروان الذي اختطه سلفه ، مضى الى ناحية في شمال المدينة ، وتبعد عنها بنحو ميلين ، واختط معسكراً جديداً سُمِّيَ « تِكرَوان » وحوّل الجند وعيالهم اليه .

ويلوح لي اولاً ان تسمية هذا المعسكر مقتبسة من اللغة البربرية ، وهي تحريف من اسم « القيروان » بزيادة التاء في اوله - وهي اداة التعريف عندهم - وقد عوضت القاف بالكاف لعدم وجود هذا الحرف في لسان البربر ، فالاسم الثاني (تكروان) هو (القيروان) بعينه لكنه تحول الى البربرية .

وثانيا : ان أبا المهاجر اتّخذ من البربر حَرَساً وأعواناً فكانهم هم الذين حملوه على نقل معسكر العرب من المكان الذي اختاروه الى ناحية ربما كانت اقرب الى منازلهم ، يعني الى جبل (وسلات) وكانت تقطنه فرقة من (مزاتة) البربرية ويؤيد هذا الاحتمال ما رواه الرُّوَاة ، فقد قالوا : [١]

(١) معالم ١ - ٤٢

« ان أبا المهاجر صالَحَ بربر افريقية ، ومنهم كسيلةُ الأَرُورِبي ـ زعيم البربر ـ وأحسن اليه، واتخذه صديقاً ، وصالَحَ عجم افريقية » يعني الروم المقيمين فيها .

ومهما يكن من أمر فان هذا المعسكر العربي البربري لم يدم الا بعض سنين ، اذ بمجرد رجوع عقبة بن نافع الى إمارة افريقية للمرّة الثانية ـ سنة ٦٢ ـ أعاد الجالية العربية الى سكنى القيروان ـ مدينته الاولى ، وامر بتخريب (تكروان) . وأقبل الناس على تعمير منازلهم الاولى فرجعت اليها في أقرب وقت نضارتها ، وأبى الله الا ان يكون عقبة المبدي المعيد !

ومن حينئذ تدرّجت المدينة في التوسع وامتدت أطرافها ، وقد اعتنى كبار الولاة الأمويين بالزيادة في مَعَالمها ، وفي طليعتهم حسّان بن النعمان ، فانه جدّد بناء الجامع بما هو احسن واجمل مما كان عليه باديء بدء ، ونصب الى جانب دار الامارة مصالح الدواوين يعني : ديوان الجند ، وديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وما الى ذلك من المنشآت الضرورية لتسيير دولاب الحكومة، وبذلك اخذت القيروان صبغة رسمية .

ثم خلفه في الامر (موسى بن نصير) فزاد في منشآتها الحسان ، وأوسع نطاقها حتى صارت في اقرب زمان « دار العروبة » في المغرب.

ومن محدثاته « دار الضرب » لسك النقود ، وهو أول من ضربها حسبما نبينه في الفصل المخصص بها .

وأما السكان فـانهم تسابقوا الى انشـاء دورهم على شكـل منـازل الفسطاط بمصر من حيث الوضع والطراز ، وبنى الموسرون منهم الى جانبها المساجد الصغيرة والكتاتيب حتى اذا تكاثرت البناءات وتلاصقت وكونت حيًّا سمـوه باسم العشيرة التي تـقطنه (كرحبة القرشيين) و (رحبة الانصار) [١] و (حارة يَحْصُب) و(حارة بني نافد) . وربما استعاروا للحي إسم أحد الاعيان من العرب النازحين (كدرب المُغيرة) و (درب أزْهر) و (درب أمّ أيُّوب) وهلم جرا ، بحيث لم يمر نصف قرن على تاسيس القيروان حتى أصبحت أمّ الـقُرى المغربية ، تنبعث منها أشعة الايمان والعرفان ، وصارت العاصمة الافريقية التي تنتهي اليها المسالك ، وتتفرّق منها الطرقـات الى المشرق والمغرب مثلما كانت قرطاجنة في عنفوان عصر الرومان ، ومع ذلك فانها المركز الحـربي الممتاز الذي يقوم بالدفاع عن حوزة البـلاد ، وفيه يُستَعدُّ للهجوم على المقاومين ، ومستودع السِلَع الواردة من الشرق من بضائعه وصنائعه ، ومعرض دائم لمنتوجات البلاد وخيراتها .

وقد فتحت (القيروان) على يد الاسـلام عصراً جديـداً للبـلاد ، عفت بـه عن عهـد قرطاجنة الرومانيـة ، إذ ورثت ملكها العتيـد ، وخلفتها في العظمة وبعد الصيت .

---

(١) المعالم ج ٣ ص ٦ و ١٩

توسع المدينـــة

أشرنا الى تأسيس الغُزَاة من العرب للعاصمة الاسلامية بالمغرب ، وكيف وقع اختيارهم على المكان الذي تحـلّه الآن ، والاسباب الحربية والسياسية والعمرانية التي حملتهم على الاستقرار هناك ، وذكرنا بعض المنشآت الاولى بها ، وبيّنا طريقـة توزيـع المنازل بين بطون القبـائل من الاجناد .

ونستمر هنا على تتبع اتساع القيروان في مرحلتها الثانية ، وكيف انتشر عمرانها في عصر الولّاة من لدن الدولتين الاموية والعباسية ، وما بلغت اليه من التحضير قبيل ظهور الدولة الاغلبية ، معتمدين في ذلك كله على النصوص الصحيحة والوثائق التاريخية والاثرية معا .

* * *

لاريب ان عقبة بن نافع عند تخطيطه للمدينـة وتوزيـع قطع أرض البناء على المحاربين وعيالهم لانشاء مساكنهم ، ترك في وسطها جـــادة واسعة تمتد من الجنوب الى الشمال وتبتديء من المسجد الجامع وتنتهي بآخر العمران ، فتقسم المدينـة الى نصفيْن ، وهي الـتي أطلق عليها ـ في الوقت أو بعد ذلك إسم « السِماَط الكبير » أي الشارعة المصطفـة

حولهـــا دكاكين التجارات ، وقد صارت هذه الجادّة بعد حين قلب العاصمة النابض ، ومحور حركتها التجارية .

يقول البكري [١] : « وكان السِمَـاط سوق القيروان متصلًا من القبلة الى الجوف، وطوله من باب أبي الربيع الى الجامع ميلان غير ثلث، وكان سطحاً متصلًا فيه جميع المتاجر والصناعات ، وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك » الخليفة الاموي على يد عبيد الله بن الحبحاب واليّه على افريقية .

وما برحت همة الولّاة منصرفة الى الفسح في عمارة القيروان الفتية، فما منهم واحدٌ الاّ ويضيف اليها معالم جديدة أو على الاقل يدخل تحسيناً مناسباً على ما كان موجوداً بها من المباني .

قال المالكي : [٢] « ... ورجع حسان بن النعمان الى القيروان ـ بعد قتل الكاهنة ـ واقام بها وعمّرها المسلمون ، وانتشروا بها ، وكثروا فيها وأمنوا » .

ونعلم ان حسانا لما عاد الى القيروان هـدّم المسجد الجامع الذي كان خطه عقبة ، وكأنه استضعف بناءه ، فهدمه ولم يترك من آثاره سوى المحراب ، وجدّد بناءه وحمل اليـــه « الساريتين الحمراوين المؤشاتين بصفرة ، اللتين لم ير الراؤون مثلهما، من كنيسة كانت لِلْأَوَّلِ في الموضع

---

(١) المسالك ص ٢٦

(٢) رياض النفوس ١ : ٣٧ و ٣٨

المعروف بالقيسارية [١] بسوق الضرب ، وكان ذلك بعد سنة ثمانين من القرن الاول أو قبلها بقليل .

ويستمر البكري في وصف المدينة ـ ناقـــلا بلا شك عن الوراق القيرواني فيقول : [٢]

« فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك ـ من ١٠٥ الى ١٢٥ هـ ـ (٧٢٤ ـ ٧٤٣م) كتب اليه عامله على افريقية يعلمه ان الجامع يضيق باهله ، وان بجوفه جَنّة كبيرة لقوم من فهر . فكتب هشام اليه يامره بشرائها وان يدخلها المسجد الجامع ، ففعل ، وبنى في صحنه ماجلا وهو المعروف بالماجل القديم بالغرب من البلاطات ، وبنى الصومعة في بئر الجنان ونصب أساسها على المآء ، واتفق ان وقعت في نفس الحائط الجوفي » . وهذه المأذنة ليست هي الموجودة به الآن ، إذ ان هـــذه الاخيرة من انشاء زيادة الله الاول .

ومن ناحية أخرى نعلم أن حسانا هو أول من « دوّن الدواوين

(١) قوله « القيسارية » اي المنسوبة الى قيصر وتكتب بالسين او بالصاد وهو اسم رومي بيزنطي ، كان يطلق في الحضارة العربية على كل سوق بها حوانيت للتجارة يحيط بها جدار يدخل اليها من باب واحد ، على شكل ما كان يسمى (الخان) عند الاتراك والفرس بالمشرق ، وبقيت هذه التسمية لكثير من الاسواق القديمة في تونس وصفاقس وغيرهما من المدائن التونسية الى زمننا الحاضر

(٢) المسالك ص ٢٢ و ٢٣

بافريقية ووضع على سكّانها ـ من أفارقة وروم وبربر ـ الخراج والجزية» يعني الضريبتين اللتين شرعها الاسلام [١]

ثم خلف حساناً على البلاد موسى بن نصير، فاوسع دائرة الدواوين، وسنَّ لها نظاماً محكماً على غرار ما كان جارياً في أقطار المشرق الخاضعة للعرب ، فالى موسى يرجع الفضل في سبك النقـود العربية بالمغرب ، وقد اتخذ لعملها « دار الضرب » للمسكوكات،وبان مقرّها ـ فيا يلوح ـ بجوار بقية مصالح الحكومة اي حذو دار الامارة بالقرب من الجـامع ، ولدينا عدد وافر من نقود موسى بن نصير ما بـين دنانير ذهب ، على شكل وطـراز دنانـــير جرجير البطريق البيزنطي ، وهي المعروفة بالدينار الجرجيري ، وبين فلوس من نحاس مرسوم عليها اسـم موسى بالحروف اللاطينية،ولم نعثر له على دراهم فضة ،والظاهر انه لم يضرب منها شيئا .

وقد أفردنا بحثا مستقلا للنقود العربية الافريقية سيأتي بعد .

مصانع الماء

ولا يفوتنا في هذا المقام ان نلمح الى اهتمام الخلفاء الأمويين أنفسهم بتزويد القيروان بصانـع الميـاه الصالحة للشراب ـ والمـاء عنصر الحياة الاول في نظام المـدائن ونموّها ـ فقد روى البكري : « ان هشـــام بن

(١) ابن العذاري : ج ١ ـ ص ٦٨

عبد الملك أمر عامـــله على القيروان (يعني عبيد الله بن الحبحاب) بإنشاء خمســـة عشر ماجلًا (صهريجا) خارج سور المدينة تكون سقايات لاهلها ، فباشرها الوالي وأتمّها في مدة سريعة ، وما زال البعض منها معروف المكان خصوصا في المحل المسمى اليوم بفسقية الباي، وهي غير بعيـدة عن فسقية الاغالبة من شرقيها ، وكانت هـذه المصانع من المتممات الضرورية لتكامل عمران المدينة ، ولهذا السبب نفسه سميت القيروان قديما (بمدينة الصهاريج وبمدينة المواجل) لكثرة سقاياتها .

ويلوح لي ان مجاري المياه الوسخة (القنوات) الموجودة بالقيروان انما أحدثت في العصر الاموي أيضاً ، ومن يتأمل هندسة هذه القنوات يحكم بان وضعها كان في غاية الاتقان من الناحية المعمارية الفنية .

الاسواق

ومن المناسب أن نشير هنا ـ بكلمة عاجلة ـ الى النظام الذي نشأت عليه أسواق القيروان المخصّصة للتجارة والصناعة وسائر المهن، ويظهر أن الوالي الذي أمـر بتنظيمها بادىء بـدء ونسّقها على مـادامت عليه دهراً طويلًا هو الامير يزيد بن حاتم المهلبي ـ في حدود سنة ١٥٦ هـ (٧٧٣ م) .

حكى ابن العذاري [١] ـ ناقلا بلا شك عن الرقيـق ـ قال : « قـدم يزيد بن حاتم افريقية وأصلحها ، ورتّب أسواق القيروان ، وجعـل

(١) البيان المغرب ١ : ٦٨

لكل صناعة مكاناً يقصد سوقاً معينة ،والظاهر ان الترتيب الذي وضعه يزيد للاسواق كان على قاعدة ما كان متعارفاً ومألوفاً في المدائن التي أحدثها العرب في العراق ، أي : البصرة والكوفة،ثم واسط وبغداد .

ولا يخفى ان نشأة يزيد ـ وجميع آل المهلب الازديين ـ انما كانت في البصرة فلا غرابة حينئذ في تقليده لما كان جارياً في مسقط رأسه ، وكأنه اعتبر في ترتيبها ما يوجد من العلاقة بين التجارات والصناعات بعضها ببعض فنسقها تنسيقا ملائما ، وقد جعل الدكاكين صفاً متّصلا يقابله صف مثله ، وعيّن لكل سوق مكاناً خاصاً مستقلاً ، وجعل على رأس كل صنف منها عريفاً اختاره من بين وجوه تلك الصناعة . ووظيفة العريف ـ ويسمّى اميناً ايضاً ـ ان يشرفَ على سيرها ، ويقاوم ما يطرقها من الغش ، ويسهر على حسن العلاقات بين اصحاب المهنة وعمّالهم واعوانهم ، ويحرس على ضمان حقوق الاجير كبيراً كان او صغيراً (١)

وليس من شك ان نظام الاسواق على ما رتّبه يزيد بن حاتم في القيروان سرى دستوره الى بقية المدائن الافريقية مثل تونس ، وصفاقس وسوسة، وغيرها وامتدت سُنّته بعد حين الى عواصم المغرب مثل (تاهرت) قاعدة بني رستم ، و (سجلماسة) عاصمة بني مدرار ،

---

(١) المالكي « .. وكانوا في ذلك الوقت يسمون الصغير الذي يشتغل في دكان الصنعة « غلام فلان ».

و (فاس) التي احدثها الادارسة العلويون ، ثم انها تحوّلت الى ما هو أبعد من ذلك ، حيث عبرت مجاز طارق ودخلت الى عدوة الأندلس وصقلية واستقرّتْ بقواعدهـا الكبيرة مثل (قرطبة) و (طليطلة) و (اشبيلية) و (بلرم) وغيرها ، وكانت نتيجة هذا الانسجام ان اصبحت تسمية الاسواق واحـدة او متقاربة في سائر بـلاد المغرب ، مثل سوق العطّارين ،وسوق الورّاقين ، والسرّاجين ، والبزّازين ، وهلم جرا .

ولا أدل على ذلك من تسمية « سوق الـبِـيرْكَة » (بكسر البـاء) . وقد شغل فكري وجه هذا التشابه مدة من الزمـان حتى وقفت على خبر اورده ابن عبد الحكم في تاريخه عند ذكره لتخطيط عمرو بن العاص لمدينة (الفسطاط) التي انشأها بعد فتح مصر ـ سنة ٢٠ هـ ـ قـال ابن عبد الحكم : « كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب : أنّا قد اختططنا لك داراً بالفسطاط عند المسجد الجامع » فكتب اليــــه عمر رضي الله عنه : أنّى لرجل بالحجاز تكـون له دار بمصر ؟ ! » وأمره ان يجعلها سوقاً للمسلمين » قال ابن لَهِيعَة: هي دار البِيرْكَة ، فجعلها سوقاً كان يباع فيها الرقيق . [١] ولذلك كانت تعرف بـبِيركة الحبش اي الرقيق .

ويظهر لي ان الجنود الوافدين من مصر على افريقية في خـــلال القرن الثاني نقلوا هذه التسمية بعينها الى القيروان ، فاطلقوها على

(١) كتاب فتوح مصر والمغرب ـ ص ٩٢

السوق التي يباع فيها الرقيق ، فقالوا « سوق البركة » كما عرفوها في الفُسطاط ، ولم تقف هذه التسمية عند القيروان فحسب ، بل انها امتدت الى مدينة تونس ، وسوق بِرْكتها لعرض العبيد وبيعهم من أقدم ما يوجد بها ، ثم انها تحوّلت بعد ذلك الى فاس ، فعرف سوق رقيقها بالبركة ، ومن هناك اجتازت البحر وانتقلت الى قرطبة فنُعِت محل بيع العبيد السودان والعلوج بهذا الاسم أيضا .

فانت ترى كيف قطع هذا الاسم المسافات الشاسعة وكيف ارتسم الى ما شاء الله في أسواق متشابهة التجارة ليس بها ولا بقربها بركة ماء . ونظائر هذا كثير في تاريخ المدائن الاسلامية ، يدركها من يتتبع حركة امتدادها وأصول تسمياتها .

وفي القيروان كانت أسواق نُسبت الى مؤسسيها الاولين أو الى بعض من كان يسكن بجوارها من أعيان الرؤساء ومشاهير العلماء فعرفت باسمائهم ، مثل (سوق اسماعيل) التي احدثها ـ سنة ٧١ هـ ـ اسماعيل بن عبيد الانصاري ، احد وجوه التابعين المتوفى بالقيروان سنة ١٠٧ هـ ـ وكانت هذه السوق حذو مسجده المعروف الآن بجامع الزيتونة [١] ـ وكذا (سويقة ابن المغيرة) نسبت الى عبـد الله بن المغيرة الكوفي من كِبار المحدّثين الوافدين على القيروان [٢]

---

(١) طبقات ابي العرب ص ٨٠

(٢) المصدر المتقدم ص ٩٧

(وسوق بني هاشم) المنسوبة الى صالح بن حاجب بن هاشم [١] و (سوق دار الامارة) لقربها منها [٢] وسوى ما ذكرنا كثير .

وما قلناه عن تسمية هذه الاسواق المنسوبة ينطبق أيضا على غير واحد من أحياء المدينة ، وأبوابها القديمة ، مثل (باب سَلَم) و (باب نافع) و (باب ابي الربيع) و (باب أصرم) و (باب أزهر) وقد جاء ذكرها كلها في معالم القيروان قبل القرن الثالث غير انا لم نهتد في كثير منها الى من نسبت اليه لإغفال المؤرخين وأصحاب التراجم التنصيص على ذلك .

ومن الغريب أن يكون في المائة الثانية للهجرة من بين الصناعات الرائجة في القيروان صناعة « الزجاج » وكان لها ناحية معينة تعرف (بالزّجاجين) يعمل بها أواني البلور وتضرب بها الصنوج [٣] .

وجملة القول ان تعمير مدينة القيروان وتمصيرها الاول حصل في

---

(١) معالم الايمان ١ : ١٤٧

(٢) المالكي ٢ - ٥٩

(٣) الصنج وجمعه صنوج : قطعة مدورة من زجاج أبيض او ملون على هيئة الدينار ، تتخذ لاختبار النقدين - الدينار الذهب والدرهم الفضة - ويكتب عليها غالبا اسم الامير ، ومثقال النقد - راجع طبقات أبي العرب ص ٧٨ - وكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي ص ٢٤٠ - وكذا بحثنا عن صنج زجاج ضربه حنظلة بن صفوان أمير افريقية سنة ١٢٤ هـ - في Bul. Archéol. Comité des Inscrip. 1922

مدة من الزمان لاتتجاوز المائة عام من حين خطها عقبة بن نافع رضي الله عنه ، وقد بلغت في ذلك القرن والذي بعده من غزارة العمارة وكثرة الخلائق ما أربى على عامة مدن المغرب والاندلس .

اما أحياء المدينة ومسالكها ودروبها ورحابها وسورها وأبوابها ومجاري مياهها ، وما يتصل بعمرانها تفصيلا فقد أفردنا له مقالاً ضافياً يأتي عند الكلام على أنظمة الدولة الاغلبية حينما اتّسع ملكها ، واستقر سلطانها ، واخذت البلاد زخرفها وازينت ، معتمدين في ذلك كله على ما وصفها به الجغرافيون العـــرب ، وعلى مشاهدات من زارها من أصحاب الرحلات ، وبالله التوفيق .

الوساطة بين عرب الفتح والشعوب الاخرى

كثيراً ما تساءلتُ كيف كان يتفاهم الفاتحون من العرب ، زمن غزوهم ، مع الافارقة ولا سيما مع البربر ومع بقايا الروم ، وما هي لغة التخاطب التي كانت تدور بينهم ، ولم يفدنا الاخبـاريون عن شيء من ذلك ولو باقل إشارة ؟

والذي خطر ببالي بعد البحث ان الواسطة بين العرب وبين الروم البيزنطيين هم: اما أفراد من عرب الشام وفلسطين والحيرة، وكان كثير منهم امتزجوا بالروم وتعلّموا لغتهم واعتنقوا دين النصرانية ، ثم انهم بظهور الاسلام وتغلّبه على بلادهم أسلـــموا والتحقوا باخوانهم العرب وشاركوهم في الحروب والغزوات .

واما أفراد من قبـط مصر ، وكان فريق كبير منهم يحسن اللسان اليوناني ، ولا يفوتنا أن العرب أبقـوا منهم في دواوين مصر جانباً عظيماً بصفة موظفين وأعـوان الخَرَاج ، وفوق ذلك فان مصالح الحكومة العربية في بلاد الكِنانة استعملت رسمياً اللغة اليونانية من زمن الفتح الى آخر أيام عبد الملك بن مروان ، كما تـدلّ عليه أوراق البـرْدي (البابيروس) المكتوبة باليوناني في العصر الاسلامي الاول ، وهي صادرة عن دواوين الحكومة الرسمية وَلديَّ وثيقة من هذا النوع من الاهمية التاريخية بمكان إذ أن تاريخها يرجع إلى سنة ٩٥ هـ (٧١٤ م) أي في آخر ولاية موسى بن نصير لافريقية .

ويؤيد ما ذهبنـا اليه من أن قبط مصر كان يوجد منهم في جيش الغزوات ما رواه ابن ناجي بالنقل عن الواقدي : أن عبد الله بن أبي سرح لما كان أمَامَ مدينة (سبيطلة) وقبل محاربته لبطـريق الروم (جرجير) « كان معه رجـل من قبط مصر .... [١] »

كما يهمّنا معرفة من كان يستعمل العـرب وساطته للمخابرة مع رؤساء البربر وبأيّ لسان كان يقع التفاهم ؟

وقد عنّ لي أنه كان يوجد ناحيـة نائية بالبـلاد المصرية يسكنها من قديم الزمان قوم من سلالة البربر ـ وهي ناحية الواحات المصرية منها (سبوة) وغيرها ـ وان هؤلاء السكّان حافظوا ـ ولا زالوا محافظين ـ

(١) معالم الايمان ٣١/١

على تقاليدهم وعوائدهم ولغتهم البربرية ، وقد فتحهم العرب من أول انتصابهم بمصر ،فيجوز أن الفاتحين استصحبوا منهم افراداً في جيوشهم المُرْسَلة الى افريقية ، واتخذوا منهم تراجمة تسهيلاً للمخابرة مع بني عمهم برابرة المغرب ، ريثما يعتنق برابر افريقية الاسلام ويتعلم أبناؤهم لغة القرآن ويصيرون جزءاً لا يتجزأ منهم .

وعسى أن تساعدنا النصوص البَرْدِيّة يوماً ما على فكّ هذا المشكل كما نامل أن تكشف لنا عن كثير من المسائل التي تعرض من هذا النوع ويعسر الآن حلّها .

الوعي الثقافي

القرن الثالث للهجرة من أزهر عصور العلم في الاسلام ، فيه نهضت الأمم العربية نهضتها الكبرى ، وفيه ظهرت رغبة المسلمين في الاطلاع على مكنون الاشياء ، وفيه تمخّضت فكرة التنقيب والبحث ، ونبعت القرائح ، وولّى العرب وجوههم الى البحوث العلمية بعد ما شغلتهم فتوح البلدان قرنين كاملين ، فحوّلوا حينئذ انظارهم ، في مشارق الارض ومغاربها ـ الى اكتساب المعارف ، متّبعين في ذلك سنّة مَن تقدمهم من الأمم الفاتحة ذات المدنيات العالمية،خاضعين لناموس الطبيعة وقد ساقهم حبّ الاطلاع الى كشف ما بيد غيرهم من التراث العلمي الموروث .

وقد ساعدهم على هذا الاهتمام انحيــاز كل شعب من الشعوب الاسلامية بصقعه ، واستقلاله بوطنه استقلالاً كاملًا او ذاتيًّا ، مما اعانهم على اظهار مزاياهم ونحائزهم القومية .

في عنفوان الخلافة العباسية استقلت بلاد فارس ، وارثة تمدن بـني ساسان ، واستقلت مصر ذات الحضارة الراسخة من عهد الفراعنـة ـ وهي أقدم حضارة عرفها البشر ـ واستقلت الاندلس صاحبـة التمدن اللاطيني القوطي ، كما استقلت إفريقية (تونس) ذات التقاليد الموروثة من لدن القرطاجنيين فالرومان فالروم البيزنطيين .

وكان نقل العلم في الاسلام قد بلغ منتهاه ، واقتدت الممالك الجديدة في عنايتها بالثقافة بما هو سائر في بغداد ـ عاصمة الخلافة وكعبة البلاد ـ وَعْيًا وحضارة .

انكب ابناء الجيل العربي الجديد على اقتناء المعارف ، وضربوا أكباد الابل بالرحلة في أطراف البلاد سهلها ووعرها ، وقطعوا المفاوز، وجابوا الفيافي والفدافد في طلب العلم ـ ولو من الصين ـ فأمّوا العواصم العربية القاصية كالمدينة والكوفة والبصرة ، رغبةً في اخذ الرواية الصحيحه والسند الثابت من المنابع الفيّاضة للسنّة والتشريـــع .
وانعكف فريق منهم ـ بتحريض من الامراء ـ على البحث عن شتى المدنيات السالفة ، والوقوف على ما تحوي من ذخائر المتقدّمين وخزائن كُتُب السلف ، وما تشمل من نتائج التجارب السابقة ، فضربوا

الارض طــولاً وعرضاً ، وقصدوا الهند وما وراء النهر ، وعطفوا على مخبّئات (جند يسابور) الفارسية ، وهياكل (اثينة) اليونانية ، و (حرّان) مدينة الصابئين الوثنيين ، و (الاسكندرية) مستودع العلوم الهلينية الاغريقية واستخرجوا دفائنها من مرقدها العتيق ، ونبّهوها من سُباتها العميق ، فصقلوها بالسنتهم ، وعرّبوا معجمها ، وقرّبوا شاردها حتى أصبحت لديهم شيئاً مالوفا .

ولم يقف أبناء العرب ومن انتسب اليهم عند هذا الحدّ بل جلبوا الى ديارهم مشاهير التَّراجمة ، وجاؤوا بالرهبان والقساوسة من المعابد ، والكهّان من الهياكل والبيعات والسينوغات [1] واستكشفوا ما تكنّه صدورهم من علوم كامنة وأسرار خفية ، ورووا عنهم الاسانيد المحفوظة ، المضنون بها عن غيرهم ، حتى بلغوا الحاجة وأدركوا المطمح الأسنى الذي ترمي اليه نفوسهم .

وإذ ذاك جاشت قرائح تلاميذ الامس ، ونبعت خواطرهم بما حوّت من علم جمّ واطلاع دقيق ، وكان نتاج انكبابهم على تطبيق التجارب ، ورصدهم الكواكب ، واستخراج مجهول الحساب أن فاقوا أساتذتهم بالامس ، فحملوا منار العلم عاليا ، وتقدموا بالمدنية البشرية جمعى بخطى لم يدرك سواهم مداها ، ولا بلغ غيرهم نصفيها !

* * *

(١) السينوغة - هي كنيسة اليهود في عرف الاندلسيين والمغاربة قديماً، وهي عند الافرنج Synagogue واصل اللفظ يوناني بمعنى مجتمع .

نقصر بحثنا هنا على ما انتجت جهود العرب في ميادين العـــلوم والرقي الفكري في القطر الافريقي ـ ونعني به البلاد التونسية ـ حينا كانت عاصمته الكبرى : مدينة القيروان .

مأثرة الاغالبة

في أواخر القرن الثاني للهجرة نال (بنو الاغلب) التميميون الاستقلال بإمارة افريقية ، ولم يشذّوا عن دائرة الخلافة العباسية القائمة في بغداد ، ولا حاولوا الانسلاخ عنها بل التزموا ـ طيلة مدة استقلالهم الاعتراف بسيادتها العلياء ، والامتثال لاشارتها،والانقياد الى توجيهها في مهات الامور ، واظهار الخضـــوع لسلطانها بدفع خراج سنوي ، وتقديم الهدايا المرسومة في كل سنة،وباعلامها بما يحدث في البلاد من جليل المسائل والقضايا ، وبالتالي بخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية .

تعهّد ابراهيم بن الاغلب ـ مؤسس الاسرة ـ لهارون الرشيد برفـع خراج قدره ستون الف دينار ذهباً في كل عام ، وباسقاط الاعانة المالية التي كانت تمدّ بها الخلافة حكومة افريقية ومبلغها أربعون الف دينار ، وبذلك صارت جملة جباية تونس مائة الف دينـار ، واستمرت الـدولة الاغلبية ترفع هذا الخراج الى مقرّ الخلافة الى آخر مدتها .

ونالت دولة بني الاغلب امتيـازات عريضة خوّلت لهـا التصـرف المطلق في داخل البلاد ، وحصر وراثة ملك الامارة في أفراد الاسرة .

وعلى تلك القواعد الاساسية الحافظة لحقوق الخلافة من جهة،ومن

أخرى المساعدة للبلاد التونسية بتـدبير شؤونها الداخلية والخـارجية تمّت المشارطة بين هارون الرشيد وابراهيم بن الاغلب .

* * *

يدهش الباحث أمام الصعوبات الـتي اعترضت الدولة الاغلبيـة من حين انتصابها ، ويعجب مما قاسته البلاد من كفاح مضنى فى سبيل اذلال العراقيل الحادثة داخل البلاد وخارجها ، فمـــن ثورات رؤساء الجند العربي الطامحين لتحطيم الحكومة الفتيئة طمعاً في الحلـول مكانها ، الى مقاومة عصابات البربر الـتي ترمي ـ بحكم النُعرة القَبَليـة ـ الى إقصـاء السلطة العربية المستأثرة بالامر .

أضف الى ذلك ضرورة اتخاذ وسائل الدفـــاع والحيطة عن بلاد معظمها ممتدٌ على ساحل البحر ، تترصد الاساطيلُ البيزنطية والافرنجية الفُرَصَ للوثوب على مرافيه لامتـــلاكها وتأسير سكّانها ، الى مقاومة أطماع القبـائل البربرية ـ مثل زناتة ، وكتامـة ، وهـواوة المتمرّسة بالاوعار كجبال (الاوراس) وغيرها ، الى ترميم ما انثلم من عمارة البلاد القديمـة ومعالمها العمومية ـ رومانية كانت أو روميـة ـ مثل الحصـون والطرقات والجسور والسدود ومصانع الميـــاه الضرورية ـ ضرورة حيوية ـ لصقع معطش في الصيف ، غريق في الخريف ، بسبب تهاطل الامطار وغور السيول على المزارع والمغروسات .

اتجه أمرآء بنى الاغلب بهمّة لا تعرف الكلل ولا يعتريهـا الفتور ،

واخلاص نادر الى هذه المشاكل كلها في آن واحد ، فذلّلوا صعابها ، واخضعوا شاردها الى ان بلغوا غاية لم تدرك في اي عصر من عصور تاريخ افريقية .

وهنا نقطة اعتبار لا محيص للباحث من الوقوف عندها ، والفات النظر اليها : وهي قلّة ما لدينا من الوثائق التاريخية لأفخر عصر ، وندرة النصوص الواصلة الينا عن أجل دور قامت به دولة عربية في هذه البلاد .

ذلك ، انا لم نجد مؤرخاً مواطناً شاهد عصر الاغالبة ، عصراً لم تتجاوز مدّته حياة شخص من المعمّرين ، وكتب لنا ما رآه ، ودوّن عن عيان أعمال بني الاغلب ، ووصف مآثرهم الجسام عن كثب حتى يتسنّى لنا أن نستمد من تقييداته مباشرة ، مع ان هذا العصر لم يخلُ من رواة اخبار ، ومشاهير كتّاب ، لكن تآليفهم لم تصل الينا بكل أسف[1]

---

(١) نذكر بايجاز من بين هؤلاء الاخباريين المفقودة تصانيفهم التاريخية: (عيسى بن أبي المهاجر) صاحب كتاب « مغازي افريقية » مات آخر القرن الثاني . و (عبد الله بن ابي حسان اليحصبي) توفي سنة ٢٢٧ هـ . والامير الاغلبي (محمد بن زيادة الله بن الاغلب) مدون اخبار أسرته وتوفي سنة ٢٨٣ . و (فرات بن محمد العبدي) . مات سنة ٢٩٢ هـ . واخيراً (الحسين بن عبد الرحمن المعروف بالوكيل) مات سنة ٣١٠ هـ . وهو بلا شك أكبر مؤرخ لذلك العصر . وقد أوردنا تراجم حياة هؤلاء الاخباريين وغيرهم في كتابنا الكبير « كتاب العمر »

وغاية ما نعلمه من أنباء هذه الدولة المباركة هو ما تفضّل بالاشارة اليـه بعض مؤرخي المشرق : كابن عبد الحكم المصري، والبلاذري، واليعقوبي مع الملاحظة بأن ما أوردوه عن أخبار افريقيـــة انما أتوا به من باب الاستطراد ولم يكن مقصوداً بالذات .

وعسى الابحاث الاثرية تسمح يوماً مّا بزيادة الاطلاع على انجازات ذلك العصر الذهبي ومخلفاته ، اما لو اقتصرنا على ما لدينا من المعلومات عن أحداث الاغالبة ومؤسساتهم فلا يتحصّل منها الا نتفاً مقطرفة لاتشفي الغليل .

ولا يخفى ان الانباء التي نقلها متاخرو المؤرخـين كابن العـذاري المراكشي ، وابن الاثير ، والذهبي ، والتغريردي ، وحتى ابن خلدون كلها تتكرر وتتناقل باستمرار من عصر الى عصر ومن غير إفادة جديدة .

ولا مشاحّة انه لم يشاهد في الاقطار الاسلامية المعـاصرة للقرن الثالث للهجرة إمارة نالت من متوليها عناية مستمرة ، وجهود متواصلة بقدر ما نالته افريقية التونسية في عصر الاغالبة من كثرة المنشآت الصالحة ، والمؤسسات ذات النفع العمومي . وبفضل تلك العنـاية الصادقة رسخت قدم الحضارة العربية في البلاد ، واستقر فيها الاسلام - ديناً ولغةً - استقراراً ثابتاً نهائياً لم تؤثر فيه الاحداث على مرّ الزمان.

وفي الحقيقة ان الاثار التي تركها (بنو الاغلب) في البلاد هي

الصحيفة الفخرية الكبرى لتخليد ذكرهم الماجد في سجـل التاريـخ ، والتنقيب عن مخلفاتهم هو الوسيلة الرشيدة لمعرفة أعمالهم ومنشآتهم إذا اعوزتنا النصوص الصحيحة والروايات النقلية الموثوق بها .

وقد سلكنا طريقة الإعتماد على النصوص التاريخيـة المروية من جهة ، وعلى ما اكشفته الحفريات الضئيلة من أخرى في تحرير هـــذه العجالة وبالله التوفيق

تقدم الثقافـة

أنشأ الامرآء الاغالبة في مدة استيلائهم مدينتين مجاورتين لعاصمة القيروان ، وهما : (العباسية) ثم (رقّـادة) اتخذوهـا مقرًّا لسكناهم وحوّلوا اليهما الدواوين ومصالح الحكومة ، واسكنوا بجوارهم أفراد أسرتهم ورجال دولتهم وحَرَسهم الخاص .

على ان هذه النقلة لم تكن لتؤثر البتة في مركز القيروان العلمي ولم تتسبب في تراجع حركتها التجارية او الصناعية بل ان القـيروان دأبت على ما كانت عليه من ذي قبل ، وقد تزاحم فيها بالمناكب طلّاب العلم من أبناء البلاد ومن النازحين اليها من أطراف الاصقاع المغربيـة والاندلس .

ففي أواسط القرن الثالث كنت ترى جامعها الكبير ومساجدها ونواديها العلمية مكتظّة بالتلاميذ صغاراً وكباراً مثلما كان يشاهد في معالم بغداد والكوفة والبصرة وفي فسطاط مصر .

ولم يغفل الامراء بعد انتقالهم عن زيارة القيروان مرتين في الاسبوع على الاقل يومي الاثنين والخميس ـ لتفقّد العاصمة وحضور صلاة الجمعة بمسجدها أو لتشييع جنازة عالم كبير ، وكان من عادتهم « أن يركبوا في ليالي شعبان ورمضان من العباسية أو من رقّادة في حاشيتهم ورجالهم وبين أيديهم الشموع الموقودة فيمشون حتى يدخلون القيروان من (باب أبي الربيع) ووراءهم دوابّ محمّلة بالدراهم ، فيعطون منها الضعفاء والمساكين ، ويزورون الدمناء وهي ـ مرستان البلد ـ فيوزعون على من بها من المرضى وذوي العاهات ، ثم ينتهون الى المسجد الجامع فيتلقاهم السكان ويدعون لهم ، ثم يعودون الى قصورهم . »

ولا ننسى ان سوق العلوم ـ والدينية منها خاصةً ـ راجت في القيروان منذ فجر الثاني للهجرة ، وقصد أفواج من أبنائها ـ مثل عبد الرحمن بن زياد ، وعلي بن زياد ، وعبد الله بن فرّوخ ، وعبد الله بن غانم وسواهم كثير ـ قصدوا الحجاز والعراق وأرض الكنانة في سبيل رواية الحديث وعلوم العربية ، وعادوا الى وطنهم مملوئي الوطاب بما اجتهدوا في اقتنائه ، فبثّوا بين طبقات الشباب الافريقي معلوماتهم ،

وعكفوا على تدوين مروياتهم واستنباط أصول الأحكام من الكتـاب والسنّة .

أجل ! أقبل الافارقة على دراسة العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وما الى ذلك ، كما تناولوا الفنون اللسانية من لغة وأدب وبلاغـة فاقبلوا على دراستها أيما اقبال فنبغ من بينهم النحوي الضليـع والشاعر البليـغ .

والحدث العظيم لانبعاث العلوم الرياضية الذي لم يسبق له نظير في الاقطار المغربية الاخرى هو قيام الامير ابراهيم الثاني بتأسيس جامعة علمية لدراسة الفلسفة والطب والفلك وتقويم البلدان في مدينة رقادة ، مقلداً في ذلك (بيت الحكمة) العباسي المحدث في بغداد ،

وتزاحمت الآراء والمذاهب بافريقية التونسية في العصر الاغلبي، فكنت ترى في القيروان وفي مدينة تونس ورقادة وغيرها من المدائن علماء أجلاء وطلّاب علم مختلفي العقائد والنزعات والميـول ، فمنهم السنّيون ممن يقول باراء اهل المدينة : مالك وأصحابه،ومنهم من يرجّح أراء اهل العراق : ابي حنيفة وابي يوسف ومدرستهما ، ومنهم من يميل الى أقوال الاوزاعي،وسفيان الثوري،ومحمد بن ادريس الشافعي، ومن ناحية أخرى كنت تشاهد من أبناء البربر المتمسكين بالنِحَل الخارجية كالصّفريّة والإباضية منكبّين على دراسة كُتب دعوتهم من أهل البصرة والكوفة ، وبجنب هؤلاء الخوارج : المعتزلي المتغالي في اتبـاع القاضي

عبد الجبار والجُبّائي وابراهيم بن عُليّة وغيرهم ، والمتكلم المتفلسف ممن لا يتقيّد بمذهب مَا ، كما ترى الطبيب المطّلع على ما دُوِّن في العقاقير وفي النبات والادوية المفردة ممن يكرّس أوقاته على فهم تـآليف جالينوس وأرسطو والعناية بشرحها والتعليق عليها ، مما يدلّ بوضوح على انتشار العلوم والفنون وتشتت مع اختلاف المشارب والمناهج ، حسبما يُعرض عليك مفصلًا في الورقات التالية .


العناية بالتعليم



العنـــاية بالتعليم

مضى القرن الأول للهجـرة في افريقية التونسية والشغل الشاغل للعرب الفاتحين تمهيد راحة البلاد واقرار سلطانهم بها ، وقد لاقوا في تلك الاثناء من السكان الاصليين ـ الأفارقة والبربر ـ ما لم يلاقوه من المقاومة العنيفة في أي صقع من الاصقاع التي فتحوها في المشرق .

فكان كل اتجـــاههم منصرفا الى كفاح تلك المعارضة واخضاع شوكة الثائرين المتمسكين بالأوعار والجبال في أرض لم يسبق للعـرب اجتيازها واختبارهـا ، ودام الصراع ما بـين نزال وكرٍّ مستمر أكثر من خمسين عاما .

وما انبلج صبح المائة الثانية حتى رسخت قدم العروبة في افريقية ، وابتدأ العرب عندئذ يفكرون في بث تعاليم دينهم القـــويم ، تلك التعاليم التي ما حاربوا الشعوب الا لاعلاء شانها ، وما غزوا الا نشراً لها ، متّخذين تلك الوسيلة العظمى لإشاعة لغتهم ولفهم مبادىء شريعتهم .

تظاهر الأفارقة باديء ذي بدء بالانضمام الى معتقد الفاتحين ، وهم في الحقيقة يضمرون في صدورهم الانتـقـاض عليهم متى سنحت لهم الفرص بذلك ، لكن بمرور الزمان ظهر جيل جديد منهم ، نشا تحت حكم العرب ومازجهم في اوضاعهم ، وتعلّم لسانهم ، وقلّـد اخلاقهم .

وقد تسرَّبت تعاليم الاسلام الى قلوبهم ، فاصبحوا من أبنائه ، يدافعون عن حوزته ، ويعملون على انتشاره وإعلاء رايته .

يرجع الفضل الأكبر في الدعاية للاسلام بافريقية الى دولة بني أمية ، فما من خليفة منهم ، ولا قائد جيش ، ولا والٍ ، ولا محارب من جندهم ، إلَّا وقد كانت عنايته متجهة الى تعميم الدعوة ، وتوطيد اللغة العربية ـ لغة القرآن والحديث ـ وما منهم إلَّا وقد جعل تلك الأمنية الغاية الكبرى التي يرمي اليها طموحهم الأسنى .

روى الرقيق ـ مؤرخ القيروان ـ ان موسى بن نصير : « أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقّهوهم في الدين[١] » ونقل غيره : « ان موسى ترك سبعين رجـــلاً من العرب يعلمون البربرَ القرآن وشرائع الاسلام » وكان عقبة بن نافع ترك فيهم قبله بعضَ أصحابه يعلمونهم القرآن ، منهم تابعه (شاكر) وغيرهم .

وهنا تجدر الاشارة الى البعثة الدينية المؤلفة من عشرة من وجوه التابعين التي ارسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز الى القـــيروان بقصد تفقيه البربر وارشادهم الى شرائع الاسلام وتعاليمه العالية ، فما كان من هؤلاء المرشدين الا أن اختـــطّ كل واحد منهم دارًا لسكناه ، وبنى بحذائها مسجدًا لعبادته ومجالسه ، واتخذ بقربه كُتَّابًا لتحفيظ القرآن وتلقين مبادىء العربية لصغار أطفال البلد .

---

(١) البيان المغرب لابن العذارى ٢٧/١

حكى غياث بن أبي شَبيب قال: « كان سفيان بن وهب ـ صاحب رسول الله ـ يمرّ علينا ونحن غلمة بالقيروان ، فيسلّم علينا في الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه »(١) ولا يخفى ان دخول سفيان ابن وهب الى افريقية كان خلال سنة ٧٨ هـ ـ ٦٩٧ م ـ في خلافة عبد الملك ابن مروان ، فيستفاد من سياق هذا الخبر انـه لم يمضِ ربع قرن على تاسيس القيروان حتى وجد بها كَتَاتيب كثيرة للتعليم .

وحكى الدبّاغ ـ نقلًا عن الرقيق : « ان عبد الله بن غانم الرعيني ـ قاضي القيروان سنة ١٧١ هـ (٧٨٧ م) دخل عليه يوماً ولد صغير له من الكتّاب ، فسأله عن سورته ، فقال : حوّلني المعلّم من سورة (الحمد) فقال له : أقرأها ، فقرأها ، فقال له : تهجّها ، فتهجاها ، فقال له أبوه: أرفع ذلك المقعد،فرفعه فاذا تحته دنانير دون العشرين وفوق العشرة ، فقال له : أرفعها الى مؤدبك ، فرفعها اليه ، فأنكرهـا المعلم على الولد وظن بعض الظن ، وحملها الى عبد الله ابن غـانم ، فقال له عبد الله كالمعتذر : لعلك رددتّها استقلالًا لها ، فقال المعلم : « ما أتيت لهذا ، وانما ظننت ظنًّا » فقال له القاضي : أتدري ما علّمته يا معلّم ؟ كل حرف منها خير من الدنيا وما فيها »(٢) .

وهكذا تسنى لأبناء العرب والبربر على السواء أن يتلقّوا التعليم الابتدائي في كل حي من أحياء العاصمة القيروانية،وقلّدها في هذا العمل بقية

(١) معالم الايمان ١ ـ ١٢٠

(٢) معالم الايمان ٢ ـ ١٣

المدائن في سائر أنحاء بلاد المغرب . ومع الزمان تدرّجت الدراسة من الكتاتيب الى المساجد والجوامع ، وحَلَقَ الطلبة على الشيوخ من حفاظ القرآن وقرآئه ، ورُوّاة الحديث ، وحَمَلَة الفقه وما الى ذلك ، فشاعت منذ ذلك الوقت طريقة التعليم على غرار ما كان موجوداً بامصار المشرق العربي ومدائنه .

هذا ما وصل اليه علمنا عن مبدأ ظهور التعليم في حواضر افريقية. أما طريقته في البوادي وفي داخل البلاد حيث كانت الاغلبية للعنصر البربري،فقد نقل الينا أقدم المؤرخين الافريقيين ـ وهو (سَلّام بن عمر) خبَراً مفيداً يرشدنا الى وسيلة تعلّم أبنــاء البربر لشرائع الدين ، قال ابن سلام [١]:

« أخبرني أبو صالح النفوسي بتوزر قبل سنة أربعين ومائتين : أن أول من علّم القرآن بجبل نفوسة [٢] عمر بن يَمَـكْـتَن ، علّمه بمنزل (ايفاطمان) ، ويقال ان عمر هذا انما تعلّم القرآن بطريق (مُقَمْدَاس) ، كان يتلقى فيها السّابِلة والمارّة من المشرق (يعني الجند العربي الداخل الى افريقية) فيكتب عنهم لوحة من القرآن وينصرف الى منزله ، فاذا حفظ ما فيه رجع الى المحجّة فيكتب من المارة والرِّفاق كذلك

---

(١) كتاب السير للشماخي ص ١٤٢

(٢) نفوسة ـ جبل واقع في الناحية الجنوبية الشرقية من افريقية وهو الآن في المملكة الليبية من تراب طرابلس ، وبه قرى كثيرة عامرة .

حتى حفظ القرآن وتعلّم العلم ، ثم قال : « وذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الاسلام وقلة المعلمين في البلدان »

وكان عمر بن يمكتن المذكور يعيش في أوائل الدولة العباسية ـ في حدود سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م)

يستفاد من الخبر المتقدم ان الطريقة المشار اليها من ترصّد ناشئة البربر للسابلة من العرب القادمين من مصر الى القيروان في مبتدأ المائة الثانية للهجرة انما حصلت على الصورة المحكية آنفا لسببين كبيرين:

الأول ـ حرص أبناء الأهالي الاصليين على تعلّم الدين الجديد واجتهادهم في مزاحمة ابناء الفاتحين رغبة في الالتحاق بهم والاستواء معهم في المعرفة .

الثاني ـ قلة وجود المصاحف المكتوبة في ذلك العصر حتى يحتاج المتعلمون للتعرّض الى المسافرين الوافدين من المشرق ، وتلقّي سور القرآن بالاملاء منهم ورسمها على الألواح بقصد حفظها .

ويؤيده ما نقل أبو العرب في ترجمة اسماعيل بن رَبَاح الجزري ـ من رجال القرن الثاني ـ قال : « وحدثني من اثق به ان اسماعيل كان في طفولته يحضر الكُتّاب فـاذا حفظ ما في لوحه غسل ما فيه من القرآن بالماء في اناء معد لذلك »

ومن هذا الباب ما حكاه عبد الله بن اسحاق التبّان ـ تلميذ أبي العرب المتقدم . قال [1] : « كنت في أول ابتدائي التعلّم أدرس الليل

(١) المدارك ٢ ـ ومعالم الايمان ٣ ـ ١٠٩

كله ، فكانت أمّي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنت آخذ المصباح وأجعله تحت الجفنة - أي القصعة - وأتعمد النوم ، فاذا رقدت أمي أخرجت المصباح وأقبلت على الدرس الى الفجر ....» قال : « وقال لي أبي ذات يوم : يا بني ! ما يكون منك ، لا تعرف صنعة واشتغلت بالعلم ولا شيء عندك ؟ - فلما كانت ليلة من الليالي سمعته يقول لوالدتي : عرفت اليوم اني اشتهرت بابني ، وذلك اني حضرت امـــلاكا في مسجد سمّاه - من مساجد القيروان - فوجدته مملوءا بالنـاس ولم أجد مجلسا لي ، فقـام لي رجل عن مجلسه وأجلسني فيه ، فسأله انسان آخـر عني ، فقال له : أسكت ! هذا والد الشيخ أبي محمد التبّان - فمن ذلك اليوم رجع والدي عن فكره الأول وحرّضني على طلب العلم والتزم القيام بشأني من يومئذ»

وروى أبو العباس الأبياني التونسي [١] : ان محمـــد بن عبدوس - المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ٨٧٤ م - اقام سبع سنين يدرس العلم ولا يخرج من داره الا لصلاة الجمعة .

ذكّرني هذا الخبر ما رواه أبو العرب في ترجمة أبي جعفر احمد بن شَهر بْن القيرواني فانه قال : قلت يوما لشيخي أبي العباس بن زُرزُر : أخبرني بدواء للحفظ ، فقال لي :أو ماعرفته ؟ قلت:ما أعرفه.فقال : الدرس بالليل ، والمناظرة بالنهار ! »

ومن هذه الاخبار المروية يتضح لك عناية أبناء افريقية بالتعـلم في العهد الاول للاسلام ، واقبـــالهم على تقييـد مروياتهم واثباتها في

---

(١) المدارك ١ - ٢٤٩

كراريس الرقوق لتكون عونا لهم ـ ولنا من بعـــدهم ـ على مراجعة معلوماتهم ، ومما ثبت عن سحنون في هذا المعنى انه كان يقول :

« العلمُ صَيْد * والكتابةُ قَيْد »

وبمناسبة ذكر الامام سحنون ، فقيه افريقية بلا مدافع ، نقول انه لم يكن له من الولد سواء ابنه محمد ، اعتنى بتربيته وتاديبه وتعليمه حتى كان من شانه أن فاق أقرانه . وقد نقـل الخشني أن سحنون كان يقول لمعلم ابنه لما كان صبيا :

« لا تأدّبه الا بالمدح ولطف الكلام ، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والعُنف،واني أرجو أن يكون نشيج وحده ، وأتركه على نحلتي . »[1] قال سحنون ذلك لما كان يلوح على ابنه منَ مخائل الفطنـة والاستعداد الفطري .

ولنعد الى ما كنا بصدده من تتبع طُرق التعليم في هذا العصر وقد ذكرنا أنباء من طرائقه في المجتمع الافريقي وخاصـــة في البيئة القيروانية ،ولم نتعرض لعناية الطبقة الارستقراطية بالتعلم ، ولا سيما انتشاره بين أبناء الامراء ورجال الدولة وذوي الاقدار والمقامات .

فهـذا ابراهيم بن الاغلب التميمي ـ رأس الاسرة المالكة ـ كان في صغره وقبل قدومه الى افريقية ـ ممن مارس الدراسة بمصر حتى برع ونبغ ، قال الحافظ ابن الأبار: « كان ابراهيم في أول حالته كثير الطلب

(١) معالم الايمان ٢ : ٨٠

للعلم والاختلاف الى الليث بن سعد الفقيه ، والليث وهب له «جلاجل» أم ابنه زيادة الله ، فخرج حتى وصل افريقية [١] . وكان ابراهيم من الشعراء المجيدين والخطباء البلغاء والمترسلين البارعين »

ومن رقيق قوله يتحنّن الى حليلته (جلاجل) وقد تركها بمصر عند قدومه اوّل مرة الى افريقية :

ما سرتُ ميلاً ولا جاوزت مرحلةً　　إلاّ وذكركِ يثني دائماً عُنقي
ولا ذكرتكِ إلّا بتُّ مرتفقاً　　أرعى النجوم كأنّ الموت معتنقي

وابنه زيادة الله الأكبر - تولى من سنة ٢٠١ الى ٢٢٣ هـ - « كان أبوه ابراهيم بن الأغلب اذا قدم عليه أحد من الاعراب والعلماء بالعربية والشعراء أصحبهم ابنه زيادة الله هذا وأمرهم بملازمته ، فكان أفضل أهل بيته وأفصحهم لسانا واكثرهم بيانا ، وكان يعرب كلامه ولا يلحن دون تشادق ولا تقعّر ، ويصوغ الشعر الجيد [٢] »

وما قيل في زيادة الله يمكن أن يوصف به سائر أمراء هذا البيت العربي الصريح من تولى الملك او لم يتوله منهم، الّا ما يروى عن خامس أمرائهم وهو محمد بن الاغلب ، فقد قيل انه كان مبخاتاً في سياسته ، منصوراً في فتوحه ، الا أنه كان يجهل النحو والرسم ، فذكروا « ان رجاء الكاتب - كاتب الدولة - كان يوماً بين يديه فكتب الامير محمد

(١) الحلة السيراء : ٢٢٨
(٢) ك الحلة السيراء : ٢٥٢

(لحم ضبي) بضاد مسقوطة ، فلما خلا المجلس قال له كاتبه : أيد الله الامير ، الظبي يكتب بظاء مرفوعة ، فقال له الامير : قد علمنا فيه اختلافاً ، فأبو حنيفة يجعله بالظاء ، ومالك يجعله بالضاد ! فعجب رجاء الكاتب من جسارته [١] »

على أني أميل شخصيا الى الشك في هذه الحكاية التي يظهر المقصود من وضعها التفكّه وجلب النادرة ، ولا يبعد ان كان تلفيقها في مدة الملوك الفاطميين وكانوا حريصين على الحطّ من شان من تقدمهم لاظهار مزاياهم ، وتفوّقهم على من سلفهم في حكم البلاد . والله اعلم .

والا فانا نرى كل فرد من افراد الاسرة الاغلبية ـ من حين ظهور دولتهم الى حين انقراضها ـ يبذل العناية التامة بالتعليم والحث عليه ، ولا نعرف واحداً منهم من لم يقرض الشعر الجيد في سائر أغراض القريض من حماس الى نسيب ، الى وصف حال ، الى تسجيل حكمة .

فهذا ابراهيم الثاني كان قد تعلّم في صغره اللاطينية حتى أتقنها ، وكان يتكلم بها مع فتيانه وجواريه من الصقالبة ، أضف الى ذلك انه كان يحسن علم الفلك ويرصد النجوم ويرسم أزياجها وحساباتها على صعوبة ماخذها [٢] .

ولابراهيم هذا يرجع الفضل الاكبر والمزية العظمى في تاسيس « بيت الحكمة » القيرواني ، وهو الاول من نوعه في الربوع المغربية بادخال

(١) ابن العذاري ١ ـ ١٠٠
(٢) طبقات النحاة للزبيدي

الغاية يعني عدوة الاندلس . لكن هذه المؤسسة لها عندنا بحث خاص مستقل يأتي فيما يلي .

وهذا عبد الله الثاني بن ابراهيم المتقدم : كان عاقلا أديبا مشاركا في العلوم ، له نظر جيد في الجَدَل وعناية باللغة والادب [١] . أخذ ذلك عن كبار أساتذة القيروان مثل أبي العباس القيّار الحنفي وغيره [٢] .

والأمير محمد بن زيادة الله الثاني ، وَالِي طرابلس ، كان عالما ، اديبا شاعرا خطيبا لا ينادِمَ الا أهل الأدب ، وقد ألف كُتُبا كثيرة في الأدب والتاريخ منها « تاريخ بني الأغلب » لم يصل الينا بكل أسف .

على أن التعليم لم يكن مقصورا على الأُمراء خاصة بل كان يشمل البنات منهم في قصورهم « بالعباسية » ثم في « رقادة » وقد نصب لهن آباؤهن معلّمين من خيرة المؤدبين ومعلّمات ليلقنوهن القراءة والكتابة وحفظ جانب من الذكر الحكيم ، وكذا أشعار فحول المتقدمين ، وأسفرت نتيجة هذا التعليم عن نبوغ غير واحدة من الاميرات فى الادب وصوغ الشعر الجيد ، ونكتفي من بينهن بذكر الشاعرة الماهرة « مهريّة » بنت الحسن بن غلبون التميمي المتوفاة في حدود سنة

---

(١) الحلة ص ٢٦٣
(٢) طبقات ابي العرب : ١٩٧

ـ ٢٩٥ هـ (٩٠٨ ـ م)وقد أوردنا من قولها في غير هذا [١] ما دلّ على رقة عاطفتها وخبرتها بسبك القريض الفائق .

وإذا ما عرجنا على تعليم الامراء والأميرات من بني الاغلب فيناسب أن نسوق أنباء عن حرصهم ـ هم ومن سبقهم من المَهَالبة ـ على تعميم التعليم ونشر وسائله بالتحريض والترغيب بالاقبال عليه . [٢]

نقل المالكي : « ان الامراء الاغالبة كانوا يأتون جامع القيروان ليلة نصف شعبان وليلة نصف رمضان ويعطون من الصدقات كثيرا ، ثم يخرجون في حشمهم وأهل بيتهم من الجامع ـ جامع عقبة ـ الى انحاء المدينة فيزورون دور الزهاد والعلماء ، والكتاتيب والمحارس والدِمنة ـ وهي مستشفى القيروان ـ فيوزّعون عليهم الاموال والعطايا الجسيمة [٣] »

وروى المؤلف المذكور : ان هاشم بن مسرور التميمي ـ من علماء القرن الثالث ـ كان أول ما تدخل الفاكهة القيروان يقف بالمكتب ثم يقول للمعلّم : « أخرج اليّ من عندك من الايتام ، فيشتري لهم الفاكهة ويطعمهم ويدهن رؤوسهم ويقبل بين أعينهم ويقول ـ ما عسى أن أصنع لكم ، اللهم هذا الجهد مني ! »

وأمثال هذه الاخبار المروية في شأن تنشيط الامراء والعلماء

---

(١) المنتخب من الادب التونسي للمؤلف ص ٣٢

(٢) راجع ما كتبناه عن تعليم البنات والجواري وتهذيبهن في فصول من تأليفنا (شهيرات التونسيات) ط . تونس سنة ١٩٦٤

(٣) رياض النفوس (خط) والمعالم ٢ ـ ٧٥

والاغنياء لصغار المتعلمين تكاد لا تحصى ، وقد سقنا منها ما يكفي للدلالة على اهتمام الجميع والمشاركة في وضع الحجر الاساسي للنهوض بالامة في تعلمها وتثقيف افرادها .

اما الملوك الفاطميون بافريقية ، وقبل انتقالهم النهائي الى مصر ، فقد كانت لهم عناية لا مزيد عليها بتربية صغار امراء بيتهم - ذكوراً وإناثا على السواء - فكانوا يجتهدون في تشقيفهم ثقافة علمية واخلاقية عالية تناسب المحيط الراقي الذي يعيشون فيه ، وكانت حاشية قصورهم تتألف من إماء قاريات مهذبات مجلوبات من المشرق ، وكذا مـوال وفتيان يعدّون بالمئات من أجناس مختلفة ما بين صَقَالِبة (من الجرمان) وصقلّيين درّبوهم من الصغر على التعليم بعد إسلامهم وقد خصّوا كل أمير صغير من اولادهم بربي او اكثر يصاحبه في صِباه وطول حداثته ، فيلقنه العلوم ويدرّبه على الفروسية والفُتوّة ويخلقه بالشمائل الكاملة مما يؤهله للقيام بشؤون الملك متى صار الحكم له .

خُذ مثلًا رابع خلفاء الفاطميين وواسطة عقدهم (أبو تميم مَعدّ الملقب فيما بعد بالمعزّ لدين الله) فانه ولد في قصر جده عبيد الله بالمهدية - رمضان ٣١٧ هـ - ٩٢٩ م - ولما نشأ وترعرع سلّمه أبوه اسماعيل المنصور الى مُربٍّ من أخصّ فتيانه وهو (المظفر) فصاحبه حتى كبر وتولى الخلافة . وفي تلك الاثناء تعلّم المعزّ عدة لغات منها (البربرية الليبية) لسان شيعة أسرته وأنصارها من قبائل كتامة، ومنها (الرومية)

وهي اللغة اللاطينية الدارجة التي يتخاطب بها قسم من رعاياهم في البلاد وفي جزائر البحر المتوسط، و (السودانية) التي يتكلّم بها عبيدهم وجانب لا يستهان به من حَرَس قصورهم ، وبهذه المعلومات الواسعة المدى وهذه التربية اشتهر المعز قبل ان يلي الخلافة بحصافة الفكر وفصاحة اللسان والخبرة التامة بتدبير الملك .

أورد المقريزي [١] نادرة طريفة تؤيد ما كان للمعز من المعرفة باللغات قال : «كان (المظفّر) الفتى الصقلبي قد بلغ رتبة عظيمة عند المنصور، وكان المظفر يدلّ على المعز لانه علّمه وهو صغير، فاتفق انه حَرِد - اي غضب - يومًا فسمعه المعزّ يتكلم بكلمة صقلبية استرابها ، فاخذ المعز نفسه بحفظ اللغات ، فابتدأ (بالبربرية) فأحكمها ، ثم (الرومية) فاتقنها ، ثم (بالسودانية) ، ثم مال الى (الصقلبية) فمرّت به تلك الكلمة فاذ هي شتمة قبيحة » فبيّتها المعزّ في نفسه ولم يبدها حتى تولى الخلافة (سنة ٣٤١ هـ) وبعد دهر تنكّر للفتى المظفر وعاقبه عن هفوته المستهجنة لسبب آخر في الظاهر .

يهمنا من هذه الحكاية ان ابناء الامراء ، وكذا افراد الطبقة الارسطقراطية كانوا في عصر فيض حضارة إفريقية يتلقون تعليما متنوّعًا كثيرًا ما يشمل اللغات الاجنبية خصوصًا لمن كان منهم مترشحا

---

(١) ك اتعاظ الحنفاء . باخبار الخلفاء - ط القدس ١٩٠٨ ص ٦٥

للوظائف الدولية كقيادة الجيوش والاساطيل او إدارة ولاية يقطنها عناصر افرنجية او بربرية .

وانا وان لم نجد ما يعتمد عليه لتعيين عدد الكتاتيب بالقيروان في زمان فيض حضارتها ايام الاغالبة والفاطميين ـ فانا نعلم بالتنظير والمقايسة ان مدينة (بَلرمْ) قاعدة صقلية كان « فيها أزيد من ثلاثمائة معلّم يؤدبون الصبيان » كما قصه علينا الرحال البغدادي أبو القاسم بن حوقل الذي زار المغرب في منتصف القرن الرابع ، وقد أردف هذا الجغرافي كلامه المتقدم بقوله : « وهؤلاء المعلمون يرون انفسهم انهم أفضل السكان واجلّهم ، وانهم اهل الله (١) »

فاذا كان في (بَلرمْ) وحدها ثلاثمائة معلّم للصبيان فما بالك بما كانت تحتوي عليه القيروان عاصمة البلاد وكعبتها ـ من المدارس الابتدائية في عصر غزارة عمرانها وتبحّره .

ويلوح لي بهذه المناسبة ان السبب الاصلي الذي حمل محمد بن سحنون وبعده ابا الحسن القابسي على الاعتناء بالتأليف في موضوع « آداب المعلمين والمتعلمين » انما هو الحاجة الماسّة الى تقنين اصول التعليم الابتدائي المنتشر إذ ذاك ايما انتشار بين سائر الطبقات ، فلولا ذلك الانتشار والفيض الكبيران لما كَانَا ـ رضي الله عنهما ـ يعتنيان خاصة

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ط . ليدن ١٨٧٢ ص ٨٧

بسن القواعد له ، ووضع الاصول الواجب اتباعها ، وفي المثل : « الحاجة أم الاختراع » و « الحاجة تحدث الوسيلة »

وفي الحقيقة لم تكن عناية الاوائل باساليب التعليم ونُظُمه باقل من اهتمامهم بتوجيه الطلبة الى ما يناسب استعداد كل فرد منهم وارشاده الى ما تطيق نفسه ويناسب حاله وميوله .

قال سليمان بن عمران : « كان شاب يختلف الى أسد بن الفرات يطلب عليه العلم ، فبينما هو ذات يوم جالس معه اذ سأله عن صناعته ، فسمّى له الشاب حرفته ، فقال له اسد: « قم ! » بانتهار ، فقال له الشاب: ما قصتّي،أصلحك الله؟،ان كنت انكرت صناعتي تركتها»فقال له أسد: ما أنكرتها ، ولكني انكرت تعطيلك لحانوتك الذي منه معاشـــك ، وتقوى به على طلب العلم ، وصاحب الحانوت انما هو بالحرفاء ، فاذا جاءك حريفك اليوم ولم يجدك ، وغدا فلم يجدك ، وبعد غد مثل ذلك استبدل بك غيرك،فضررت بنفسك وبمن تعوله ، ولكن ان عزمت فاجعل لنفسك يومـاً او يومـين في الجمعة يعلم حرفـاؤك بمغيبـك عن حانوتك في ذلك اليوم او اليومين ، فيأخذون ما يحتـاجون اليه قبل مغيبك » ثم زاد أسد فقال : « انظر الى هـؤلاء الذين يأتون من باديتهم ، انما هم اهل حرث وحصاد ، فاذا كان وقت حرثهم وحصادهم لم ترَ احداً منهم يجيء الينا ، فاذا كان انقضى حرثهم وحصادهم عادوا الى ما كانوا عليه من الدراسة [١] »

(١) رياض النفوس للمالكي ج ١ : ص ١٨٥

ومثل هذه النصيحة التوجيهية الصادرة من أسد بن الفرات تجد لها نظائر لا تحصى في تراجم العلماء المرشدين في العصر الذي نتكلم عنه، ولا يفوتنا ان هؤلاء المربّين انما كان عملهم في بثّ العلم ونشر وسائله ، والصبر على اثقال التدريس خالصاً لوجه الله الكريم ، ولم يكن لهم ما يعوّضهم من اتعابهم ولا لهم مرتبات يتقاضونها من حكومة او غيرها ، ولذا كنت لا ترى واحداً منهم الا وله عمل في فلاحة او تجارة يباشره بيده ، يقوم به معاشه ومعاش اهله .

حدّث عبد الجبار بن خالد ، قال : « كنا نسمع العلم من سحنون بمنزله في الساحل ، فصلّى يوماً الصبح ، ثم دخل فخرج علينا وعلى كتفه محراث وبين يديه زوج بقر مقرون ، فقال لنا : « ان غُلامي حُمّ البارحة ، فانا اريد ان اذهب لاحرث مكانه ثم ارجع اليكم اذا فرغت فأسمعكم » . قال عبد الجبار فقلت له : « أنا أذهب أحرث لك واجلس انت تُسمع اصحابنا ، فاذا رجعتُ قرأت عليك ما فاتني به أصحابي » قال عبد الجبار : « فدفع اليّ المحراث فذهبتُ به وحرثتُ ، فلما رجعت ادخلت البقر الدار ، قال : فقرّب اليّ سحنون غداءه فاذا هو خبز شعير وزيت ، فاكلت معه ، ثم قرأت عليه ما فاتني »[1]

ويؤيد هذا الخبر ما رواه يحيى بن عمر الكِناني ، قال: «لما قدمت من المشرق الى القيروان سالت عن سحنون فقيل لي: خرج الى البادية - يقصد

---

(١) رياض النفوس للمالكي - ص ١٨٥

الساحل التونسي - وكان ملك سحنون وزيتونه به - فجئته الى الساحل ، فرايت رجلًا أشقر ،عليه جبة صوف ومنديل،وهو متولّ حرثه وشؤونه، فاستصغرته وندمت على تركي من تركت بالمشرق ومجيئي اليه ، وقلت في نفسي : « ما اراه يحفظ شيئًا من العلم » فرحّب بي ، فلما جالسته في العلم رأيت بحراً لا تدركه الدلاء ! »[1]

وهنا تحسن الاشارة الى ما كان يلبس سحنون من الثياب

قـال تلميذه سليمان بن سالم : رأيت لسحنون ساجاً كحلياً (اي شانا اسود) وساجاً ازرق ورداء (اي حرام) وقلنسوة زرقاء وَشْياً ، وقلنسوة تشبه الاغلبي ، فاذا قعد للسماع لبس الرداء والقلنسوة الاغلبي ، واذا شهد الجمعة لبس الساج وقلنسوة الحبرة ، واذا حضر جنازة لبس الساج الازرق والقلنسوة الزرقاء ، وكان له بُرنس أسود يلبسه في المطر والبرد ، هذا كان اكثر فعله »[2]

وقال حبيب تلميذ سحنون : « خرج علينا سحنون يوماً وعليه بُرنس أسود ، وكان يلبس الشاشية الطويلة » والظاهر انها ما يسمونه بالقلنسوة الاغلبية . .

أشار اصحاب الاخبار الى ما قام به بعض وُلّاة الدولة الاموية من ايجاد وسائل التعليم الابتدائي للنابتة الافريقية ، فقد صحّت الرواية ان

(١) المدارك ١ - ٢٠٦

(٢) الكتاب المذكور

« اسماعيل بن ابي المهاجر المخزومي كان يـؤدب اولاد الخليفة عبد الملك بن مروان بدمشق ، ثم استخلفه عمر بن عبد العزيز على افريقية - سنـة مائة للهجرة - وهو من وجـوه التابعين ، وكانت أم الدرداء اشارت باسماعيل على عبد الملك ان يكون معلّماً لاولاده كما قال ابن عساكر (١)
فاذا كان ولّاة القيروان من العرب يتعاطون مهنة التعليم في المشرق قبل وفودهم على المغرب، فما ظنّك بهم في نشر التعليم في المغرب وحثّ ناشئته على حفظ القرآن واتقان اللغة العربية ، وفي مناقب هذا الوالي الصالح انه في طليعة من أسسوا كتّاباً بجوار مسكنه بالقيروان ، وبه اقتـدى بقية وجوه العرب الفاتحين لا محالة ، وقد أثبت التاريخ ان عامة الامم البربرية أسلمت على يد اسماعيل بن أبي المهاجر ، قال ابن العـذاري (٢) : « وما زال اسماعيل حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى اسلمت بقية بربر افريقية [التونسية] على يـديه في دولة عمر بن عبد العزيز ، وهـو الذي علّم اهل افريقية الحلال والحرام ، وبعث معه عمر بن عبـد العزيز عشرة من فقهاء التابعين اهل علم وفضل منهم عبد الرحمن بن نافع،وسعيد بن مسعود التجيبي وغيرهما . »

واعلم ان الكتاتيب اعتبرت من أول انتصاب العرب بافريقيـة كملحقات للمساجد وتوابع لها فما من حارة اودرب من دروب المـدائن

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢ : ٣٠٨ و ٣ : ٢٥
(٢) البيان المغرب ط ليدن ج ١ : ٣٤ - وطبقات أبي العرب وغيره

التونسية الّا وكان بها ـ من اقدم العصور ـ عدد من الكتاتيب ، بل انها وجدت ايضا بوفرة في دور الاعيان والاغنياء ، وبالاحرى في قصور الامراء والوزراء .

الى هنا تتبعنا آثار العناية بالدراسة في الجيل الاول للمجتمع الافريقي ولا سيما مايختصّ بالعلوم الشرعية من رواية حديث وتفسير وفقـه ، ويجدر بنا الآن أن نـثني عنان البحث الى جانب آخر من التعـليم ، لم يكن الاهتمام به باقل من أصول الشريعة ، واعني الآداب وما يتفرّع عنها من لغة ونحو وبلاغة وقريض .

فها نحن اولاء نورد من أنباء العناية بالآداب العربية بافريقية بقـدر ما تسمح به النصوص التاريخية الواصلة الينـا لتكون شاهداً على اتجاه ابناء ذلك الجيل الراقي واعتنائهم الكبير بهذه الناحية .

ونكتفي في ذلك باقتباس ما يناسب من تراجم كبار النحـاة واللغويين في الناحية التعليمية ، ولا خفاء انهم حَمَلة الادب وأساطين اللغة الذين وطّدوا دراسة العربية في المغرب ، ورسخوا قدمها منذ انبلج صبح الإسلام على هذه الربوع الى اليوم الحاضر .

فنهم أبو الوليـد عبد الملك المهري ، شيـخ أهـل اللغة والنـحو والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدّم في زمانه عليهم ، وصفه أبو بكر الزبيدي الاندلسي في طبقاته ، فقال : « كان من أحفظ الناس لانساب العرب وأشعارها ووقائعها وأيامها ، وكانت أشعار الجاهلية المشروحة

تُقرأ عليه مجرّدة من الشرح فيشرحها ويفسّر معانيها ، فلما دخلت المشروحات من المشرق نظر طلبة العربية والنحو فيها وفيما كانوا رووا عنه منها فلم يجدوا في شرحه خلافا لما قال أصحاب الشروح، ولا وجدوا عليه في روايته وتفسيره شيئًا من الخطأ ، وكان لقي جماعة من العلماء بالعربية والمعروفين بالرواية منهم أبومالك أبان بن الصمصامة ابن الطرمـــاح الشاعر الافريقي ، وعياض بن عوانة الكلبي ، وقتيبة النحوى وكثير من الاعراب منهم أبو المنيع الاعرابي وغيرهم »

حدث حمدون النعجة النحوي القيرواني ، قـال : « كنا نقرأ عند المهري يوما فقال لنا : اخرجوا بنا الى ماجل (مهرية) نتفرج ، وكانت داره بالقرب من سوق الاحد ، فخرجنا وجلسنا نتناظر حوله الى ان مرّ بنا نحو عشرين بغـــلاً أو أكثر ، ومعها رجل راكب ، فلما راى المهري عدل اليه ونزل ثم قال له : يقرأ عليك مولاي السلام، وقد وجه اليـك بهذه الدواب ، وهي محمّلة طعاما وعسلا وزيتا وخلاً ، وبهذه العشرين دينـــارا فاقبضها ، فقبضها منه ، ثم تركها ودمعت عيناه ، وقال : ذهب النـاس ! انا لله وانا اليـه راجعون ! أبو علي بن حميـد (الوزير) يوجه اليّ بهذا ؟ ـ قال حمدون فقلت له : أحمد الله واشكره، فان هذا كثير ، ـ قال فنظر اليّ وهو مغضب ثم قال : هو كثير لك ولامثالك ، فاما لي فلا ! »

وحدّث تلميذه الداروني ، قال: « مرّ المهري بناحية القيسارية عند الصيارفة فقام اليه فتى كان يختلف اليه ويسمع منه فقال له : « الى اين

أصلحك الله يا ابا الوليد ؟ فقال الى سوق الطعام اشتري بهذين الدينارين قمحاً ، فمدّ الفتى يده الى صرة كانت في كمّه قدّمها اليه وقال : استعن بهذا ـ اصلحك الله ـ على شرائك للقمح ، فاخذها ثم مضى غير بعيد وهو يظن انها دراهم ، ففتحها فاذا هي خمسون دينارا ، فانصرف المهري وعاد الى الفتى ، فلما رآه تلقاه ، فاخرج المهري الصرة وقال : أخاف ان تكون غلطت ، انها دنانير ، فقال : ما غلطت ـ اصلحك الله ـ واني محتشم من التقصير ! »

ولا يظن ظان ان تعظيم اهل العلم ورجاله كان يصدر من لدن تلامذتهم فحسب،بل ان إجلالهم وتقديرهم كان يخالج نفوس كل السكّان غنيهم وفقيرهم عالمهم وجاهلهم ، مسلمهم وغير مسلمهم على السواء ، وان اردت شاهداً فاستمع للنادرة التالية :

روى الدارو ني المتقدم ، قال : « مشيت يوماً مع ابي الوليد المهري الى ان مررنا بالجزّارين ، فقام اليه رجل منهم وقال : « يا ابا الوليد ، أضررت بي ، لان بضاعتي كلها عندك ، ولا بدّ لي من قبض مالي الذي قِبَلك ـ فاعتذر اليه المهري وساله الصبر ، فابى عليه ، وفي الاثنــاء مرّ بنا رجل فقال للجزار : كم لك على الشيخ ؟ فقال : عشرة دنانير ، فقال الرجل : هي عليّ حتى أدفعها اليك فمضى الجزار معه ، وظننت انه من اخوان المهري ، وظن المهري انه من أجلي فعل ذلــك ، فلما صرنا الى داره قال لي : مَن الرجل الذي ودّى عني؟فقلت : ـ ما اعرفه،

وما كنت اظن الا انك عارف به ، فقال لي : فسل عنه . فسألت فاذا هو رومي من اهل العطّارين ! »

وقد علّق ابو بكر الزبيدي الناقل لهذه الحكاية بالعبارة التالية : « وكان الناس من تعظيم الادب والعلم على خلاف ما هم عليه اليوم ... »

ومهما يكن فقد عمّر المهريّ طويلا وتوفي خلال شهر رمضان سنة ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م - أي في اواسط دولة بني الاغلب .

- ومن مشاهير رواة اللغة والادب في القيروان في ذلك العصر أبو محمد عبد الله المكفوف الاموي ، تلميذ ابي الوليد المهري المتقدم وخليفته في زعامة دراسة العربية وتفسير الدواوين وايام العرب واخبارها ، قال الزبيدي : « وعليه قرأ الناس المشروحات، واليه كانت الرحلة من جميع افريقية والمغرب ، وكان يجلس مع حمدون النعجة في مكتبه، فربما استعار بعض الصبيان كتابا فيه شعر أو غريب أومن أخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه ، فاذا ألحّ عليه اعلم بذلك أبا محمد المكفوف فيقول : اقرأه عليّ ، فاذا فعل ، قال : أعده ثانية، ثم يقول : ردّه على صاحبه ومتى شئت فتعال أمليه عليك »

- وتوفي المكفوف سنة ٣٠٨ هـ ٩٢٠ م في ابتداء دولة عبيد الله المهدي.

ومن اعلام النحاة اللغويين في ذلك العهد: الداروني، وهو أبو محمد الحسن بن محمد التميمي العنبري ، ينسب الى (دارون) منزل كان لبني تميم في فحص القيروان، قال أبو علي بن الوكيل : « كان إماماً في اللغة

والعلم بالشعر ، قرأ الناس عليه وسمعوا منه في حياة أبي محمد المكفوف النحوي ، وكان مشغوفاً بديوان ذي الرمة فكان أعلم النـاس به وبغيره من دواوين الجاهلية .

وكان معجبا بعلمه وبنسبه الى بني تميم، شديد الافتخار به، يتجاوز فيه الحد ، ولا يحضر مجلساً الا فخر فيه ببني تميم ـ قال أبو سعيد : كنت يوما جالسا معه في المسجد الذي يجلس فيه وقوم يقرأون عليه العربية ، فجاء رجل فسلّم وساله عن حاله ، فـذكر انه قدم من المشرق ، فقال الداروني : أين بلغت ؟ قال : البصرة ، فقال الداروني : كيف حال بني تميم هناك ؟ قال : « قوم حالهم مثل حال غيرهم ، منهم قوم في البادية ، ومن كان منهم في البصرة فواحد تاجر ، وآخر صانع وبيّاع ، وعمّال ، وغير ذلك » فساء ذلك الداروني وغمّه ، وقال : انا لله ! صارت بنوتميم الى هذه الحـال ! « ووجم وأمر الذين يقرأون عليه ان ينصرفوا ، ولم يسمعهم ذلك اليوم شيئًا من الغمّ مما اخبره. »

ـ ومن الاعلام الافريقيين الذين كان يشار اليهم بالبنان : ابن الوزّان، وهو أبو القاسم ابراهيم بن عثمان بن الوزان .

قال الزبيدي : « وهـو يعدّ إمام الناس في النحو ، وكبيرهم في اللغة وعظيمهم في العربية والعروض مع قلّة إدعاء ، وصدق لهجة، وخفض جناح ، ونقاء صدر ، وانتهى من علم النحو الى ان كان أبو محمد المكفوف اذا وردت عليه مسائل من النحو ساله الاجابة عنها ، وأقرّ له بالتقدم في ذلك ، وانتهى من اللغة العربية الى ما لعلّه لم يبلغه أحد قبله ، واما

في زمانه فما يشك فيه احد ، يحفظ كتاب (العيّن) للخليل ابن احمد ، وكتاب (غريب المصنف) لأبي عبيد ، وكتاب ابن السكيت وغيرهاء وحفظ قبل ذلك كتاب سيبويه ثم كتاب الفراء [١] »

وتوفي ابن الوزان سنة ـ ٣٤٦ هـ ـ ٩٥٧ م ـ.

قال معاصره أبو علي بن الوكيل : « ولو ان قائلا قال انه أعلم من المبرد وثعلب لصدّقه من وقف على سعة علمه ونفاده »

أقول : ما أعظمها من شهادة ، وما أجلها من مفخرة للقيروان !

وعلى سبيل المثال نورد هنا شيئًا من دروسه للدلالة على قوة علمه ونقده ولنبيّن ايضاً طريقة إلقاء التلاميذ الاسئلة على شيوخهم وجواب هؤلاء عنها .

قال تلميذه ابن الوكيل : سالته يوماً عما أُخذ على الشافعي في قول الله عز وجل (ذلك أدنى ألّا تعُولوا) قال الشافعي معناها : ألا يكثر عيالكم ـ فقال ابن الوزّان : أخطأ الشافعي ، يقال : عال يعيل اذا افتقر ، وأعال اذا كثر عياله ، وعال يعول عولًا اذا جار ، ومنه قول الله عز ذكره (أن لا تعولوا) ، وعال يعـول عولاً اذا زاد ، ومنه عـالت الفريضة ، وعالني الشيء يعولني إذا أثقلني ومنه قول الخنساء :

(ويكفي العشيرة ما عالها)

ويقال : « عال يعيل عولًا اذا تبختر . . » الخ

---

(١) طبقات النحاة للزبيدي

ولنختم هذا الباب ببعض ما جاء في فصل من مقدمة ابن خلدون بيّن فيه ان تعليم العلوم من جملة الصنائع ، وأشار الى انحطاط أساليب تلقينه في المغرب بعد تدهور الحضارة الاسلامية من شمال افريقية في القرن السادس للهجرة ، قال : (١)

« ... ان سند تعليم العلم لهذا العهد [آخر القرن الثامن] قد كاد ينقطع عن اهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها ، وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس ، واستبحر عمرانها ، وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الّا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منهما ... »

وفي ذلك كفاية لما أردنا بيانه .

دراسة الادب

وأما العناية بالادب ووسائل تلقينه ، فيكفينا أن نشير الى بعض من اشتهر بتدريسه في العصر المتكلم عنه .

قال ابن رشيق في حق شيخه عبدالعزيز بن سهل النحوي : « كان مشهورا بالنحو واللغة جدا ، مفتقراً اليه فيهما ، بصيراً بغيرهما من العلوم ، أدركته وقد جاوز السبعين والتلامذة يكلمونه فيحمرّ خجلاً

(١) المقدمة ص ٤٠٧ ، ط . بولاق سنة ١٣٢٠ هـ

ثم قال : « ولا غنىّ لاحد من الشعراء الحـــذاق من العرض عليه ، والجــلوس بين يديه ، أخذاً للعلم عنه ، واقتباساً للفائدة منه . »

وتوفي بالقيروان سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م)

ومنهم محمد بن جعفر القزّاز التميمي ، شيخ اللغـة ومسند الأدب في افريقية ، رحل الى المشرق في صدر الدولة الفــاطمية وروى عن أساطين اللغة والأدب في عصره ، وقد أورد لنا تلميذه ابن رشيق سنده في رواية اللغـة وأخبار الشعراء حيث يقــول في غير ما موضـع من كتاب (العمدة) :

« أخبرنا شيخنا ابو عبد الله محـمد بن جعفر النحوي ، عن ابي علي الآمــدي ، عن علي بن سليمان الأخفش (ويقـول تارة اخرى) أنشدنا ابو عبد الله محمد بن جعفر النحوي ، عن ابي علي الحسين بن ابراهـيم الآمــدي ، عن ابن دريـد ، عن ابي حـــاتم السجستاني ، عن ابي زيـد الانصاري .... »

ومن هنا يتضح كيف انتقلت رواية الاخبار الادبية والاشعار من جهابذة المشرق الى ابناء افريقية .

وكانت طريقة القــزّاز في مجلس دروسه ان يلقي على الطلبة مشكلات المسائل اللغوية ، ويطرح عليهم أبيــات الشعر العويصة ، ويطلب منهم فكّ معانيها وتفسير ألفــاظها ، حسبما ذكر ذلك ابن رشيق [1] .

---

(١) العمدة ١ - ٢١١ ومعجم الادباء ٦ - ٤٦٩ وغير ذلك .

ومات القزاز بالقيروان سنة ٤١٢ هـ (١٠٢٠ م) بعد أن وضع أكبر معجم لغوي عرُف وقتئذ في اللغة وهو كتاب (الجامع في اللغة)

وممن يجب ذكره مع من تقدم من كبار الاساتذة في الأدب : أبو اسحاق ابراهيم الحصري مؤلف « زهر الآداب » وغيره ، فقد أورد ابن رشيق أيضا في ترجمته العبارة الآتية : « كان شبّان القيروان يجتمعون عنده ، ويأخذون عنه ، وهو رأس عندهم ، وشرف لديهم »

ومات الحصري بالمنصورية - صبرة - حذو القيروان - سنة ٤١٣ هـ (١٠٢١ م) على التحقيق وامثال هؤلاء الشيوخ من قادة الفكر الادبي وعُمَده ورواته ونقّاده لا يعدّون كثرةً ، وقد استقصينا اخبارهم وتراجمهم تفصيلا في كتابنا الكبير .

* * *

ولنختم هذه الطاقة من الازهار الافريقية التي قدمناها لتنشق من رياشذاها العَطِر نفحةً من نسمات قطرنا المحبوب في ذلك العهد التالد بنادرة عجيبة ترتبط بالموضوع وتؤيد عناية الاجداد بالتعليم الصناعي ، بعد ان تكلمنا على التعليم الديني والادبي .

في أواسط القرن الثالث للهجرة كان شابٌ من شباب القيروان يسمى (اسماعيل بن يوسف) يعيش في أسرة فقيرة ، ونشأ في طلب الأدب والعربية ، وضاقت به الحال الى أن اضطر الى مفارقة وطنه والانتقال الى المشرق ، فقصد أولاً مصر وقرأ بالفسطاط ما تيسّر ، ثم دخل الشام

وتردّد على مدائنه وأقام بدمشق برهة ثم تحوّل الى بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية في ذلك الأوان ، وانخرط في سلك الطلبة الأغراب الوافدين من آفاق العالم ، وحضر دروس أساطين العربية والأدب وحَلَّق على شيوخ الفلك والنجوم ، لكن فقره وقلة ما في يده اضطره للالتجاء الى معمل كيميائي مشهور بتحضير مواد التطرية لتجميل النساء البغداديات ، وهو ما كانوا يسمونه بالطِلَاء ، فدخل الشاب القيرواني المعمل ليشتغل بكَدّ يديه في تحضير العقاقير مقابل أجرة زهيدة ، فدأب اسماعيل على العمل فيه مدة من الزمان .

وها هو ذا أبو بكر الزبيدي الاندلسي يقصّ علينا ما حصل لشابّنا الغريب ، قال الزبيدي : أخبرَني بعض القيروانيين ، قال :

« كان أهل العلم بصناعة الطِلَاء بالعراق يضنّون بسرّ صناعتهم ، وكان اسماعيل قد لا زمهم وخَدَمَهم ، فكانوا يخرجون اليه والى أصحابه من التلاميذ والصنّاع العقاقير للدقّ مختلطة حتى لا يميزوا ما يُخرج اليهم،فتحيّل اسماعيل للمبيت في خزانة العقاقير بدعوى الغربة والانفراد ، وقد أعد قرسطونا صغيراً (أي ميزانا صغيرا) فبات ليلته تلك يزن كل عقار هنالك ، فلما كان من الغد أخرجت الى التلاميذ العقاقير للدقّ والطِلَاء كالمعتاد فاحضروها ، ثم ان اسماعيل رجع من من الليلة القابلة للمبيت في الخزانة ، فعاود وزن عقاقير الخزانة فعرف ما نقص كل عقار منها ، وحينئذ علم أنه المأخوذ للاستعمال في ذلك النهار ، فكتب ذلك كله ثم استعمله خفية فقامت له الصناعة »

وبعد مدة من الزمن عـــاد اسماعيل بن يوسف الى مسقط رأسه وانتصب لعمل العقاقير - أي أدوات التطرية (التَّوَاليت)، قال الزبيدي: « وهو أول من أدخل الطِلاَء العراقي القيروان» واشتهر بصنعته وصار لا يعرف الا باسم : اسماعيل الطَلاَّء ».

وزاد الزبيدي في التعريف به فقال : « انه كان من ذوي العـــلم بالعربية وكان غاية في النجامة ». وصاحب اسماعيل بعد ذلك الامير ابراهيم الثاني من بـني الأغلب وحصلت له حظوة كبيرة عنده في خبر يطول ذكره .

والذي يهمّنا من هذه الحكاية وغيرها من النوادر ، هو اهتمام ذوي النباهة من ابنـــاء افريقية وبذلهم النفس والنفيس في تحصيل العلم واكتساب الآداب ، والعمل على نشرها والصعود بها الى أوج المعارف البشرية بكلّما أوتوا من قوة وعزيمة وذلك لبناء صرح خالد من المجد التالد ، فَخَرُوا - وفخرنا نحن به - مدى احقاب واحقاب ، واستفدنا منه - نحن ابناءهم - كما استفاد من تراثه العالم باسره ، فجزاهم الله تعـالى عنا وعن سائر بني الخليقة أحسن ما تجزى به امة عملت دهراً طويـلا على رقي الفكر الانساني ، وتقدم الثقافة البشرية .

معاهد التعليم الكبرى

معهدان جليلان من معالم افريقية اشتهرا من أول تأسيسها بالتعليم الاسلاميّ العالي ، وما زالا دائبين باتصال في أداء رسالتها العلمية ومهمتها الثقافية ، ونعني بها :

١ - جامع عقبة

جامع عقبة وهو مسجد القيروان ، ومعبدها الكبير الذي وضع أساسه الفاتحون من العرب - عقبة بن نافع الفهري وأصحابه - في منتصف القرن الاول للهجرة ، على تقوى من الله وصدق نيّة

وقد اقرأ فيه رجال من التابعين للصحابة ، منهم « عِكْرِمَة » المحدّث مَوْلى عبد الله بن العبّاس ، فانه دخل افريقية في زمان بني أمية ، قبل آخر القرن الاول .

قال أبو العرب [1] : « وكان مجلس عِكْرِمَة في مؤخر مسجد الجامع في غربي المنارة في الموضع الذي يسمى « بالرُكَيْبيّة » (؟) - وهنالك روى عن عِكْرِمَة الحديثَ والتفسيرَ - تفسير مولاه ابن عبّاس - خلق كثيرٌ من ابناء التابعين الافريقيين كما اثبته اصحاب الطبقات ، ومما يجدر بالملاحظة ان عِكْرِمَة كان في طليعة مَن أدخلوا النزعة الخارجية الى افريقية إذ كان يرى راي الخوارج ، وعنه انتشرت نحلتهم وآراؤهم في القيروان وفي بقية انحاء المغرب . ومات عِكْرِمَة سنة ١٠٥ هـ كما هو معروف .

---

(١) طبقات ابي العرب ص ١٩

واستمرت العلوم الدينية - من تفسير وحديث - تُروَى في حِلَق التعليم بالمسجد الجامع ، ولم تكن مذاهب السُنَّة تمحَّصت بعدُ . ولذا كان أصحاب الآراء المخالفة لها يجتمعون فيه ، ويتناظرون في مذاهبهم ، ويلقونَ الدروس فيها ، ودامت هذه الحال الى أواسط الدولة الاغلبية ، يعني الى ان تولىسحنون خطة القضاء بالقيروان - سنة ٢٣٤هـ - . وحينئذ مَنعَ التدريس به لمن لم يكن على مذاهب السُنَّة .

اتفقت كلمةُ المؤرخين وأصحاب الطبقات ان سحنونا كان: « أول من فَرّقَ حِلَقَ أهلِ البدع من المسجد الجامع ، وشرَّد أهل الاهواء منه وكانوا فيه حِلَقاً من الخوارج : صُفرية وإباضِيَّة ، ومعتزلة ، وكانوا فيه حِلَقاً يتناظرون ويظهرون زَيْغَهم ، فعزلهم سحنون ان يكونوا أئمة الناس ومعلمين لصبيانهم ، وأمَرَهم ألا يجتمعوا فيه ، وادَّب جماعة منهم بعد أن خالفوا أمره [١] . »

ومن ذلك الحين تمحَّضَ جامع عقبة لتعليم أصول الشريعة لجماعة السنة دون سواهم ، واستمرت دراسة العلوم العربية والأدبية تدرس به ، وكانت الحِلَق مكتظة بالطلبة من سائر أنحاء افريقية والمغرب والاندلس وحتى من السودان الغربي، على غط ما نعرفه في الجامع الازهر بالقاهرة ، وجامع الزيتونة بتونس ، والقَرويّين بفاس .

ذكر القاضي عياض : « ان يحيى بن عمر الكِنَانيّ كان يجلس في الجامع

---

(١) طبقات أبي العرب ص ١٠٢ - والمدارك ١ - ٢٠١ - ومعالم الايمان ٢ - ٥٥

للاقراء ، ويُنْصَبُ له كرسي يجلس عليه ليسمع من بَعُدَ من الناس، لكثرة من يحضر مجلسه [١] . »

بَيْد أنه لما حكم بنو عبيد الفاطميون البلاد واظهروا نحلتهم الشيعية علانية أمروا بتعطيل تعليم أصول الشريعة على مذاهب السنّة، ومنعوا شيوخَ القيروان من القاء دروسهم في جامع عقبة ، اللّهمّ الا دروس اللغة العربية وما ليس له مساس بالعقائد، فركن شيوخ المالكية والحنفية الى إقراء تلاميذهم تلك العلوم في بيوتهم ودكاكين حرَفهم .

قال الدباغ : « كان ربيع القطّان - المتوفى سنة ٣٣٣ هـ - ملتزما الاقراء في الحانوت الذي يبيع فيه القطن، وفيه كان يأتيه من يدرس عليه من الطلبة او من يسأله ويستفتيه [٢] . »

لكن بمجرد نزوح الملوك الفاطميين الى مصر ، بعد امتلاكهم اياها، عادت الدراسة السنّية الى ما كانت عليه قبلُ

والواقع ان جامع عقبة لم يكن بيتاً للصلاة ومعهداً للتعليم فحسب ، بل ربما من أخص وظائفه ان كان المركز الكبير للحياة الاجتماعية في البلاد ، ففيه كان يَعقد الأمراء من اغالبة وصنهاجيين الاجتماعات العمومية لاخذ رأي الامة في الشؤون المهمة التي يعتزمون عليها ، مثل تجهيز الغزوات البعيدة بقصد لاشراك الشعب فيها ، او لمناسبة اختيار

---

(١) المدارك ٢ - ١٠

(٢) معالم الايمان ٣ - ٢٩

قُضَاةِ الجماعة الى غير ذلك من الاغراض ، ومن ناحية اخرى كان الشعب نفسه يعقد فيه اجتماعاته حين يطرق البلاد حادث جَلَلٌ يمسّ الصالح العام ، مثلما حصل عند خروج الثائر البربري الطائر الصيت : مخلد بن كيداد المنعوت بصاحب الحمار على سلطان بني عبيد ، فقد انضمّ اليه أهل السنّة من سكّان القيروان بعد ان تجمهروا أُلوفاً بالمسجد الجامع وتفاوضوا طويلا حتى استقرّ قرارهم على تأييد الثائر ، والمشاركة في محاربة الفاطميين - سنة ٣٣٣ هـ - فمن الجامع الكبير خـرج المقاتلون وزحفوا الى اسوار مدينة المهدية عاصمة بني عبيد

فيتبين مما تقدم ان المسجد الجامع كان بالقيروان في عصوره الاولى بمثابة (الأَكُورا) (l'Agora) ، تلك البطائح التي كانت مجتمع الشعب اليونانيّ ومحل مفاوضاته

ولَعَلَّ من الطريف ان نشير الى طائفة من البطَّالين كانوا يتخذون من الجامع مقرًّا لجلساتهم بقصد الاخذ من اعراض الناس والنصب على المُغَفَّلين ، فقد افادنا الخشني في طبقاته [١] انه « كانت بالقيروان طبقة تسمى « الرُّكْنية » كانوا لا شغل لهم ، فكان جلوسهم ومجتمعهم في رُكن الجامع فلزمهم هذا الاسم ، وكان الناس يـداورنهم ويتّقون السنتهم وكان فيهم رجل منهم يعرف بأبي القاسم المَسَاجِديّ كان خاصاً بأبي العباس بن عبدون (قاضي القيروان) ، وكان مُقِلاًّ

(١) طبقات الخشني ١٨٨

فكان ابن عبدون يُرفقه ويَصله ويجدي عليه ويُحسن اليه ، فحسده سائر اصحابه من « الرُّكنيّة » واجتمع منهم أربعة في الادارة عليه لينقطع ما بينه وبين ابن عبدون قطيعةً لا يكون بعدها وصل ابداً ، فأتى أحد الاربعة الى القاضي ابن عبدون فجلس عنده وحادثه ، ثم أخطر من ذكر الصحبة والصداقة وقلّة الوفاء ثم قال له : ما الذي حدث بينك وبين المساجدي ؟ فقال ابن عبدون : ـ ما أعلم انه كان حدث فيا بيني وبينه شيء ، فما الخبر ؟ ـ فجعل الرجل يحيد له عن ان يخبره بشيء ثم خرج عنه ؛ فلما كان بعد ذلك بيوم أتى الثاني فجلس الى ابن عبدون وأدار الحديث ثم خرج الى ذكر المساجدي ، فقال : ـ قد كان المساجدي لك صديقاً ، وكنت اليه محسنا ، ثم كان من أمركما ما كان ، فتحرّك ابن عبدون وجعل يستقصيه عن حقيقة هذا الخبر ، وذكر انه لا علم عنده بشيء من ذلك ، فانزوى الرجل عنه وانقبض وحلف له الاّ يخبره إجلالاً له واعظاماً، فلما كان اليوم الثالث اتاه الثالث منهم والرابع فجلسا وتحدّثا، ثم قال له احدهما : ـ ما ينبغي لأحدٍ ان يثق باحد، قد كان المساجدي لك وكنت له على افضل حال، ثم قد خرج فيك الى ما خرج ، فقال له ابن عبدون : ـ قد تكرّر عليَّ هذا الخبر من غير انسان وعلى غير ما لِسان ، وما أجد احداً يخبرني بالحقيقة في ذلك، فاخبرني انت بذلك فقد ضجرتُ من اكتتام الحقيقة عنى في ذلك؛ فقال الرجل : ـ لا والله ! لا افعل ولا استهين بك هذه الاستهانة ، فاستجاب الرابع فقال : ـ لانك والله ـ لا تحبّ القاضي ولا تنصحه ،

ان كنتَ انت لا تخبره ، فانا اخبره ، فقال له ابن عبدون : هات ! ـ فقال الرجل : ـ يقول المساجدي انك خنثى ، وان لك فُرعة كفرعة النسآء ، فتلّون وجه ابن عبدون وصار يحلف ما له فُرعة. ثم بلغ الخبر الى المساجدي فاتى متنصلاً ، فوجد في قلب ابن عبدون من التصديق بما قيل له عنه مَا لاَ يعمل فيه الاعتذار ولا يمحــوه التنصّل ، فابعده واقصاه عن نفسه »

وعقّب الخشني الراوي لهذه الحكاية بكلمة قال فيها : « ولعمري ان هذه الإدارة لَلطيفة من الفكر وعجيبة من الحِيَل ، ولو قرع بمثلها أدهى الناس ما خلص منها ، نستعيذ بالله من حِيَل الماكرين ، ومن إفك الكاذبين »

سقنا هذه الفكاهة على طولها وغرابتها ليستبين القاريء من خلالها ان المساجد الكبيرة في الاسلام ـ لا سيا في عصره الاول ـ كانت للصلاة في أوقاتها كما كانت دوراً لاجتماع الشعب ، ومحــلا للدراسة ، وملتقى للعلماء والقصّاص ، وملجأً للغرباء ، وكذا لذوي البطالة والفراغ.

وقد ذكّرتني هذه النادرة ما حصل لاحد صلحاء القيروان الفضلاء وهو اسماعيل بن رباح الجزري ، من علماء القرن الثاني ـ فقد حكى عنه محمد بن لالّه ، قال : ـ كنتُ أخيط ـ وأنا غلام حديث السنّ ـ مع شباب عند معلّمنا في المسجد المعروف « بمسجد ابي نصر » إذ أقبل الينا اسماعيل بن رباح ، فقال لمعلمنا :

ـ يا شيخ ! بكم اكتريتَ هذا الحانوت؟

فقال معلمنا : ـ ليس هذا حانوت انما هو مسجد ، فقال له اسماعيل :

ـ فالمساجد لم تُبْنَ للصنّاعين ولا للحاكة ، انما بنيت للمصلين . »

ثم ان اسماعيل أقبل علينا فقال : ـ يا شباب ، لا تخيطوا في المسجد ، ومازال بنا حتى تنحينا منه . »

* * *

اما من الناحية المعمارية لجامع عقبة فانا نكتفي بايراد بعض أرآء الاستاذ (احمد فكري) ـ احد شيوخ الاثار الاسلامية في مصر ـ فيما اختصّ به جامع القيروان من المـميزات الفنية والزخارف ، وهو من أحسن ما كتب في هذا الشان ، قال : (١)

... « ولا يقتصر فضل القيروان على التخطيط ، فان هذا المسجد العظيم يحوي عناصر معمارية ظهرت فيه لاول مرّة في تاريخ العمارة ، أو على الاقلّ يبقى فيها أقدم الامثلة التي لاقت من بعده انتشاراً كبيراً في بلاد الشرق والغرب ، واصبحت من العناصر المميّزة للعـمارة الاسلامية ، واذكر من هذه العناصر أقواس مسجد القيروان . »

« ولعلّه من المفيد ان نعيد البحث في القباب ، ولا شكّ ان اول مثل اسلامي للنظام المبتكر للقباب ، المرتكزة على اقواس يظهر ايضاً

---

(١) أحمد فكري : « آثار تونس الاسلامية ومصادر الفن الاسلامي ، ط. تونس ١٩٤٩

في مسجدالقيروان ، وسواء أكان الفضل في وضع هذ النظام الجديد يعود الى الفرس او الى الرومان، وسواء اكان الاصل في اشتقاق هذه القِباب يرجع الى مصر القبطية أم الى افريقية البيزنطية . . . وأياً كان الاصل في هذه القباب فانه لا يضعف شأنَ بنَّاء القيروان ، لان الفكرة التي تجمّعت لهذا البنا فاخرج منها قبّته كانت فكرة اصيلة لم تُنقَل عن مرجع سوري او روماني او فارسي او مصري ، إذ لم يسبق لبنا من البُنّاة ان أدخل على قبّته تلك العناصر التي تتكوّن منها قبّة جامع القيروان أو أقامها على مثل الاسلوب الذي تقوم هذه عليه .

• ... وقد عثرتُ في القيروان أخيراً على آثار لموضع الكتابة التي كانت تمتدّ على واجهة بيت الصلاة المطلّة على البَهْو ـ قبلَ زيادة بلاطاته واقامة قبّة البهو ـ ولاشكّ ان هذه الكتابة كانت تحمل اسم منشئها وتاريخ تجديد المسجد ، وقد ظلّت هذه العادة قائمةً في الاثار التونسية، وانبعثت بعد ذلك في الاثار الاسلامية في جميع البلاد ، واصبحت خير دلالة على اهتمام المسلمين بفنون العمارة ، حتى لَيَفخر الرجل العظيم او الامير منهم بما يشيد ، ويحرص على تسجيله .

• وأخيراً يبقى عليَّ ان أقول كلمة في منبر القيروان، وهواقدم المنابر المعروفة في الاسلام ، وأبعدها شهرة واكثرها ابداعاً ... يتكوّن منبر القيروان من مائتين واثنتين وخمسين لوحة خشبية تنحصر كل منها في إطار زخرفي .. وقد نُقشت كل من هذه اللوحات نحتة فنية

بزخارف منحوتة ، مُخرَّمة ، مفرّغة بـدقّة فائقة ورقة نادرة ورسم رشيق ، وتجمّعت في هذه اللوحات انواع مختلفة من الزخارف : نباتية وهندسية متفرّغة تارة ومتلاصقة تـارة أخرى ، متعانقة احيانا او متشابكة ، ممتدة في البعض ملتفّة في البعض الآخر . وفي هذه اللوحات تتبيّن طبيعة الفن الاسلامي وتتجلّى فكرة رجاله فيسمو بهم الخيال الى أبعد الافاق ، تمتدّ ابتكاراتهم حتى لا تقف عند حدّ ، وتتنـوع أمامهم الصوَر فلا تنطبع على شكل واحد ، وتتجزأ في ايـديهم الوحـدة ، او على العكس تتزايـد وتتضاعف ، ويقف النظر أمام انشاءاتهم حائرا لا يدري أين بدأت ولا أين تنتهي ، يَلْقَى جديدا كلما جـال بصره عليها فلا يمل ولا يضجر ! »

ولا يفوتنا ان نـلمح هنـا الى انه يوجـد في احـدى حُجُرات هـذا الجامع مكتبة أنشئت في عهد الاغالبة كانت عامرة بالمؤلفات القيّمة دامت العناية بها الى القرن الخامس ، وقد أوقف عليهـا الامراء والكبراء وسائر الناس في تلك المدة كتبا جليلة عديدة ما بين مصاحف مزخرفة ، وتصانيف من امهات الفقه والحديث واللغة والادب .

ومن حسن الحظ ان وصل الينا قسط كبيرٌ من بقايا كتبها المرسومة ، و كلها على الرقّ ، وهي الآن مفخرة دائمة من مفاخر افريقية التونسية بلا نزاع [1] .

---

(١) راجع عن بقايا مكتبة جامع عقبة البحث الممتـع الذي نشره الاستاذ محمد البهلي النيال في مجلة الندوة ، تونس فبراير ١٩٥٣ . وكذا البحث التاريخي عنها للاستاذ ابراهيم شبوح ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة نوفمبر ١٩٥٦

ومهما يكن من أمر فان هذا المعهد المبارك ما انفك يدرس فيه العلم الاسلاميّ ، وقد أخرج رجالاً يباهي بهم القطر التونسي ، بل العالم العربي بأسره ، طوال اربعة قرون ، ابتداء من القرن الثاني ، يعني في مدة الأمراء المهالبة ، والدولة الأغلبية ، والعبيدية ، والصنهاجية ، الى ان كانت زحفة بني هلال على أفريقية في منتصف القرن الخامس ، فحينئذ توقفت حركة التمدين الافريقيّ بخراب البلاد وتعطيل المعالم فاضاعت القيروان حضارتها اللامعة ونضارتها البديعة ، ولم يكن لها ان تدركها بعدُ .

وانتقلت عقب ذلك بعض وسائل التعليم والرواية والسند الى مُدن الساحل التونسي (مثل المهدية ، وسوسة ، وصفاقس) تَمشّتْ فيها على مهل وبُطء الى اواسط القرن السادس ، حيث صارت مدينة تونس عاصمة البلاد وكعبتها المقصودة ، فانتقلت وتتشد الحركة العلمية اليها ، ولله في خلقه شؤون .

٢ - جامع الزيتونة

جامع الزيتونة - والمعهد الثاني للتعليم في القطر الافريقي هو المسجد الجامع بمدينة تونس ، ويعرف من قديم (بالزيتونة) ، اختطه لاول الفتح العربي القائد الأموي الطائر الصيت (حسّان بن النعمان الغسّاني) حوالي سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) وكان تخطيطه هذا في غاية من البساطة على ما جرت به العادة والضرورة في منشآت الغُزاة السابقين إذ كانت هِمَمهم منصرفة بكليتها الى عمليات الفتح وتمهيد البلاد ، لا الى

البناءات وزخرفتها ، ثم أعاد بناءه باحسن من ذي قبل القائد الامـوي الآخر (عبيد الله بن الحبحاب) في سنة ١١٦هـ (٧٣٤م) على التحقيق[١] وفي آخر الامر جدّده من اصله وزخرفـه الامير الاغلبـي (ابو ابراهيم احمد بن محمد) واتم بنيانه أخوه زيادة الله الثاني في سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) حسبما تشير اليه الكتابة الكوفية المرسومـة بالحرف الغليـظ على دائرة قبة المحراب ، ونصّها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، مما أمر بعمله الامام المستعين بالله أمـير المؤمنين العباسي ، طلب ثواب الله وابتغـــاء مرضاته على يدي نصير مولاه سنة خمسين ومئتين (يا ايها الذين آمنـوا كونوا قـوامين بالقسط شهداء لله) ، صنعه فتح البنا . »

وهنا نرى لزاماً علينا ان نرفـع التباساً سرى في اذهان التونسيـين وغيرهم من ان إعادة بنـــاء جامع الزيتونة على الهيئة التي نعرفها منه اليوم تقريباً هي من اعمال الخليفة (المستعـين بالله) العبـاسي ، وذلك لما يقرأ من الكتابة الكوفية المتقدمة.

والواقع ان هذا التجـديد الكليّ هو من عمل الامير الاغلبي ابي

---

(١) لا أدري لماذا أرخ أصحاب الاخبار التونسيين قـدوم (عبيد الله بن الحبحاب) والياً على افريقية والمغرب بسنة ١١٤ ، وهو وهم واضـح ، لان ابن الحبحـاب في ذلك التـاريخ مازال متولياً مصر من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك . ولم يفارق ارض الكنانة الى تونس الا في خـلال سنة ١١٦ هـ بالضبط (راجع فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم)

ابراهيم احمد ، سادس أمراء الاسرة المتولي سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) وهو ذلك البنا الكبير الذي اشتهر باجتهاده في عمارة البلاد وبولوعه لإنشاء المعالم العمرانية الجليلة كمصانع المياه والحصون وأسوار المدائن وخصوصاً الجوامع ، منها جوامع سوسة وصفاقس ، وزيادته المعتبرة في مسجد عقبة بالقيروان وغير ذلك ، وكان قبل وفاته بقليل أقبل على جامع الزيتونة ووجّه اليه عناية خاصّة وشاء ان يجعله مثيل جامع القيروان ونظيره في الطراز والزخرف ، لكن المنية أدركته ـ سنة ٢٦١ هـ ـ قبل الانتهاء من البناء والزخرف ، فلما تولى أخوه زيادة الله الثاني الامارة من بعده أتمّ ما بقي من البناء في سنة ٢٥٠ ، وتحاشى من ان ينسبه لنفسه أو أن يرسم اسمه عليه، إجلالاً لعمل اخيه المتوفى ، فنسبه الى (المستعين) العباسي المتولي حينئذ ببغداد ووسمه باسمه ، على حين ان هذا الخليفة لم يكن له ادنى مشاركة في عمله ، وفي رائي ان الفتى (نصيْر) الواضع اسمه في الكتابة التذكارية هو من اتباع الدولة الاغلبية ومواليها ، ولا غرابة البتة من ان يدمج نفسه في جملة فتيان الخلافة العباسية التي كان لها السيادة العلياء على الاسرة الاغلبية كما هو معروف ، ولا أدلّ على ذلك من كون طراز الزيتونة الفنّي في وضعه وهندامه هو طراز بقية الجوامع الكبيرة التي اقامها الامير ابو ابراهيم احمد في البلاد ، ومما يؤيد نظريتنا ايضاً ان كل المصادر التاريخية والجغرافية القديمة ـ كالبكري وغيره ـ انما اشارت الى تجديد

الزيتونة على يد الامير احمد ولم يأت في مصدر واحد منها نسبته الى المستعين بالله ، فهذا الالتباس يجدر ان يرفع عنه الستار لتُعلم الحقيقة الواقعة . وكذلك لا أخال المهندس (فتح) الوارد اسمه في آخر الكتابة الّامن كبار البُنّاة الافريقيين في دولة ابي ابراهيم احمد .

أعربنا غير ما مرة عن اسفنا الشديد لعدم وجود من اعتنى من ابناء البلاد باخبار جامع الزيتونة في تطوراته المعمارية ، وفيما قام به في وظيفته التعليمية ، فانا لا نعلم من تصدّى للكلام عنه بصفة خاصّة سواء بعض الاثريين الاجانب،لكن املنا وطيد ان يوفق في المستقبل القريب بعض شبابنا المثقف للقيام بهذه المهمة التي يترقّبها كل تونسي بشوق شديد وفراغ صبر

وها نحن نشير هنا في جملة مختصرة الى المهم من مميزات جامع الزيتونة العمرانيـة وبعض زخارفه الفنيّة قبل ان نذكر ناحية التعليم به :

وربما يعجب القاري الكريم من ان جامع الزيتونة لم يكن له في أصل وضعه مأذنة ـ صومعة ـ وقد ينتهي استغرابه لما يعلم ان المساجد والجوامع في البلاد المغربيـة في الثلاثة قرون الاولى للهجرة لم يكن لها مآذن،عدا جامع عقبة بالقيروان ، اما جوامع تونس وسوسة وصفاقس ـ وهي المدن الكبيرة في البلاد ـ فانها كانت خاليـة منها ، وذلك اقتداء بالسُنَّة المحمدية إذ ان المسجد النبوي في المدينة المنوّرة لم يكن له مأذنـة

حين تأسيسه ، فالاذان للصلاة المفروضة كان يقع من أعلا سطح المسجد أو الجامع وفي مكان معين منه حسبما جرت به العادة من ايام صاحب الشريعة المطهرة ، وقد شاع اتخاذ المآذن لاول مرة في الشام في عصر الخلفاء من بني أمية وخصوصاً في مدة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذي ادخل على المساجد الاسلامية في زمن خلافته تغييراً كبيراً في نظامها الداخلي وفي طرازها المعماري .

اما مأذنة الزيتونة الحالية فانها شيدت في سنة ١٣١٢ ﻫ (١٨٩٤ م) على طراز مأذنة القصبة ، وقدعوّضت سالفتها الحفصية التي كانت في غاية البساطة .

والجدير بالملاحظة ان الاروقة الاربعة - وتسمى المُجنّبات - المحيطة الآن بصحن الجامع لم تكن - هي ايضاً - من الوضع الاغلبي الاصلي ، بل هي من المحدثات التي زيدت فيه في مدة الدولة الصنهاجية كما ستراه بعد ، ومما يثبت ذلك ان الكتابه التذكارية البارزة حروفها والتي رسمها الامير الاغلبي على واجهة بيت الصلاة كانت اولاً تمتدّ على بقية جدران الصحن الاربعة، نظير ما يرى الى الآن في صحن جامع مدينة سوسة ، ومثلما كان يشاهد قديماً بجدران جامع القيروان .

وغير خفي ان الامراء من بني خرسان - ولاسيا عبد العزيز منهم - وجّهوا عناية كاملة لادخال تحسينات معتبرة على الزيتونة ، إذ كانت المفخرة الجليلة لعاصمة إمارتهم ، ومن ضمن ذلك انهم زادوا في عدد

أبوابها فصيّروا عدّتها اثني عشرة بينما كانت في البناء الاغلبي ستة أبواب فقط ، وعلى بعض هـذه الزيادات الواح تذكارية تشير الى مؤسسها من بني خراسان .

وأمرٌ مهم آخر يحسُن الالتفات اليه وهو انمنبر الزيتونة هـو من الصنع الاغلبي يقيناً، وان كان ظاهره يقتضي نسبته الى عصر متأخر ، غير ان المتأمل بتدقيق في نقش اخشابه وفي اشكال زخرفه يدرك حالاً انه في اصله شبيه اخيه منبر جامع القيروان ، وان كان الاول أقـل زركشة واتقاناً من الثاني .

وبالزيتونة الواح كبيرة من المرمر او من الحجارة، مختلفة الاحجام ومزخرفة بانواع من الزهور البارزة يحيط بها اطار يحمل بعضها كتابة كوفية تدلّ ايضاً على انها اغلبية الوضع .

ومن المفيد ان نأتي هنا ببعض ما قاله الاستاذ (احمد فكري) في في محاضرته عن مميزات الزيتونة المعمارية والفنية اتماماً لما تقدم من التعريف :

« .. ونلقى في مسجد الزيتونة مثالاً رائعـاً للعناية بالفن المعماري الاسلامي . فهذا المسجد كما قال احد التونسيين الافاضل « يحمل كتابه بيمينه » . وليس في تاريخ الاثار كلها في جميع البلاد ، وفي جميع العصور مثلاً يضاهيه من هذه النـــاحية . فقد أنشيء ، وجدّد ، وأصلـــح ،

وأضيف اليه ، وزيد فيه ، وزخرف في عصور مختلفة لو تركتْ لعلماء الاثر ولكتب التاريخ لتضاربت الاقوال فيها وتشعّبت. غير ان كل ذلك مسجل على الحجارة في نقوش المسجد التي تتبيّن منها : سنة خمسين ومائتين ، واحدى وثمانين وثلاثمائة ، وخمس وثمانين وثلاثمائة ، وسبع وخمسين واربعمائة ، واربع وسبعين واربعمائة ، وثمان واربعين وستمائة ، وست وسبعين وستمائة ، وست عشرة وسبعمائة واحدى وعشرين وسبعمائة ، واحدى واربعين وثمانمائة ، واحدى وتسعين وتسعمائة، وسبع واربعين والف، وسبع وسبعين ومائة والف، وسبع وتسعين ومائة والف ، واثنتي عشرة وثلاثمائة والف ، وأخيراً سنة تسع وخمسين وثلاثمائة والف (١٩٣٨ م) بل واكثر من هذا ان التاريخ قد سجل في موضع من هذا المسجد الاعظم مرتين إذ كانت تجري تحت قبّة البهو كتابة نقرأ فيها : « تمّ بعونه وتأييده في سنة احدى ... وثلاثمائة » وسقطت حروف الرقم الذي بين الاحدى والثلاثمائة ، وبينهما مرحلة تسعين عاماً. وانما توقّع البناؤون هذا المصير فسجّلوا أسماءهم على سارية تحت هذه القبة ، وأعادوا كتابة التاريخ ايضاحاً وذكروا : « كان ابتداء العمل في الجنّبات ، والداموس ، والقبّة في شهر ربيع الاول من سنة ثمانين وثلاثمائة وتم جمع ذلك في شهر جمادى الاولى من سنة خمس وثمانين وثلاثمائة » وليس في هذا الاثر الفريد في العالم تاريخ الديار التونسية في مختلف العصور فحسب بل فيه ايضا تاريخ الخط العربي

ونماذج لتطوره مجموعة في أثر واحد منذ منتصف القرن الثالث الهجري أي مدة الف ومائة سنة .

• ... لقد اتيحت لي اخيراً فرصة دراسة تيجان السواري عن كثب ، فتبيّنت سرعة تطورها إذ ان جميع السواري التي تعلو قبّتيْ مسجد الزيتونة اسلامية نحتاً وشكلا ، ويظهر فيها مدى الابتكار الذي تولدت عنه جميع هذه التيجان تعبّر عن زَهرة الاقنتا (Acanthe) (١) ولكن النحّات التونسي وضع وريقات هذه الزهرة على تيجانه بحيث تقف عند النُّقط الاساسية من جسد التاج في وسطه واطرافه، ومع هذا فقد تنوّعت أشكال هذه الزهرة الواحدة ، فتارة يكون التاج من صفّ واحد من الورقات وتارة من صفيْن،وبالرغم من تقارب اشكال الورقات واقتصارها على ثلاث فان التنوّع ظاهر في امتدادها أو التفافها وفي انتعاشها وشموخها.

• هذا الشكل من التيجان الذي نشأ في القيروان ونَمَا في الزيتونة تطوّر تطوراً تَمثّلَ بلاد المغرب والاندلس ، وقد اثبتَ الاستاذ (هونانـدين) احد علماء الاثار الاسبانيين ان كثيراً من الكنائس

---

(١) الاقنتا (Acanthe) نبت يعرف في المشرق باسم (شوكة اليهودي) و (بالكنكر) له ورقة عريضة جميلة كثيرا ما يمثلها النحاتون القدماء في تيجان السواري لبهاء منظرها .

والاديرة المسيحية في أروبا في العصور الوسطى اشتقتّ اصولها وشكلها من التيجان الاسلامية في الاندلس،ولو انه شاهد تيجان قِباب الزيتونة لَبَان له الاشتقاق منها وأرجعَ الفضل اليها . »

« ... ويزداد هذا الرأي ثقة بأثر آخر من هذا النوع هو منبر جامع الزيتونة ، وان كان أصغر حجماً وشاناً من منبر القيروان فهو متّصل به، متفرّع منه،يشابهه حلية وصناعةً ، يتكون منبر القيروان من مائتين واثنين وخمسين لوحة خشبية تنحصر كل منها في إطار زخرفي ، وتبقّى من منبر الزيتونة أربع واربعون لوحة ... »

حاولنا في الفصلين السالفين أن نلخّص للقارىء المهمّ من اخبار الجامعين العظيمين في البلاد التونسية ، منذ تأسيسهما ، وما طرا عليهما بعد ذلك من التطورات الكبيرة في عمارتها وما ادخل على هيكلها من الزخارف الفنية ، ومتى ابتدأت مزاولة العلوم الاسلامية في أرجائها ، هذا مع اعتقادنا الراسخ ان ما تيسّر لنا جمعه من احداثها هو أقل من القليل بالنسبة لمكانة هذين المعلمين المباركين في الحياة الثقافية الافريقية ، وما أتيح لها من التأثير الكبير في نشر المبادىء الاسلامية العلياء ، وبث اللغة العربية في انحاء المغرب بأسره .

وأملنا وطيد ان يوفّق في المستقبل القريب بعض شبابنا المعلم للاهتمام بالبحث المدقق عما يتعلّق بالجامعين ، وهي مهمّة جليلة يترقّب انجازها بشديد رغبة كل تونسي غيور على مفاخر وطنه وماضيه المجيد.

التعليم بالزيتونة

ولنعد الآن بالبحث الى ما كانت عليه مزاولة العلوم في جامع الزيتونة من أول نشاته الى ان استقرت حكومة البلاد نهائياً في مدينة تونس في القرن السادس للهجرة .

أقدم أثر عثرتُ عليه يشير الى ان تداول التعليم بالزيتونة يرجع الى اوائل القرن الثالث للجهرة في ترجمة (أبي البشر زيد بن بشر الأزدي - احدُ ابناء مدينة تونس وعلمائها المحدّثين - وكان ممن روى بمصر عن ابن القاسم واشهب وغيرهما ، وبالحجاز عن اصحاب مالك بمثابة ماتمّ لسحنون بن سعيد وغيره من الاعلام الاوّل، وعاد ابو البشر الى بلده وأقرأ بها زمناً طويلا [1] .

قال أبو العرب : سمع من أبي البشر الناسُ بتونس ورحل اليه من القيروان خلقٌ كثير يسمعون منه الحديث[2] . والذي يهمنا من اخباره هو ما رواه ابن أخي هشام حيث يقول : « وكان طريق زيد بتونس الى الجامع على (الخرّازين) - وكانه سوق صناعة البلغة الآن - فاقبل

---

(١) فتوح مصر والمغرب ، لابن عبد الحكم

(٢) الخشني ص ٢٠٦

يوماً سَحَرًا مع الطلبة فانقطع شِسْعُ نعله،فوثب اليه شاب من الخرّازين فاعطاه شسعاً جديدا ، فكان زيدُ كلّما مرّ الى المسجد ـ ومعه جماعة الطلبة ـ مال الى الشاب الخرّاز وسلم عليه وساله عن حاله شُكرًا للشسع الذي أعطاه (١) . »

وتوفي أبو البشر بمدينة تونس ٢٤٢ هـ

فهذا الخبر ـ كما ترى ـ هو أقدم نَبَا وقفنا عليه للدلالة على مزاولة العلوم الاسلامية بجامع الزيتونة .

ويروى أن سحنون كان عند ما يذكر معاصريه من العلماء، يقول: « كان بمدينة تونس علي بن زياد خير اهل افريقيـــة في الضبط للعلم [يعني الفقه] ؛ وكان ابن اشرس أحفظ على رواية الحديث ، شديد ألامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وابن أبي كريمة ولم يكن في ناحيتهما وانما كان رجل ورع صاحب احاديث .» (٢)

وهنا يتبادر للذّهن سؤال ، وهو : اين كان قبل ذلك العهد يقريء حملة العلم في مدينة تونس ؟.وهم كثيرون، مثل التابعي الكبير خالد بن أبي عمران المتوفي سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) وتلميذه عبد الملك بن أبي كريمة

---

(١) المداولات ١ ـ ٢١٢

(٢) أبو العرب ص ٢٤٧ و٢٥٣

المتوفي سنة ٢١٠ هـ(٨٢٥ م) وقاضي افريقية أبو كُرَيْب عبد الرحمن بن كُريب، الذيأستشهد في سنة ١٣٩ هـ (٧٥٦ م) وأبو مسعود عبد الرحمن بن أشرس الانصاري المحدث الكبير من تلاميذ مالك بن أنس ، وعليّ بن زياد المتوفي سنة ١٨٣ هـ تلميذ مالك بن أنس واول من أدخل امهات كتب الحديث كالموطا ـ روايته عن مالك[١] ـ وجامع سفيان الثَّوْري وغيرهما من الاصول ، وقد رواها عنه بمدينة تونس ثلة من الفحول مثل أسد بن الفرات وخالد بن يزيد الفارسي ، وسحنون بن سعيد ومن كان في طبقتهم من علماء القيروان .

الاّ ان الباحث المنقّب يستروح من التراجم المخصصة لهؤلاء الأعلام أنهم كانوا يُقْرِئون امّا في بيوتهم او في المساجد الصغيرة القريبة منها او في المسجد الجامع للبلد ، وهي سنة متّبعة في سائر انحاء العالم العربيّ وقتئذ ، وهذا امر محقق لا تتطرق اليه الريبة ، فاذا ما غفل مؤلفو التراجم عن تعيين المكان الذي كان تدرس فيه علوم الشريعة والعربية فليس من شك انها كانت تزاول في المسجد الجامع ، لا سيا اذا كان عدد التلاميذ كبيرا ، فقد لا يسعه منزل خاص او مسجد صغير كما هو الشان في القيروان والفسطاط والبصرة والكوفة وواسط ، وما سواها .

---

(١) من حسن الحظ ان تحفظ لنا مكتبة جامع عقبة العتيقة جزءاً مفرداً من موطا مالك برواية علي بن زياد التونسي ولعله أقدم مجموع للمؤلفين التونسيين .

ومن القرائن القوية جدا على مزاولة التعليم في جامع الزيتونة في القرن الثالث واتصاله بصـــورة مستمرة من لدن ذلك العهد هو ان أبا العباس عبد الله بن احمد الإبيّاني ، كان يقرىء فيه الحديثُ ومسائلَ الفقه ، فقد ذكر مترجموه (١) انه كان يأتي في صباح كل يوم على دابته من قرية (إبيَّانة) - الواقعة بفحص مرناق - على مقربة من تونس - فيقضي جانبـاً كبيراً من النهار في القاء دروسه ، وافتاء السائلين فيما يعرض لهم من القضايا ، ثم يعود عشيةً الى قريته ، هكذا كان دأبه الى الى أن توفاه الله عن سن عالية في خـلال سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م)

والامانة تفرض التنبيه على ان اصحابَ الطبقاتِ لم ينصّوا بالصراحة على انه كان يقرىء في جامع الزيتونة ، الا ان دلائل الحال تشهد بان دروسه وتحليقَ الطلبة عليه - وهم كثيرون جدا - كانت تقع بالزيتـونة اذ هو اوسع محلٍّ يوجد في مدينة تونس واليقُ مكانٍ لرواية الحـــديث ودراسة الفقه .

ومن المعقول ان يكون الزيتونة معهداً للتعليم الديني كما كان جامع عمرو بالفسطاط ومسجد عقبة بالقيروان ، وكلّنا يعلم ان مدينـة تونس في القرنين الثاني والثالث للهجرة - كانت قرينة القيروان وقريعتها من بعد الفتح بقليل حتى ان أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي كان يقول

---

(١) المالكي في « رياض النفوس » وعياض في « المدارك »

لمن يقدم عليه من افريقية : « ما حـال احد القَيْرَوَانِيّيْن » يعني مدينـة تونس .

اما بَعْدَ هذا العصر الاول فقد انتظم التعليم في « الزيتونة » بصورة نهائية ومستمرة خصوصاً منذ ظهور الدولة الحفصيـة ـ اوائل القرن السابع للهجرة ـ كما نذكره بالتفصيل عند الكلام على الحياة الفكرية في دولة بني حفص ، ان شاء الله تعالى .

رُواة اللغة والأدب

في العصر الأول



رواة اللغة والادب
في
العصـــــر العربي الاول

ما انفك العرب يفدون من المشرق على أفريقية في الربع الأخير من القرن الاول إلى منتصف القرن الثاني من الهجرة لتأييد سلطانهم،وقمع ثورات البربر الخارجين عليهم في مملكتهم الجديدة . وما كاد يستقرّ الأمن بها ويثبت إلا بعد ما تسلمت الدولة الاغلبية مقاليد الحكم للبلاد بعهد من الرشيد العباسي سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) .

وإنما كان قدوم هؤلاء العرب مع الجنود المرسلة من طرف بني أمية ـ ويسمون المبيضّة ـ ومن لدن بني العباس بعدهم ـ ويسمون المسوّدة. ولقد كان من بينهم أجناد من أهل الشام وأهل خراسان من غير جزيرة العرب ، عرب الجزيرة .

فكانوا لأول وصولهم القيروان ـ عاصمة البلاد ـ وبعد الاطمئنان بها قليلا يعين لهم الوالي ـ الاموي او العباسي ـ إما الإقامة في العاصمة أو الالتحاق باحد المعاقل العسكرية المنصوبة فى بلاد أفريقية مثل : تونس ، وسطفورة،وباجة ، والأُرْبُس ،وسبيبة ، وقسطيلية وغيرها ، او في المراكز الحربية البعيدة ـ وهي المسالح الواقعة في بلاد الزاب

وما اليها ، مثل طُبْنة ، وبَغَايَ ، وبِلَزْمَة ، وبِسْكرة ، فيلتحق أفراد الجند بها لحمايتها ويقيمون بها إلى أن يستدعيهم الأمير للمشاركة في حرب أو لقمع ثورة .

وفي مـــدة إقامتهم بالمركز المعيّن كان البعض منهم يشتغل بفلح الأرض ، وقد منحتهم الحكومة المحلية إقطاعات من الاراضي ذات الخصب ، على غرار ما كان يفعله الرومان مع جنودهم حينما كان لهم ملك البلاد .

وفي غالب الأوقات كان يُرسل بالجنود القادمين إلى ثغر من الثغور الحربية الذي سبق أن عسكر به أناس من قبيلهم وعشيرتهم ، وذلك لاستئناسهم بالبلاد وتمكينهم من الاطلاع على أحوالها وعوائدها والتعرف لأخلاق أهلها .

ومن بين هؤلاء الاجناد الوافدين كان يوجد شجعان معدودون ، وفرسان معروفون بالنجدة والفصاحة ، ممن شهدوا وقائع المشرق وحضروا مقاتل مشهورة . فلما قدموا على أفريقية وشاركوا في حروبها ومواقفها كانت تتحمّس نفوسهم وتجيش قرائحهم بِقِطَع من الشعر لهذه المناسبات ، فيقولون المقاطيع الحماسية ، والاراجيز الفخرية بما يناسب مواقفهم ونزالهم ، وقديماً قال القاضي أحمد بن دؤاد ، « كل عربيّ يقدر على قول الشعر » .

ثم إنهم إذا ما وضعت الحرب أوزارها وعادوا إلى معسكراتهم

الاولى واجتمعوا بمواطنيهم وبالمولّدين من أبناء مُسلمة البربر ، سامروهم بأخبار الجاهلية والإسلام مما لقنوه في المشرق ، ورووا لهم ما يحفظون من الاشعار في أيام العرب ووقائعهم المروية .

وهكذا تسرّب إلى أبناء أفريقية المستعربة معرفة أخبار العرب وآدابهم في جاهليتهم واسلامهم .

وها نحن اولاء نذكر لك اسماء طائفة صالحة من أولئك الفرسان الشجعان الوافدين ، ونورد نتفاً من حياتهم ، ونسوق قطعاً من أقوالهم في مصافهم ونزالهم ، وهي قطع أعيي البحث عن جمعها لقلّة ما وصل إلينا منها . وانما عمدنا الى إيراد شيء من تراجم هؤلاء الفرسان الادباء قاصدين أن يقف القارىء على بعض تفاصيل الفتح العربي وأخبار مشاهير القائمين به .

فمن رواة الادب :

(١) سليمان بن حُمَيْد الغافقي ، أبو داؤد :

من وجوه جند بني أمية القادمين على أفريقية في خلافة هشام بن عبد الملك ، دخل سليمان وأخوه محمد ـ وهو أكبر منه ـ في جملة من قومهم بني غافق ، منهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي أرسله أمير القيروان والياً على الأندلس ـ سنة ١١٣ هـ . فغزا بلاد «فرنجة» واستشهد

مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) في وقعة بلاط الشهداء (بواتي Poitiers) المشهورة .

وتعيّن أخوه محمد بن حُميد عاملاً على (الأَرْبُس) وناحيتها ، فاستقر بها مع أهله ، وكانت الأَرْبس وقتئذ من أهم المعاقل الحربية للعرب في الناحية الغربية من أفريقية ، إذ كانت واقعة على تخوم جبال أوراس العامرة بالبربر من كتامة وجراوة وغيرهم .

وقد يدرك الباحث عن تاريخ المغرب شدة ما لاقاه أولئك الأجناد من ثورة عصابات البربر القائمين في ذلك العصر بنزعة الخوارج في وجه سلطان العرب ، وكان الأخوان محمد وسليمان ممن ابتلى فيها البلاء الشديد ، وقد استعان بهما أمراء القيروان في مكافحة الواثبين عليهم في مواقف حاسمة ، ورد ذكرها تفصيلاً في أخبار الفتح .

عرّف الحافظ ابن الأبّار بسليمان هذا ، وبعد أن ذكر شجاعته وبأسه قال في حقه :

« فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره ، وأحسن الناس لساناً وأبلغهم ، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها وأشعارها ، مع دعابة كانت فيه وعبث لا يدعه ، حملت عنه في ذلك نوادر مستظرفة وحكايات مستملحة (١) » .

---

(١) الحلة السيراء : ٢١٧ — وابن عذارى ١ : ٣٧

ولم يذكر لنا منها شيئاً، إلا أنه أورد لنا من كلامه قطعة من قصيدة قالها في أحد مواقفه مع بعض ثوار البربر :

وماإن صَدّدْناعنهم خوف بأسهم	وحاشا لنا أن نتّقي بأس بربرا
وإنا إذا ما الحرب أُسْعِر نارها	لَنلقى المنايا دارعين وحُسّرا
ونغدو بصبر حين تشتجر القنا	فلست ترى مناعل الموت أصبرا
ولكن أردنا ذل قـوم تطاولوا	علينا وأبدوا نخـوة وتكبرا

وانتقل بنو غافق من الأرْبُس إلى سكنى قسطيلية ـ بلاد الجريد ـ فاستقروا بها . ومات سليمان حوالي ـ سنة ١٦٠ هـ ـ في مدة يزيد بن حاتم المهلبي .

* * *

ومنهم :

(٢) الحكم بن ثابت السعدي

من ولد سلامة بن جندل الشاعر المشهور :

دخل الحكم أفريقية ـ سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) مـع الجيش العباسي الذي أرسله الخليفة أبو جعفر المنصور بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي في أربعين ألف مقاتل ، عليهم ثمانية وعشرون قائداً، أحدهم الحكم بن ثابت هذا ، وقد حضر جميع حروب ابن الأشعث للبربر الثـائرين حتى أوقع بهم وخضد شوكتهم ، وضبط البلاد وأعمالها ، وسكن الحكَم بعد

ذلك القيروان واتخذ بها داراً وأقام الى أن تعين الأغلب بن سالم التميمي خلفاً لابن الاشعث بعهد من المنصور ـ سنة ١٤٨ هـ ـ فالتحق الحكم بخدمته وصار من قوّاد جيشه ، وشهد معه حروب الثوار من البربر الى أن استشهد الأغلب في فحص القيروان ـ سنة ١٥٠ هـ ، فقال الحكم السعدي يرثيه :

لقد أفسد الموت الحياة باغلب	غداة غدا للموت في الحرب معلما
تبدت له أمُّ المنايا فاقصدت	فإن كان يلقى الموت في الحرب صمّما
أخا غزوات ما تزال جياده	تصبّح عنه غارَةً حيث يمّما
أتته المنايا في القنا فاْختَرَمْنَهُ	وغادرنه في ملتقى الخيل مسلما

وكان الحكَم من الشعراء البلغاء ورواة الأدب المعروفين ، وورث ذلك عن جده سَلاَمة بن جندل وسائر آل بيته ، وقد روى عنه ابناء أفريقية كثيراً من أشعار الجاهلية والمخضرمين (١).

---

(١) الحلة السيراء : ١٠٠ — وابن عذارى ١ : ٦٢ .

ومن الفرسان الشجعان الوافدين :

(٢) المعمر بن سنان التيمي

المعمّر بن سِنان التيْمي ، تــيم الرباب :

قدم صحبة الأمير يزيد بن حاتم المهلبي حينما تولى إمارة افريقية سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) قال ابن الوكيل [١] :

« وكان زميله في طريقه اذا ركب عماريّته لأنسه به واستماعه من حديثه ، وكان المعمّر مَن أعلم الناس بأيام العرب واخبارها ووقائعها واشعارها ، وعنه اخذ اهل افريقية حرب غطفان وغيرها من وقـائع العرب » .

واستوطن المعمّر القيروان وصاحب الامراء من بني المهلب . وكان عمدة لديهم يستشيرونه في المهمّات والملمّات ـ الى ان توفي في مدة الفضل بن روح بن حاتم المهلبي (حدود سنة ١٧٧ هـ) .

وترك المعمّر ابناً وهو عامر اشتهر كأبيه بالنجدة واصابة الراي والمعرفة بالادب الطريف ، وتولى عامر عمالة قسطيلية ـ بلاد الجريد . واقام بها الى ان قدم محمد بن مقاتل العكي والياً على افريقية من قبل الرشيد ـ سنة ١٨١ هـ .

---

(١) الحلة السيراء : ٢٤٢ .

ولما وقعت الحرب بين محمد العَكّي هذا وبين تمّام بن تميم ، وقام ابراهيم بن الاغلب بنصرة العَكي ، قال عامر [١] :

إذا كربة شدت خنــــاق محمد   فليس لها إلا ابن اغلب فارجُ

أتاه بـــتمام على باســــه به   يقاد وقد ضاقت عليه المخارج

وقد كان بالإسراف القى سواده [٢]   ولم تختلجه في الخلاف الخوالج

فعاجله بالكيد حتى استعــاده   وادركه من بعد ما قيل خارج

ولو أنه يستودع الشمس نفسه   إذا ولجت منـه عليه الولائج

فلما صُرف محمد العكي عن امارة افريقية وتولاها بعده ابراهيم بن الاغلب رعى لعامر مناصرته له ومدحه فيه ، وقد اختاره لشرطته فباشر عامر هذه الخطة النبيلة ولزمها الى ان توفي .

ومن شعر عامر ما قاله في ابراهيم بن الاغلب عقب انتصاره على خُريْش الكنـدي ـ احد قواد الجند ـ وقد ثار بتونس ـ سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) .

لولا دفاعك يابن أغلب أصبحت   أرض الغروب رهينـة لفساد

---

(١) الحلة السيراء : ٢٤٢ .

(٢) قوله : التى سواده ، يعني خلع طاعة المسودة وهي دولة بني العباس وانشق عليها .

ولعمّنا ذاك الخــلاف بفتنة ... تغـدو كتائبها بغـير سواد
قالوا غـداة لقائهم لا ننثني ... حتى نحل «الخلد» من بغداد [١]
فنوا باشوسّ مـا تزال جياده ... تشكو الوجى من غارة وطراد
فخُرت به سعد فاصبـح بيتها ... فـوق الفراقـد ثابت الأوتاد

ومن ولد عامر هذا :

(٤) حمزة بن أحمد بن عامر بن المعمر المتقدم :

كان ايضا اديباً ظريفاً عاش على عهد الامراء الاغالبة ، ومات في منتصف القرن الثالث .

وبهذا الشاعر تنقطع عنا اخبار هذا البيت العربي الصميم الذي كانت له يد محمودة في بث الثقافة الادبية في البيئات الافريقية الاولى .

ومنهم :

(٥) الحسن بن منصور الملحجي ، أبو علي :

من بيت قيادة وإمارة ، وكان جدّ أبيه : عبد الرحمن بن عامـر ، وابن عمه : عامر بن اسماعيل بن عامر ممن قدما مع محمد بن الاشعث من قوّاد العباسية . وعامر بن اسماعيل هذا هو الذي قَتَلَ مروان الجعـدي

---

(١) الخلد : قصر أبي جعفر المنصور في بغداد .

آخر خلفاء بني امية ، ومن أجل ذلك كان مقدّماً عند ابي العباس السفّاح ومن بعده من بني العباس

اما الحسن بن منصور فإنه كان يجمع الى شرف آبائه واهل بيته علماً واسعاً وادباً غزيراً ، قال ابن الابار :

« واقل ما تصرف فيه الشعر ، وكان بصيراً باللغة نافذاً في النحو ، عالما بأيام العرب واخبارها ووقائعها واشعارها » .

وهو القائل يرثي ابن عم له يكنى أبا الفضل من قصيدة طويلة اولها:

حل أمر لم يغن فيه احتيالُ ... يقصر الوصف دونه والمقالُ

كان من قبله البكاء حراماً ... وهو من بعد للعيون حلال

ومنهـــا :

يا أبا الفضل حمّلتني المنايا ... منك مالا تقوى عليه الجمال

وكأني لما تضمّنك اللحد ... بينٌ قد فارقتها الشمـــال

وعاش الحسن إلى أيام زيادة الله بن الاغلب،ومات بالقيروان أوائل القرن الثالث . وقد لقن عنه كثير من الشباب الإفريقي الآداب العربية حسبما يشير إليه مؤلفو التراجم .

* * *

طبقـــة ثانيـــة

وهنـاك طائفـة أخرى من الادباء قدمت افريقيـة على غير طريق الجنـد ، وهم العلمـاء والنحـاة والادباء الذين كانوا يفدون من المشرق لاستجداء الامراء والولاة ، وذلك قبل ان تنتشر الثقافة العربية في البلاد وقبل أن تقوى رحلـة ابنائها الى مصر والشام والعراق في طلب العلم .

وأول من اشتهر باستصحاب الادباء والنحاة واللغويين: الامير يزيد ابن حاتم المهلبي الطائر الصيت ، وقد ولاه هارون الرشيد أمر افريقية والمغرب ، من سنة ١٥٥ إلى سنة ١٧٠ هـ ، بعد ان كان واليا على مصر .

قال ابن خلكان : « كان يزيد جواداً سريًّا مقصوداً ممدوحاً ، قصده جماعة من الشعراء والعلماء فاحسن جوائزهم [١] » .

فقد قصدته مدة إمارته طائفة ليست بالقليلة ممن ينتسب إلى العلم والادب فاكرم مثواهم وأجزل عطاءهم ، فمنهم من عاد بعـد ذلك إلى وطنه بالمشرق، ومنهم من استوطن إفريقية وأعقب بها حسبما نذكره بعد .

فمن مشاهير الشعراء الوافدين :

(١) ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي ، أبو أسامة :

من أدباء الدولة العباسية المعدودين ، وممن احتج الأصمعي بشعره .

---

(١) وفيات الاعيان ٢ : ٢٨١

وكانت له وصلة أكيدة بالامير يزيد بن حاتم، يفد عليه في ولاياته العديدة ويمدحه ، فلما تولى يزيد إمارة أفريقية قصده ربيعة وأنشده أبياته السائرة على ما روى المبرّد في كتابه [١] :

حلفت يميناً غير ذي مثنوية	يمين امريء آلى بها غير آثم
لشتان مابين اليزيدين في الندى:	يزيد سليم ، والاغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال ، والفتى	أخو الازد للاموال غير مسالم
فهم الفتى الازدي إتلاف ماله	وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام أني هجوته	ولكنني فضلت أهل المكارم
فيا أيها الساعي الذي ليس مدركاً	بسعاته سعي البحور الخضارم
سعيتَ ولم تدرك نوال ابن حاتم	لفك اسير واحتمال العظائم
كفاك بناء المكرمات ابن حاتم	ونمت وما الازدي عنها بنائم
فيا ابن أسيد لاتسام ابن حاتم	فتقرع إن ساميته سن نادم
هو البحر ان كلفت نفسك خوضه	تهالكت في آذيه المتلاطم
تمنيت مجداً في سليم سفاهة	أماني خال او أماني حالم
الا انما آل المهلب غرة	وفي الحرب قادات لكم بالحزائم
هم الانف في الخرطوم والناس بعدهم	مناسم، والخرطوم فوق المناسم

(١) الكامل للمبرد .

قضيت لكم آل المهلب بالعلا   وتفضيلكم حق على كل حاكم
لكم شيّم ليست لخلق سواكم   سماح وصدق الباس عند الملاحم
مهينون للاموال فيا ينوبكم   مناعيش دفّاعون عن كل حارم

ومنها :

أبا خالد أنت المنوه باسمه   إذا نزلت بالناس إحدى العظائم
كفيْت بني العباس كل عظيمة   وكنت عن الاسلام خير مزاحم

ويقال إن ربيعة الرقي كان مدحه قبل هذه القصيدة واستبطأ برّ يزيد وصلته ، فقال :

أراني ولا - كفران لله - راجعاً   بخفّي حنين من نوال ابن حاتم

فلما بلغ قوله يزيد دعا به وقال لخدمه : انزعوا خُفيه ! فنزعا - وربيعة خائف على العقوبة من ذكره : خفي حنين - فملأهما له دراهم ودنانير ، وكانا كبيرين كأخفاف الجند ، ثم وصله بعد ذلك بصلات جزيلة .

وبعد أن اقام ربيعة مدة طويلة بالقيروان مكرماً في ضيافة الامير، عاد إلى العراق حيث توفي .

ومن الوافدين على افريقية :

(٢) المسهر التميمي الشاعر :

قال ابو سعيد السمعاني ، وعنه نقل ابن خلكان [١] : ان المُسْهِر التميمي وفد على يزيد بن حاتم بافريقية فانشده :

إليك قصرنا النصف من صلواتنا	مسيرة شهر ثم شهر نواصله
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا	لديك ولكن أهنأ البرّ عاجله

فامر يزيد بوضع العطاء في جنده جميعه ـ وكان معه خمسون ألف مرتزق ـ وقال : « من أحب أن يسرّني فليضع لزائري هذا من عطاياه درهمين » . فاجتمع له مائة ألف درهم ، وضم يزيد الى ذلك مائة ألف أخرى ودفعهما اليه

وأقام المسهر مدة طويلة بالقيروان ، ويحتمل انه لم يفارقها بعد ، فقد عاش زماناً في حاشية يزيد وأهل بيته من بعده .

روى الاصمعي [٢] : « ان يزيد لما كان بافريقية جاءه البشير يخبره انه ولد له مولود بالبصرة ، فقال يزيد : سميته المُغيرة ، وكان عنده المسهر التميمي ، فقال : « بارك الله لك ايها الامير فيه ، وبارك له في بنيه ، كما بارك لجده في ابيه » .

---

(١) وفيات ٢ : ٢٨٢ .

(٢) وفيات ٢ : ٢٨٣ .

ومنهم :

(٢) ابن المولى :

واسمه : محمد بن عبد الله بن مسلم ، مولى بني عمرو بن عوف من الانصار ،شاعر أمويّ عفيف ، كبرت به السن حتى لحق الدولة العباسية ، ووفد على يزيد بن حاتم حينما كان واليا على مصر ومدحه بقوله [١] :

يا واحد العرب الذي اضحى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

وقدم ابن المولى على يزيد أيضا وهو والٍ على افريقية

حكى يموت بن المزرّع قال : « قال لي الاصمعي يوما وقد جئته مسلّما عليه الى ان ذكر شعر الشعراء المداحين المحسنين من المولدين ، فقال لي : يا ابا عثمان ! ابن المولى من المحسنين المداحين ، ولقد اسهرني في ليلتي هذه حسن مديحه ليزيد بن حاتم حيث يقول [٢] :

وإذا تباع كريمة او تشترى فسواك بائعها وأنت المشترى
واذا تخيل من سحابك لامع سبقت مخائله يد المستمطر

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) راجع كتاب « المؤتلف والمختلف » في أسماء الشعراء للامدي ط مصر ١٣٥٤ ص ٤١١ – وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ .

وإذا صنعْتَ صنيعة أتممتها ‏ ‏ ‏ ‏ بيدين ليس نداهما بمكدَّر
وإذا الفوارس عددت أبطالها ‏ ‏ ‏ ‏ عدوك في ابطالهم بالخنصر

* * *

النحاة واللغويون :

يناسب ان نلمح في هذا الفصل الى العلماء - من نحاة ولغويين - وهم النازحون الى افريقية في مدة الامراء من آل المهلب يعني في النصف الاخير من القرن الثاني ، فنهم :

(١) يونس النحوي :

وهو يونس بن حبيب الضبيّ ، ابو عبد الرحمن ، من ابناء البصرة وكبار ائمة اللغة والنحو المنسوبين اليها ، ومن أصحاب ابي عمرو بن العلاء وغيره ، قال السيرافي : « سمع كثيراً من العرب كما سمع من قبله ؛ وقد سمع منه الكسائي والفراء ومن في طبقتهما ، وروى عنه سيبويه وأكثر بالنقل عنه ، وكانت له حلقة بالبصرة ينتابها اهل العلم وطلاب الادب وفصحاء الاعراب والبادية (١) »

---

(١) « أخبار النحويين البصريين » للسيرافي ، ط بيروت ١٩٣٦ ص ٣٣ بتحقيق الاستاذ كرانكو .

وكان ليونس اتصال أكيد بآل المهلب في البصرة ، وله اختصاص زائد بيزيد بن حاتم، فلما تولى يزيد امارة افريقية وفد عليه فيمن وفد. وليس من شك ان طلبة العلم بالقيروان اغتنموا اقامة هذا الإمام بين ظهرانيهم للاستفادة من غزير علمه وواسع روايته .

وقد غفل الاخباريون عن إعلامنا بأسماء الآخذين عنه من ابناء البلاد . وليس من شك أيضاً ان الامير يزيد كان يود ان يتولى ضيفه الجهبذ تلقين الناشئة من اهل العاصمة لُبابَ اللغة والآداب . ولا نَنْسَ ان يزيد وَجّه عناية خاصة لتحضير مدينة القيروان وتمدينها فإنه اول من دوّن الدواوين الحكومية على غرار ما كان موجوداً بدار الخلافة ببغداد، وانه أول من انشأ الاسواق التجارية والصناعية ووضع لها التراتيب التي صارت عليها مدة حياتها ، وفوق ذلك فهو الذي جدّد بناء جامعها الكبير ـ مسجد عقبة بن نافع ـ وكساه حلة جديدة من الزخرف كما هو مبسوط في التاريخ ؛ فليس من شك انه سعى في تنظيم حِلَق الدراسة فيه ، وأي فرصة أثمن عنده من اسناد الامر لمثل هذا النحوي البصريّ الذي طبّقت شهرته بلاد الإسلام للإقراء ونشر محاسن الآداب، لاسيا ان ابناء العرب من الصحابة والتابعين واعيان الاجناد كانوا متوفرين اذ ذاك في افريقية مثال ما كان في مدائن الشرق الكبرى ، ومنها البصرة مسقط رأس الامير يزيد ويونس النحوي هذا .

وفي اعتقادنا ان تلقين يونس لطلبة العلم بالقيروان وقع بالفعل ،

ولا ريب ان اقامة مثل هذا الإمام في وسط الجيل الإفريقي الاول كان له الاثر الكبير في نفوس الشباب وترغيبهم في التزوّد من الآداب العربية والإقبال على دراستها .

وعاد يونس بعد ذلك الى البصرة حيث مات ما بين سنتي ١٨٢ و ١٨٥ [١] هـ (٧٩٧ ـ ٨٠١ م) .

ومن النحاة واللغويين الوافدين :

(٢) قتيبة الجعفي النحوي :

من اعلام نحاة الكوفة ومن كبار أصحاب الكسائي : « كان عالمًا بالحديث واللغة والشعر والنسب وايام الناس ، وعاصر ابا زكرياء الفراء ، واتصل بالمهدي الخليفة العباسي في بغداد ، وله حكايات مروية مع كتّاب الدواوين بها » .

وقدم قتيبة على الامير يزيد بن حاتم في القيروان ، وعنه أخذ جماعة من ابناء البلاد ، ورووا عنه الشعر ووقائع العرب .

حكى التيفاشي ، فيما نقل عنه ابن منظور [٢] ، قال :

---

(١) طبقات النحاة للزبيدي : ٢٦ ؛ وطبقات النحاة للانباري : وطبقات القراء لابن الجزري ٢ : ٤٠٦ ؛ وبغية الوعاة ٤٢٦ .

(٢) « نثار الازهار » ص ٥٥ .

• دخل عبد الله بن غانم قاضي افريقية على اميرها يزيد بن حاتم، فجرى بينهما كلام ذُكر فيه هلال رمضان ، فقال ابن غانم : أهللنا هلال رمضان ، فتشارناه بالايدي ، فقال يزيد : لحنتَ - يابن غانم : إنما هو تشاورناه ، فقال ابن غانم تشاورنا من الشورى ، وتشارنا من الإشارة بالايدي ؛ قال يزيد : ماهو كذلك ! - قال القاضي : بيني وبينك قتيبة النحوي - وكان إذ ذاك قدم على يزيد ، وهو إمام الكوفة ، فبعث اليه وكان في قتيبة غفلة - فقال له يزيد : اذا رأيت الهلال واشرت اليه وأشار غيرك اليه كيف تقول ؟ - قال : اقول : ربي وربك الله ! - فقال يزيد : ليس هذا أردنا - فقال ابن غانم : دعني أفهمه من طريق النحو ، قال يزيد : فلا تلقنه اذاً - فقال له ابن غانم : اذا اشرت وأشار غيرك وقلت تفاعلنا في الإشارة اليه ، كيف تقول ؟ قال : تشارنا ، وأنشد لكثّير عزة :

وقلت وفي الاحشاء داءٌ مخامر : ألا حبذا يا عزّ ذاك التشارر !

فقال يزيد ، فأين أنت - يا قتيبة - من التشاور ؟ فقال : هيهات أيها الامير ، هذا من الإشارة وذاك من التشاور .

فضحك يزيد وعرف جفاء قتيبة واستحيا من ابن غانم •

وبعد ان أقام قتيبة مدة طويلة في ضيافة يزيد أفاد فيها ونفع ، رجع الى المشرق حيث توفى عن سن عالية (١) .

---

(١) راجع ترجمته : طبقات النحاة للزبيدي - وبغية الوعاة : ٣٨١

ومن الوافدين على القيروان في القرن الثاني ، ابو المنيع النحوي ، ولم نتوصل بعد الى تعيين شخصه لإيراد شيء من خبره .

* * *

هذه ثلة من غزاة العرب الادباء ، وفرسانهم الشعراء القادمين على إفريقية التونسية في عصر الفتوح ، في مدة خلافة بني امية واوائل الدّولة العباسية . وليس من شك ان عدد هؤلاء الادباء كان أوفر بكثير مما اوردنا ، لكن المصادر التاريخية القديمة الواصلة الينا اغفلت ذكرهم ولم تعن باخبارهم ، الا قليلا .

طبقة مختارة
من
رواة اللغة والادب

ابن ربيعـة

نفتتح هـذا الفصل بذكر كاتب بليغ أنبتته التربة الافريقيـة بعـد استيلاء الاسلام عليها ، وهـو أول أديب مؤلف نبغ فيها ، وأول من سعى في تمهيـد استقلال البلاد ، واجتهد في انشاء دواوين حكومتها ، ألا وهو : خالد بن ربيعةالافريقي ، من ابناء البيوتات العربيةالمتوطنة بارض تونس ، ولا نعلم من أخباره أكثر من كونه رَحَلَ في صغره الى المشرق في طلب العلم ـ أوائل المائة الثـانية ـ وقصد الشام ، وتعرّف مدة اقامته هناك لمزاولته العلوم بافراد من كبار اللغويّن والنُّحـاة وأعيـان الادبآء ، وذلك في خلافـة هشام بن عبد الملك ، وحصلت بينه وبين (عبد الحميد بن يحيى المشهور بالكاتب) مودة وألفة من زمن القرآءة ، وحافظ كل منهما عليها ، ويحتمل ان خـالداً انخرط أثناء تلك المدة في سلك دواوين الكتابة للحكومـة الاموية كما تشـير اليه عبارة ابن النديم حيث يقول : « ونشأ خالد الافريقي في الدواوين . » ثم انه عاد الى وطنـه الافريقي وقد وجـده في أشد الاضطراب

بسبب انتقاض قبائل البربر في سائر أنحاء المغرب على سلطان العرب ، في وقت كانت الدولة الاموية مشغولة بمقاومة الدعوة العباسية،وفي عجز عن ارسال النجدات الى اطراف الخلافة .

وفي أثناء ذلك الهرج والمرج قيّض الله لانقاذ افريقيـة من مهاوي السقوط شاباً من صناديد الجند العربي بها وهو (عبد الرحمن بن حبيب الفهري) حفيدالفاتحالكبيرعقبةبن نافع ، فانه لمارأىما آلتاليهالامور من الفوضى وعجز الولّاة عن قمع الثورة،دعا الناس الى نفسه فاجابوه مسرعين ، فاستقلّ بالإمارة ودخلعاصمة القيروان وقد أخلاها آخر والٍ لبني أمية ـ جمادى اولى سنة ١٣٧هـ ـ وكان عبد الرحمن هذا مخلصاً في حبّ البـــلاد لما كان مِن مآثر جدّه عقبة فيها ومفاخر آبائه الغُزاة المغاوير .

وقد استعان عبد الرحمن على القيام بهذا الامر الكبير بذلك الشاب الافريقي الذي عُرِف بأدبه وبُعْد غوره في السياسة والتجربـة (خالد ابن ربيعة) فاختصّه لتدبير شؤون ولايته،واستكفى به في مهامّ امره.

ولاول امتلاكه لزمام الامارة رغب عبد الرحمن في مراسلة الخليفة الاموي مروان بن محمد الجعــدي ، لاشعاره بالطاعة والتماس إقراره بالثغـر الافـريقي ، وقد تولى تبليغ الرسالة عنه مـع ما يصحبهـا من الهدايا ـ جوارٍ حِسان وبُزّاة ، وكلاب صيدٍ وجملة طرائف مغربية ـ

كاتب سرّه خالد بن ربيعة ، فلما وصل دمشق تلقاه زميله القـــديم في مزاولة العلم عبد الحميد الكاتب بكل حفاوة وقرّب من الخليفة منزلته، واتمّ رغبته .

قال البلاذري[1] : « وكان بين خالد الافريقي وبين عبد الحميد ابن يحي [الكاتب] مودة ومكاتبة ، فاقرّ الخليفة مروان عبد الرحمن على الثغر المغربي.»

ورجع خالد الى مخدومــــه يحمل سِجلّ التقليد وَالخِلع البيض ـ شعار بني أمية ـ والهدايا المناسبة ، ودخل بها القيروان في يوم مشهود سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) .

وبفضل هذا الاعتراف تسنّى لعبد الرحمن بنْ حبـيب الفهري ان يكون اول مستقل ينفرد بأمر المغرب من أقصاه الى أدناه ، وأن يخمد نار الثورة التي أضرمها المشاغبون ، وان يسير في البلاد سيرة العدل والتدبير ، ويصلح ما انثلم من المعالم وما تخرّب من الحصون ، ثم انه حمل السكّان على غـزو البحر بمهاجمة جزائر البحر المتوسط كالطة وصقلية وسردانية وبلاد إفرنجة .

قال ابن العذاري : [2] : « غزا عبد الرحمن بن حبـيب صقلية ثم

---

(١) فتوح البلدان : ٢٣٠ ط مصر

(٢) البيان المغرب ١ : ٤٩

بعث الى سردانية فقاتل بها حتى صالحه أهلها ، وبعث الى إفرنجة فاتى بسبيها ، ودوّخ المغرب كلّه ، وأذلّ من به من القبائل ، ولم يهزم له عسكر ولا ردّت له راية . »

وبعد مدة يسيرة قُتِلَ الخليفة مروان الجعــديّ بالمشرق وزالت دولة بني أمية ـ سنة ١٣٢ هـ ـ وبقى عبد الرحمن اميرَ افريقية والمغرب، وهرب بقايا بني أمية من الشام ، وتشرّدوا في الاصقاع خوفاً من بني العباس ، فقصد جماعة منهم الامير عبد الرحمن ـ سنة ١٣٣ هـ ـ كان فيمن قدم عليه منهم : العاصي وعبد المؤمن ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك مع حريمهم ، فانزلهم عبد الرحمن احد قصور القيروان وتزوّج اختهما وزوّج منهم ايضاً أخويه ـ الياس وعبد الوارث [١] ـ ولا يبعد ان كان مقدم هؤلاء الامراء المشرّدين بايعاز من خالد بن ربيعة ومداخلته .

وتوفي عبد الرحمن مقتولاً ـ ذي الحجة ١٣٧ ـ وتولى بعده أخوه الياس ثم ابنه حبيب، وبهختمت إمارة الفهريين سُلالة عقبة بن نافع من افريقية ، والامر لله وحده .

أطلنا في جلب الكلام على دولة الفهريّن ،وقصدنا بذلك وصف

---

(١) جمهرة انساب العرب لابن حزم الاندلسي – وابن خلدون ٤ : ١٩٠ ط مصر .

البيئة التي عاش فيها خالد بن ربيعة اذ هو المقصود بالذات هنا ولم نر من ترجمه سوى ما ذكره عنه البلاذري وكذا ابن النديم الذي قال في حقه: « خالد بن ربيعة الافريقي،مترسل بليغ ، نشأ في الدواوين وله رسائل مجموعة في الادب نحو مائتي ورقة . »

والظن الغالب ان أخبار هذا الاديب انتهت بانقطاع آخر الفهريين يعني في سنة ١٤٠ هو كان ذلك اول عهد بظهور البعوث العباسية الى افريقية .

ومن حسن الحظ ان حفظ لنا قدماء الادباء بعضاً من رسائل عبد الحميد الكاتب الى صاحبه خالد بن ربيعة ، وهي أدل دليل على متانة الوصلة التي كانت تربط بينهما ، فمن ذلك ما أورده ابو القاسم البغدادي في تاليفه « كتاب الكُتّاب » حيث قال (١)

وقال عبد الحميد بن يحيى في رسالة الى خالد بن ربيعة الافريقيّ يصف الكُتّاب : «إنّ الكُتّاب قليل،والمتسمّون بالكُتّاب كثير،والعلم معين على نفسه من أخذه ، فمن ادخل نفسه في الكُتّاب مصطبراً على ما ينوبه فتّه من العفاف عن المطامع والتتبّع للمعروف ، وترك التضجّر بأهل الانقطاع ، وصبر على النوائب ، وحاول جرّ المنافع الى الصديق،

(١) راجع « كتاب الكتاب » لابي القاسم عبد الله بن عبد العزيز البغدادي وقد نشر في مجلة الابحاث الشرقية التي يصدرها المعهد الفرنسي في دمشق . ج ١٤ في سنة ١٩٥٤ .

« Bulletin d'Etudes Orientales » . Tom . XIV au 1954 - Damas
« Le Livre des Secrétaires » éd. par Dominique Sourdel - p. 150

وأظهر كشره وحسن قبوله ومعاملته من لايعرف ، فهو الذي احتوى على الكتّاب واحتوى الكتّاب عليه ».

وأورد لعبد الحميد عقب ذلك قطعة مختارة من رسالته المشهورة الى الكتّاب ، ويظهر من سياق عبارة الناقل البغدادي ان المخاطب بها هو زميله خالد بن ربيعة المتقدم ، ويا حبذا لو أسعفنا الحظ بالعثور على شيء من رسائل خالد الى رفيقه الطائر الصيت ، وقد ذكر ابن النديم فيما تقدم ان له « رسائل مجموعة في الادب ، نحو مائتي ورقة . »

ولعلّ الزمان يكشف لنا يوماً بعضاً منها .

مصادر : - فتوح البلدان للبلاذري ط مصر ١٣١٩ ص ٢٤٠ - تاريخ ابن عبد الحكم ص ٢٢٣ - الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ط مصر - ابن العذاري ١ : ٤٧ وما بعدها - الكامل لابن الاثير ٥ : ١٤٧ -

ابن عوانة الكلبي

عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي ، من بيت عربي معروف في الكوفة انبت غير واحد من مشاهير رواة اللغة والادب ، فان جدّه الحكم بن عوانة كان له بها قدر جليل وولي ولايات كثيرة ، وكان مع ذلك عالما بايام العرب وأنسابها ، ثم ان أباه - أبو الحكم عوانة - كان أيضا عالما بالأخبار والآثار ، ثقة ، فقد روى عنه الاصمعي والهيثم بن عدي » وكثير من أعيان المحدثين وأهل العلم ، وكان صديقاً لذي الرمة الشاعر وعبد الله بن عياش الهمداني وغيرهما .

قال عبد الله بن جعفر : « عوانة بن الحكم من علماء الكوفة بالاخبار خاصة والفتوح ، مع علم بالشعر والفصاحة ، وله أخبار ظريفة، وعامة أخبار المدائني عنه » .

وروى عبد الله بن المعتز : « ان عوانة بن الحكم كان عثمانيـاً وكان يضع اخباراً لبني أمية ».

وكان عوانة كفيف البصر ، مات ـ فيما ذكر المرزباني عن الصولي ـ في سنة ١٤٧ في الشهر الذي مات فيه الاعمش وقال المدائني ـ وهو الاصح ـ مات عوانة سنة ١٥٨ في السنة التي مات فيها المنصور [١]

وترك عوانة ولدا هو عِيَاض، ولعوانة تآليف منها كتاب «التاريخ» وكتاب « سيرة معاوية وبني أمية » يرويها عنه ابنه عياض [٢]

اما عياض فـانه ولد بالكوفة وتربّى بها وروى عن أبيه وقـرأ عن كبار علمائها واشتهر بالنحو ، حدث المرزباني باسناده : ان عوانـة بن الحكم كان يقـول لولده عياض : « لا تعمق في النحـو فانه لم يتعمّق فيه احدٌ الاّ صار معلّما ! » .

وخرج عياض في حيـاة ابيه من الكوفة الى افريقية لتعليـم ابناء

---

(١) معجم الادباء ج ٥ : ٩٣ ، ٩٥

(٢) الفهرست لابن النديم : ١٣٤

ولّاتها من المهالبة واستقر بالقيروان في مدة إمارة يزيد بن حاتم - سنـة ١٥٥ - وعلّم بالفعل اولاد الامراء ، وقد اخذعنه ابنـاء افريقية النحو والعربية والأدب ، واختص بصحبته من بين ابناء الافارقة ابو الوليد المهري وقد مرّ التعريف به .

وكان عياض ممن يقرض الشعر ويجوّد فيه ، قال الزبيـدي : « كان أمراء المهالبة يكرمونه كثيرا ويوقرونه » كيف لا ، وقد درس عليه غالب ابنائهم ، ومن الحكاية الآتية الواردة في ترجمة عيـاض يستدلّ على تقدير بني المهلب لعلمه وفضله :

نقل الرّواةُ عن عياض انه قال :

« اقمت زمانا لا عهد لي بصلة الامير روح بن حـاتم حتى أرملتُ وأملقتُ ، فركبتُ يوماً بغلتي وخرجت حتى رقيت على (الكُـدية) السوداء المطلة على القنطرة ، وكانت العرب تضع اثقالها بها في دخولها قيروان افريقية - وسمّيت القيروان لانها الاثقال في كلام العرب - فاني لعلى الكدية اذ أتاني رسول يشتدّ اليّ ، فقال : « أجب الامير،يا ابن عوانة » فمضيت وما احسب ان بعثه اليّ ابتداءً من غير ان اكون توسلت للوصول اليه الّا لامر نَمَى عني اليه من القول ، فلما اتيتُ نزلتُ على بابه فاستؤذن لي ، فصعدت فانه لفي مشرفة مع جاريته « ظَلَّة الهندية » فسلّمت عليه فاحسن الرد ، فكأنَّ روعي سكن ، ثم قال : ما حـالك ؟

فقلت: مقلّ ، معدم ، ابو عيال ولا مال. قال : قد بلغت الغيث فتخيّم ! ـ اي ألق خيمتك ، ـ فقلت : الحمد لله ، ذلك والله المأمول المرجو من الامير ، فقال : مالك من العيال ؟ فقلت : ثلاثون ، ـ وكان ابو هريرة ـ قهرمانه ـ اكرم حضير ومشير ، فقال : هم اكثر من ذلك ، الى السبعين بين حزّانة (١) وقرابة ، وأصهار ، قد التجاوا اليه لما يأملون من راي الامير ، ويرجونه من كرمه ، وما هو بذي ماشية ولا واشية ولا بتاجر ـ قال : قد امرتُ لك بخمسمائة دينار ، فادفعها اليه،يا اباهريرة ، الساعة، ومن القمح والشعير والتين والطلاء والزيت والخلّ ما قال انه يقوم به الى رأس الحول ـ قال عياض : فنزلنا فوزن لي المال، وقال لاصحاب الخراج : أحسبوا كم له في هذه السنة مما أمر به ، فجعلوا يعدون ويعقدون، وكان السوق قدنزا ، فقال لي ابو هريرة: هل لك الى ما هو أقرب من هذا ، تاخذه ثمنًا ؟ قلت: ما اكره ذلك ـ فاعطاني خمسمائة دينار أخرى ومضيتُ. ـ وما انسى محضر «طلّة» يومئذوقولها : « عالم البلد ، اهل لكل ما اسدي اليه » ـ فانصرفت باحسن حال . »

ومن سياق هذه الحكاية يتبين لك كيف كان الامراء من بني المهلب يؤثرون علماء العرب الوافدين على افريقية ، وكيف كانوا يمدّونهم بيد المساعدة سعياً وراء اقرارهم في البلاد اذ كانوا خير وسيلة لنشر اللغة العربية وآدابها بين ابناء الاقطار المغربية .

---

(١) قوله الحزانة يعني أهله الذين يحزن لهم .

وخلاصة القول ان عياض بن عوانة كان في طليعة رواة العرب النازحين الى افريقية العاملين على تعميم الثقافة الاسلامية ، فلم يمض القرن الاول للهجرة وبعض الثاني حتى اصبحت العربية اللغة الرسمية للسكان ، يتدارسون اوضاعها وآدابها برغبة واجتهاد متزايدين ، ويحرصون على نشرها ويذبّون عنها بمثابة ابنائها المتأصّلين الاقحاح .

ولم يرو لنا الاخباريون تاريخ وفاة عياض ، والغالب على الظن انه مات في حدود عام ١٧٥ يعني قبيل انقراض امارة بني المهلب من افريقية ببضع سنين .

مصادر :

الزبيدي : ١٥٢ ـ ابن النديم : ١٣٤ ـ معجم الادباء ج ٦ : ٩٢ وما بعدها ـ بغية الوعاة ٣٦٨ نقلاً عن الزبيدي .

ابن الطِّرِمَّـــاح

أَمان بن الصَّمْصَامَة بن الطرمّاح بن حكيم الطائي ، أبو مالك . وجدّه الطرماح هو الشاعر الأموي المشهور المتوفى سنة ١٠٠هـ. ودخل الصمصامة افريقية في اوائل المائة الثانية للهجرة واستقر بالقيروان ، وبها ولد ابنه أبو مالك أمان هذا .

ولا ندري ان كان أمان رحل في صغره الى المشرق أو انه قــرأ بافريقية خاصةً ، والذي نعلمه انه كان راويةً للغة وأشعار العرب حسبما ذكره ابن حزم ، وكان شباب القيروان يجلسون بين يديه ويروون عنه. وتخرّج عليه غير واحد في النحو واللغـة والادب كابي الوليـد بن قطن المهري الآتي :

قال ابو بكر الزبيدي [١] : « كان أبو مالك عالماً باللغة والشعر ، حافظاً للقريض ، شاعراً مفوّهاً ».

وحكى تلميذه عبد الملك بن قطن قال : أبطـــات بالزيارة على ابي مالك وكان مريضا فكتب الى :

ابلغ المهـــري عني مالكا	ان دائي قد أصار المخّ ريرَا
كنت في المرضى مريضاً مطلقاً	ولقد أصبحت في المرضى أسيرَا
فــــاذا مامتّ فـانعم سالماً	وتملَّ العيش في الدنيا كثيرا

ولما آلت إمارة افريقية الى بني المهلب الازديين ـ سنـة ١٥٥ وتولى الامير يزيد بن حاتم الطائر الصيت في الكرم والنجدة استصحب معه من المشرق جماعة من الادباء والكتّاب البلغاء وفي مقدمة الوافدين كاتب سرّه ومباشرُ امره (ابو علي الحسن بن سعيـــد البصري)[٢] احد كبار

---

(١) طبقات النحاة للزبيدي

(٢) اخبار النحاة البصريين للسيرافي ، ط بيروت ص ٨٠

النحاة البصريين ، ومشاهير المترسلين كتّاب الدواوين ، فقال ابو علي هذا الى أمان بن الصمصامة واتخذه خليلا يسامره بعلمه الجم ويؤانسه بادبه الغض ، ومازال ابو مالك ينتفع بهذه الصحبة ويعتمد عليها الى ان مات ابو علي البصري بالقيروان ـ حدود سنة ١٧٨ ـ وانقضت على أثر ذلك دولة المهالبة وظهر بعدها بقليل ابراهيم بن الاغلب واستقل بامر افريقية ـ سنة ١٨٤ . فطرح أبا مالك الى جنب وقطع بينه وبين ما كان ينتفع به من كرم الامراء وتشجيعهم للادب واهله ، وسببهذا الجفاء هو هجاء الطرمّاح قديما لبنى تميم ـ والاغالبة تميميون ـ حيث يقول فيهم

ولو ان حرقوصاً على ظهر قملة   يكّر على صَفَّيْ تميم لوَلّتِ[1]

تميم بطرق اللُّؤم أهدى من القطا   ولو سلكت سُبُلَ المكارم ضَلَّتِ

ومن ذلك الوقت انقطعت عنا أخبار أمان ولا ندري ما آل اليه حاله ، غير انه ترك جزءا في النحو واللغة والشعر رواه عنه تلميذه عبد الملك المهري .

---

(١) الحرقوص ـ بضم اوله ـ دويبة صغيرة كالبرغوث ، راجع حياة الحيوان للدميري ١ : ٢٨٤ (لفظ حرقوص) ـ وشرح شواهد التلخيص : ٢ : ١٩٩ .

مصادر :

كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم - مخطوط بالزيتونة - في نسب بني غوث بن طي وقد اسماه هناك « أبان » بدل « أمان » وهو تحريف من الناسخ - معجم الادباء ٢ : ٣٦١ - بغية الوعاة ص ٢٠٠

ابن أبي الاسود

احمد بن أبي الاسود ، ابو العباس النحوي

من أبناء القيروان ممن صحب أبا الوليد المهري وتخرّج عليه وانتفع به حتى برع وفاق أقرانه ، وكان بعد ذلك يقرىء النحو واللغة بمسجد قرب داره بالقيروان .

قال الزبيدي : « كان شاعراً مجيداً ، وله اوضاع في النحو واللغة والغريب » .

ومن اخباره انه وقع مرة بينه وبين بعض خواص أصحابه - وهوابن الزيدي - وحشة ادت الى قطع المودة والتواصل ، فركب اليه ابن الزيدي وساله الرجعة الى ما كان عليه ، فلم يجبه وكاتبه مراراً فلم يفد شيئا ، وجاءه رسوله مرة ببطاقة وعنده جماعة من طلّاب الادب فلما قرأها مد يده الى القلم وكتب اليه في محوها :

« اما بعد ، فان طول الترداد يورث الملال ،وقلّة غشيان الناس أفضل

لقوله ـ ﷺ (زر غبا تزدد حبا) وللقلوب نبوةٌ ، فان أكرهت لم يكن لما يتولّد منها لذّة ، ولا بدّ من استجامها الى غاياتها ، أسأل الله ان يجعلها منا عزمة ، ومنك سلوة ، والملتقى ـ ان شاء الله ـ في داره وجواره حيث لا تحاسب ولا تصاحب ، والسلام » .

وترك هذا النحوي الكبير مصنفات في اللغة والادب لم يذكر المؤرخون لنا اسماءها غير ان الزبيدي اشار اليها في ترجمته له حيث قال : وله تصانيف في النحو والغريب ومؤلفات حسان ، ولم يزد على ذلك .

وكانت وفاته في أواخر القرن الثالث .

مصادر :

الزبيدي : ١٥٨ ـ معجم الادباء ١ : ٣٧٨ ـ بغية الوعاة : ١٢٨

* * *

طبقة اخرى من رواة اللغة والادب

وهناك زُمرة ثانية من كبار الرُّواة ، أقاموا سوق العلوم واللغة وفنون الادب في افريقيـة التونسية في عصر الوُلاّة المعيّـنين من لدن الدولتيْن الأموية ثم العباسية ، وهؤلاء الرُّواة هم الذين اجتهدوا في نشر العربية وآدابها بين طبقات المتعلّمين من ابناء البلاد ، ومهّـدوا السبيل لظهور نهضة علمية وحركة فكرية بلغت ذروة الخبرة والازدهار في في مدة كل من الاغالبة والفاطميين والامراء الصنهاجيين من بني زيري حسبما تراه بعد .

وكان من أثر هذه الحركة المباركة ان نشأت بالقيروان مدرسة نحوية لغوية نالت من الشهرة وبعد الصيت ما جعل ابناء المغرب من أدناه الى أقصاه يقصدونها لتلقي اصول اللغة وفروعها ، وقواعد الادب وفنونه ، على اساتذة قادرين حذقوا العلوم اللسانية وتفنّنوا في وضع المؤلفات في في اغراضها ما يضاهي بلا ريب ما كان يصدر عن كبار النُّحاة واللّغويين في المشرق العربي

وسيرى القاري من سياق الـتراجم الآتية ما يقيم الدليـل الواضح على إدراكهم درجة عالية من التخصّص في غير مـا فن من فنون اللغـة والادب .

وقد اقتصرنا هنا على إيراد المشهورين من فحولهم ، وتركنا

تراجم آخرين من النابغين في العلوم اللسانيـــة الى المطوّل من تاليفنا الكبير .

اللؤلـــؤي

احمد بن ابراهيم بن أبي عاصم اللؤلؤي،من مشاهير نُحاة القيروان وكبار لغوييها وأدبائها ، ولد في حدود سنة ٢٧٢ هـ على عهد الامير ابراهيم الثاني ، ونشأ في طلب العلم ودراسته عن اساتذة العربيــة مثل أبي محمد المكفوف وكان كثير الملازمة له حتى تبرّز واشتهر

قال أبوبكر الزبيدي : « كان من العلماء النقّاد في العربية والغريب والنحـو والقيام بشرح أكثر دواوين العرب ، وكان صادقاً في علمه وبيانه ، مأمونا فيما يسال عنه ، شاعرا مجيدا ، ذا حظ وافر من الادب وفنونه ، وكان أبوه مؤسراً فلم يكن يمدح أحدا لمجازاة ، وأقبل في آخر عمره على طلب الحديث » .

ومن بليـغ شعره :

أيا طلل الحي الذين تحمّلوا ... بوادي الغضا كيف الاحبة والحالُ
وكيف قضيب البان والقمر الذي ... بوجنته ماء الملاحة سيّالُ
كان لم تدر ما بيننا ذهبيـةٌ ... عبيرية الانفاس عذراء سلسال
ولم أتوسد ناعماً بطن كفّـه ... ولم يحو جسمَيْنا مع الليل سربال
فبانت به عني ولم ادرِ بغتـةً ... طوارقُ صرف البين والبين مغيال

فلما استقلت ظعنهم وحدوجهم دعوت ودمع العين في الخد هطّال
حرمت مُناي منك ان كان ذا الذي تقوّله الواشون عني كما قالوا

والبيت الاخير تضمين لقول عبد الله بن محمد القاضي المعروف بالخليجي (١)

وشعر ابن ابي عاصم اللؤلؤي كله منسجم جيد ، ومات صغيراً بالقيروان في سنة ٣١٨ وله ستة وار بعون عاما .

ولا يبعد ان يكون الشاعر الوارد في يتيمة الدهر للثعالبي (ج ١ ص ٤٥٤) باسم (احمد بن عبد الله بن احمد اللؤلؤى) هو صاحب الترجمة نفسه وان اختلفت اسماء آبائهما . فليحقق .

من تصنيفه :

« الضاد والظاء » قال الزبيدي : كتاب حسن بيّن .

مصادر : معجم الادباء ج ١ : ٣٧٢ ـ بغية الوعاة ١٢٧ .

حمدون النعجة

حمدون ـ وهو تصغير محمد ـ بن اسماعيل ويلقب بالنعْجة ، ابو عبد الله ،

---

(١) راجع أبيات الخليجي وقصتها في كتاب الاغاني ج ١٠ ص ١٢٣

من كبار تلاميذ ابي الوليد المهري و به تخرّج في النحو واللغة والادب وقد تقدمت له حكاية وخروجه معه للنزهة .

قال الز بيدي : « كان حمدون مقدماً في العربية والنحو بعد المهري ، و كان يقال انه اعلم بالنحو خاصة منه لانه كان يحفظ كتـاب سيبويه ويستظهره ، الاّ ان شعره عليه اثر التكلّف ، امـا في النحو والعربية والغريب فهو الغاية التي لابعدها » .

روى الصفدي[1] : « انه كان لحمدون مكتب بالقيروان يجلس فيـه ويجتمع عليه اصحابه من اهل العناية بالعربية والادب ، ويقصده الطلّاب للاستفادة من علمه ويدرسون عليه كتب اللغة ودواوين الشعر » وقد اسلفنـا اجتماعه بصاحبه عبد الله المكفوف النحوي في مكتبه ، الاّ ان معاصريه لاموا عليه تشدّقه في الكلام وتقعّره في خطابه بينا كان معلّمه المهري على خلاف ذلك ، فكان المهري من عقلاء العلماء ولم يكن حمدون موصوفا بالعقل .

حكى أبو اسحاق بن نيّار ، قـال : اخبرني حمدون النعجة قـال : كنت جالسا عنـد ابي الوليد المهري ، فاردت شربة ماء ، وكانتْ له جارية تسمى « سَلَامَة » وربما سمـاها (سَل) لئيمة اذا غضب عليهـا ، فقلت : ياسلامة ! اسقني ماء ، فابطات .

---

(١) نكت الهميان : ١٨٤

فقلت :

أرى سل لئيمة قد أبطات

فقال المهري : وعلّة ابطائها في الكسل

ولا تعمدن نظرا في الكتاب وما شئت من علم نحو فسل

فقلت :

فانك بحر لنا زاخــر يظل وأمواجــه ترتكل
كريم النجار اذا جئتَه يلقاك بالبشر لا بالزلل

فقال المهري :

فان يك حمدون ذا فطنة فقد كان فيما مضى قد غفل

ومات حمدون بعد معلمه وقبيل انقراض الدولة الاغلبية يعني في حدود سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م)

لــه :

١ ـ كتاب في النحو ـ ولم نقف على تسميته بالتحقيق .
٢ ـ أوضاح في اللغة .

مصـادر :

الزبيدي : ١٥٩ ـ المـالكي (في ترجمة ابي الوليد المهري) نكت الهميان : ١٨٤ ـ بغية الوعاة : ٢٢ نقلا عن الزبيدي .

السبخي

الحسن بن علي ويعرف بالسَّبْخي، ابو علي النحوي ،

وكأنه ينسب الى السبخة التى قرب القيروان ، ولد أعمى في حدود عـام ٢٦٥ / ٨٧٨ م ، وادرك صغيراً اصحاب سحنون واخذ عنهم علوم الشريعة واختص بأبي محمد النحوي المكفوف ، فقـــرأ عليه النحو والعربية حتى اتقنهما واشتهر بذلك بين معاصريه وفتح مكتباً فقصده صغار الطلبة وكبارهم ودرسوا عليه، وتخرج عليه أجيال وقد طال عمره.

وكان السبخي على الجانب الوافـر من الاخـلاق الحميدة وكرم النفس والايثار والزهد .

قال المـالكي : « كان عالمـا باختلاف العلماء واتفاقهم مع المعرفـة الواسعة بالنحو واللغة وعلوم القرآن وانتفع به خلق من النـاس » ومما حكي عنه :

« قال له تلميذه عبد الله بن نصر يوماً : « أصلحك الله ، اردت سكنى المنستير للمرابطة ، ـ فقال له : لا تفعل ، قال : و لما ؟ ـ فقال : كان

اندلسي يطلب العلم عند سحنون بن سعيد فقـــال له : أردت سُكنى المنستير فقال له : لاتفعل فان الذى انت فيه من طلب العلم أولى من المرابطة وأفضل » .

وحكى عبد الله بن نصر المتقدم قال : كنت جالساً عنده حتى دخل عليه رجل فشكا اليه فاقته ، فنزع جُبَّته فرمى بها اليه وبقى عريانا في خلق مئزر من صوف ، فلما خرج الرجل قلت له : ـ هذا مرفوع عنك ، انت في فاقة وليس لك من الدنيا شيء ـ فقال : يأتي ما خير منها ان شاء الله تعالى ـ فبعد حين دخلَ عليه ابن كندوس المقدّم (؟) ومعه غلامه يحمل رزمة فيها جبّـة شرفي رفيعة ، ومنديل مهلّبي ، ومئزر جديد ، ودفع اليه صرة فيها نفقة ، وقال له ابن كندوس :

ـ ياسيدى ، أحب ان تقوم من مكانك حتى البسك بيدى ، فقام على رجليه وكساه الجبة وجعل المنديل على رأسه وشد المئزر في وسطه ، فدعا له ابو علي بخير وانصرف .

ومن ايثاره وزهده ما روى الدباغ قال :

« كان ابو علي لايدّخر شيـًا لغدٍ ، ياخذما بهالقوامويجود بالفاضل ، وقال مرة لرجل : يا أمرش ! في شيء نازعه فيه من ابيات شعر ـ ثم استدرك وقال : لاحول ولا قوة الا بالله ! وقال لذلك الرجل : لابد ان تقول لي مثلما قلت لك ـ فكبر ذلك على الرجل فلم يزل به حتى قال له مثلما قال ، فحينئذ طابت نفسه . »

ومن شعره ما كتب به الى بعض اخوانه يعرض له بشيء :

من كان يبغي الذل لنفسه   فليطلع النـــاس على فقره
ما للفتى ان عضه دهـــره   معولٌ أحسن من صـــبره

وله شعر كثير في معنى الزهد أورد منه المالكي قطعا .

وتوفي يوم الاثنين ١٨ ربيع الاول - وقيل الثاني - سنـــة ٣٤٢ هـ (٤ اغسطس ٩٥٣ م) ودفن بمقبرة باب سلم

لــــه :

كتاب « اقيسة الافعال » - وهو كتاب كبير على طريق الامالي جمعها بعض تلاميذه

مصـــادر :

الزبيدي ١٦٥ - المالكي ٢ : ١٩٣ - معالم الايمان ٣ : ٦١ - بغية الوعاة : ٢٢٥

يوسف القفصي

يوسف بن عبد الله القَفْصِي التميمي ، من أجلّ اهل زمانه معرفة باللغة واوضاعها ، وخبرة بالادب ورواية الشعر ، وعلما تاما باختلاف الآراء في الحديث واللغة ، مع حصافة عقل وزهـــد فيما يتنافس فيه

الناس من امور الدنيا ، يروي عن مالك القفصي ، غيره ، وقد اجتمعت كلمة اهل بلده على فضله وسعة علمه .

ومن بعض نظمه :

بعيشك أجساد أضرّ بها الكدّ	وطول السرى في الليل والليل ممتد
اذا رجّعوا فيه الحنين ورقّقوا	تجدّد وجد منهم دونه الوجد

وهي طويلة ، ومن طالع قصيدة آخرى له :

وما الدهر الا ليلة بعد يومها	ونجم تراه طالعا ثم آفلا
وقرن جديد خلف قرن ودولة	تعاقب أخرى لا يزلن شواملا

وتوفي بقفصة سنة ٣٣٢ (٩٤٣م) وقيل ٣٣٦ . وهو ابن اثنين وستين عاماً

لــــه :

« مناقضة ابي عبيد بن سلام وابن قتيبة » هكذا روى القاضي عياض ولم يزد ايضاحاً

مصــادر : المالكي ص ٧٦ . المدارك ٢ : ١٧٠

القـزاز

محمد بن جعفر القزّاز التميمي ، ابو عبد الله ، والقزّاز نسبة الى عمل القزّ وبيعه ، وكانت من الحرف الشائعة في افريقية .

مولده بالقيروان حوالي سنة ٣٤٥ ، وقرأ بها العربية على فحول نحاتها ولغوييها وبرع في العلوم ، ثم انتقل الى المشرق فاجتمع بأيمة اللغة والادب ، وفي مقدمتهم ابو علي الحسين بن ابراهيم الآمدي تلميذ ابن دريد والاخفش ، وحمل عنهم ، وقداورد لنا القزاز روايته في كتابه « ضرائر الشعر» حيث قال : « حدثنا ابو علي الحسين بن ابراهيم الآمدي ، قال حدثنا ابو الحسين علي بن سليمان الاخفش ، قال اخبرنا محمد بن يزيد المبرد قال ...»(ص ٦ ن ضرائر الشعر) كما اورد لنا تلميذه ابن رشيق سنده في رواية اللغة واخبار الشعراء حيث يقول في غير ما موضع من العمدة(١) : « أخبرنا ابو عبد الله محمد بن جعفر النحوي ، عن ابي علي الآمدي ، عن علي بن سليمان الاخفش ، عن محمد بن يزيد المبرد » ومنها : « انشدنا ابو عبد الله محمد بن جعفر النحوي عن ابي علي الحسين بن ابراهيم الآمدي عن ابن دريد، عن حاتم السجستاني عن ابي زيد الانصاري»

ومن هنـــا يتّضح لك كيف انتقلت رواية الأخبار والاشعار من جهابذة رواة المشرق الى ابناء افريقية والمغرب .

---

(١) العمدة ١ : ١٢١ و ٢ : ١٠٠ و ١٩١

واقام القزاز مدة ليست بالقصيرة في مصر ، كان في خلالها يخدم بعلمه وقلمه الامراء الفاطميين ولا سيما الأمير العزيز بن المعز لدين الله . روى ابن خلكان - بالنقل عن ابي القاسم بن الصيرفي - ان القزاز كان في خدمة العزيز بن المعز صاحب مصر وصنف له كتبا [١] .

وذكر الامير المختار المعروف بالمسبّحي في تاريخه الكبير [٢] : ان العزيز ابن المعز العبيدي تقدّم الى القزاز ان يؤلف له كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون من ان الكلام كله إسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وان يقصد في تأليفه الى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى ، وان يجري ما ألفه من ذلك على حروف المعجم ، فسارع ابو عبد الله القزاز الى ما امره العزيز به ، وجمع المتفرّق من الكتب النفيسة في هذا المعنى على اقصد سبيل ، واقرب مأخذ ، واوضح طريق .

ويظهر ان القزاز فارق مصر بعد وفاة مخدومه العزيز بالله - سنة ٣٨٦ - وعاد الى بلده ومسقط راسه القيروان واستقر به الى آخر حياته وتصدّر لتدريس العربية ، والادب ، فتخرج عليه مشاهير ادباء الطبقة الزاهرة حسبما يأتي .

وكانت طريقة القزاز في مجالس دروسه ان يلقى على طلبته

---

(١) ابن خلكان ١ : ٥١٤
(٢) الكتاب المذكور

مشكلات المسائل اللغوية ، ويطرح عليهم أبيات الشعر العويصة ويطلب منهم فك معانيها وتفسير الفاظها ، حكى ابن رشيق ، قال [١] : وحاجى شيخنا ابو عبد الله بعض تلاميذه فقال له :

أحاجيك عبّاد كزينب في الورى ولم تؤت الامن حميم وصاحب

فاجابه التلميذ بأن قال :

ساكتم حتى ما تحس مدامعي بما انهل منها من دموع سواكب

فكان معكوس قول ابي عبد الله : عبّاد كزينب (سرك ذائع) فقال الآخر (ساكتم) فاجابه على الظاهر اجابة حسنة ومعكوس ساكتم (منك اتيت) فكانه قابل به قول الشيخ ولم تؤت الا من صديق وصاحب .

ولا يخفى ما في سياق مثل هذه الفكاهات والملح الادبية في عرض الدروس وسيلة لتشحيذ قريحة الطالب وايقاظ همته من الملَل ، علاوة على ما في ذلك من المباسطة المحمودة والمؤانسة اللطيفة التي تربط ايما ارتباط التلميذ بشيخه .

ويؤكده ما مدحه به تلاميذه من القصائد الكثيرة ، فمن ذلك قول يَعلى بن ابراهيم الاربسي من أبيات :

---

(١) العمدة ١ : ٢١١ ومعجم الادباء ٦ : ٤٦٩

نسجت شعاعا بيننا منها فبتـ	ـنا جميعا تحت ثوب مـذهب
فمزجتها من فيـه ثم شربتها	ولثمته برضاب ثغر أشنب
في ليـلة للدهر كانت غرة	يرنو اليها الخطب كالمتعجّب
فتّ الأنام بها كما فت الورى	سبقا محمد بالفخار الاغلب
أبدا على طرف السؤال جوابه	فكأنما هو دفعة من صيّب
يغدو مساجلة بغـرّة صافح	ويروح معترفاً بذلة مذنب
فالابعد النائي عليه في الندى	يفتر كالداني اليه الاقرب

وكان القزاز معجباً بهذه الكلمة ويقول : مامدحت باحبّ اليّ منها.

واليك بعض مـا وصفه به تلميذه الكبير ابن رشيق حينما ترجمه في الانموذج ، قال : « فضح أبو عبد الله (القزّاز) المتقدمين ، وقطع ألسنة المتاخرين ، كان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصة النـاس ، محبوبا عند العامة ، قليل الخوض الاّ في علم دين أودنيا ، يملك لسانه ملكا شديدا .» ثم ذكر شعره ومنزلته من الأدب ، فقال : « وله شعر مطبوع مصنوع بما جاء به مفاكهة ومماحلة من غير تحقر ولا تحفل ، يبالغ بالرفق والدعة ، على الرحب والسعة ، أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني ، علما بتفاصيل الكلام ، وفواصل النظام » .

وساق له ابن رشيق في الانموذج مقاطيع كثيرة ، ثم قال : « وشعر أبي عبد الله أحسن مما ذكرت لكني لم اتمكن من روايته » كما اورد له

أبياتاً متفرقة في غضون العمدة ، وكلما ذكره فيها الا ويقول : قال شيخنا [١] مما يدل على عظيم اجلاله لاستاذه ورفيع منزلته عنده .

ولا غرابة ان عدّ القزاز أكبر إمام انبتته التربة الافريقية في اللغة والادب ، فان تعليمه العالي وتأثيره على طلبة العلم انتج غير واحد من مشاهير الادباء والكتاب البلغاء الذين فاخرت بهم البلاد التونسية في عصر فيض التمدن الاسلامي .

ولا بأس ان نذكر بعض الآخذين عنه ممن عرفوا بالادب الرفيع ، فمنهم الحسن بن رشيق وقد تقدمت الاشارة لاخذه عنه ، ومنهم يعلى بن ابراهيم الاربسي ، ومحمد بن شرف ، والحسن بن محمد بن الربيب ، قال ابن رشيق :« وكان شيخنا القزاز معنياً به محبا له فبلغ به النهاية في الادب وعلم الخبر والنسب » . ومنهم عبد الرحمن المطرّز الشاعر الظريف ،ومن كبار تلاميذه أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي المشهور في علم القراءات ، وسواهم كثير وسياتي ذكر غالبهم فيما بعد .

أما ما رواه الوزير السراج [٢] ان من تلاميذه الحسن بن صافي بن نزار المعروف بملك النحاة ، نقلًا عن وفيات ابن خلكان ، فهو عندي وهم واضح ، لانه ظن أن أبا عبد الله القيرواني الذي سماه ابن خلكان

---

(١) راجع العمدة ١ : ٤٨و٦٨و ١١٠ و ١١٥و ٢ : ٤٥ و٦٣ و ٦٩ و ٣٣٨

(٢) الحلل السندسية ص ١٠٢

من ضمن شيوخ الحسن بن صافي هو القزاز ، وهو خطأ بدليل ان ابن صافي ولد سنة ٤٨٩ ومات ٥٦٨ فلا يجوز ان يكون ممن أخذ عن القزاز [١] .

وتوفي القزاز بالقيروان عن سن عالية ـ قيل عن سبعين وقيل عن تسعين عاما والاول أرجح عندي ـ وذلك في خلال سنة ٤١٢ كما اثبته ابن رشيق .

وترك القزاز ابنا اسمه عبد الله سلك مسلك أبيه في العلم والادب .

ولا نعلم من أمره أكثر من كونه مات (بزويلة بني الخطاب) في أرض فزّان بصحراء طرابلس ودفن حـــنو قبر دعبل الخزاعي الشاعر المشهور [٢] .

ومن غريب الاتفاق ان في العصر نفسه كان يوجد بالقيروان شاعر آخر يلقب « بالقزّاز » لكنه يدعى « السنّاط » (أي النيّ لا لحية له) ، وكان كسميه يمدح بشعره الامراء الفاطميين ، ولا نعلم من خبره الا ما ذكره به ابن رشيق في العمدة [٣] حيث أورد له بيتا من قصيد في

---

(١) ابن خلكان وبغية الوعاة ص ٢٢٠

(٢) العمدة ١ : ٤٣

(٣) الكتاب المذكور ١ : ١٩٣

الامير تميم بن معد الفاطمي ، فوجب التنبيه عليه هنا حتى لا يقع اشتباه بين الشاعرين .

والقزّاز من التآليف :

١ ـ « جامع اللغة » ويسمي « الجامع » مجرداً ، معجم لغوي من أهم الكتب الكبار المختارة ، مرتّب على حروف المعجم ، قال ياقوت : هو كتاب كبير حسن متقن يقارب « التهذيب » لابي منصور الازهري . اعتمده سائر أصحاب المعجمات اللغوية الذين جاؤا من بعده كابن منظور الافريقي في (لسان العرب) ، والفيروزابادي في (القاموس المحيط) وغيرهما . ومن دواعي الأسف الشديد ان يضيع مثل هذا الاصل الثمين الذي يعدّه اهل الفن من اللغويين من الامّهات المعتمدة .

وذكر الصفدي كتاب [١] « الجامع » في ترجمة القزاز وقال : « هو كتاب كبير يقال انه ما صنّف مثله » ثم قال : « وفي وقف الفاضل بالقاهرة نسخة منه » فدلّ على ان « الجامع » كان موجوداً في عصره في مصر .

ويحتمل ان يكون المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية

---

(١) الوافي بالوفيات ج ٢ : ٣٠٤ ط اسطنبول سنة ١٩٤٩

تحت رقم ٣٤٣ [١] الغير المنسوب الى مؤلف لسقوط الورقة الاولى منه هو « الجامع » للقزاز ، فليحرّر .

٢ ـ « الحروف » في النحو ، وقد سبقت الاشارة الى سبب وضعه والى طريقتـه ، في عدة مجلدات ـ قيل في ألف ورقة ـ قال ابن الجزّار القيرواني : « وما علمت ان نحويا ألّف شيئاً في النحو على نحو هذا التاليف » وذكره أبو بكر بن خير من ضمن مروياته وكان يعرفه ، وجعله من كتب اللغة [٢] .

٣ ـ « الضاد والظاء » في ٣ أجزاء .

٤ ـ « التعريض ، فيما يدور بين الناس في كلامهم من المعاريض » كذا ضبطه ابن خلكان ، وسماه الصفدي وغيره « التعريض والتصريح » ولا أدرى ان كانا واحدا او هو كتاب ثان . في مجلد .

٥ ـ « ضرائر الشعر » ويسمى أيضا « ما يجوز للشاعر استعماله في ضرورة الشعر » . قال القزاز في مقدمته : هـذا كتاب أذكر فيه ـ ان شاء الله ـ ما يجوز للشاعر عند الضرورة من الزيادة والنقصان والاتساع في سائر المعاني من التقديم والتاخير ، والقلب والابدال ، وما يتصل

---

(١) فهرس دار الكتب المصرية ج ٢ ص ٢٩ (لغة)

(٢) فهرس أبي بكر بن خير ص ٣٦٢

بذلك من الحجج عليه ، وتبيين ما يمرّ من معانيه ، الخ . منه نسخة قديمة جليلة بدار الكتب بمصر (رقم ١٨٣٠) اخذت عن نسخة تلميذه عبد الرحمن بن عبد الله المعافرى المطرّز الشاعر القيرواني ، فرغ من نسخها في ١٠ ربيع الآخر سنة ٤٣١ ـ ومنه نسخة بالتصوير الشمسي في مكتبتي الخصوصية ، تخرج في ١٣٠ ص ، وما أحوج عالم الادب العربي الى طبع هذا الاثر النفيس الذى لايقوم مقامه أي كتاب من مؤلفات المتاخرين .

٦ ـ « اعراب الدُّريدية » وشرحها ، وهي القصيدة المشهورة بمقصورة ابن دريْد التى مدح بها الشاه ابن ميكال ، واولها :

أما ترى رأسي حاكى لونه　　طرّة صبح تحت أذيال الدجى ؟

٧ ـ « المثلّث » وقيل « المثلثات » في اللغة من وضع القزاز وليس هو شرح « المثلث » المشهور لقطرب النحوي كما زعم الحاجي خليفة في كشف الظنون (٢ : ٣٧٦) ويؤيد ما ذهبنا اليه ان أبا جعفر أحمد بن أبي الحجاج يوسف اللبلي الاندلسي ـ المتوفى بتونس سنة ٦٩١ ـ في شرحه المسمى « تحفة المجد الصريح ، في شرح كتاب الفصيح » اي فصيح ثعلب ، ينقل كثيرا عن « جامع اللغة » وعن « المثلث » للقزاز ، وكان هذا الكتاب الاخير في ملكه بخط مؤلفه ، فيقول: « قال القزاز في (مثلّثه) ونقلته من خطه » .

٨ ـ « شرح رسالة البلاغة » في عدة مجلدات، ولا ندري ماهي الرسالة.

٩ ـ « ما أخِذَ على المتنبيء من اللحن والغلط » في جزء .

١٠ ـ « أبيات المعاني في شعر المتنبي » جزء ، ينقل عنه ابن السيد البطليوسي في كتابه (الاقتضاب) وسماه «معاني الشعر »[1] ولا ندري ان كان هو كتاب آخر مستقل .

١١ ـ « أدب السلطان والتأدّب له» من نوع المحاضرات، في ١٠ أجزاء.

١٢ ـ « الحلى والشيات » جمع حِليــة ، وهي أوصاف الآدميين ونعوت أعضاء أبدانهم، « وكانه جعله خصيصا في نعت الرقيـق عند بيعهم وشرائهم ليستعين به الكتّاب والشهود عند كتب رسوم التملك للرقيق ، وهي رسالة غريبة في بابها ، قال في مقدمتها : ونحن نصف الغلام ليقاس عليه سائر الصفات من المتبائعين من الجند والرقيق وغيرهم » وذكره العبدري في رحلته ، وطبع في صيدا (الشام) سنة ١٣٤١-١٩٢٢ بعناية وتعليق طاهر النعساني وأحمد قدري الكيلاني .

١٣ ـ « العشرات » في اللغة ، ذكر فيـه اللفظة ومعانيها المترادفة ويزيد في بعضها على العشرة ، ونقل الصفدي ان في آخره قال القزّاز : « وعقيبها أجعَّز كتاب المثات » ومنه نسخة بمكتبة سليم أغا باسطنبول وفي دار الكتب المصرية، وطبع بصيدا سنة ١٣٤٤ .

ولا نشك ان للقزاز غير ماذكرنا من المؤلفات اللغوية والأدبية القيمة .

---

(١) الاقتضاب ص ٣٣٣

مصادر :

ابن خلكان ١ : ٥١٤ - الوافي بالوفيات - خط - و ج ١ ص ٣٠٤ من ط. اسطنبول ١٩٤٩ - معجم الادباء ٦ : ٤٦٨ - الدر الثمين في أسماء المصنفين - خط - بغية الوعاة ٢٩ - كشف الظنون ٢: ٢٨٦، ٣٧٦ بروكلمان ، ملحق ١ : ٥٣٩ .

ابن مرزوق

عبد الدايم بن مرزوق بن خير ، ابو القاسم ، من كبار علماء اللغة ورُواة الأدب ، ولد بالقيروان أوائل القرن الخامس ، ورحل صغيراً في طلب العلم الى المشرق وتجول في انحائه فدخل العراق وأخذ بالبصرة عن أبي الحسين محمد بن الحسين وهلال بن المحسن - في سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) - وتحول الى الشام فالتقى بأبي العلاء المعري وروى عنه شعره مباشرة ، وقصد مصر فقرأ على أبي الحسن الحوفي المشهور ، ثم عاد الى بلده بعلم جمّ ،وقدادخل اليه كثيراً من كتب اللغة والادب،واقام بالقيروان الى ان هاجمت الزحفة الهلالية البلاد فقصد حينئذ الاندلس ونزل بالمرية واشبيلية يبثّ العلم ، وقد اخذ عنه أعلام من رجالها منهم أبو محمد بن السيد البطليوسي شيخ اللغة ، وأبو جعفر محمد بن الحكم السرقسطي وغيرهما . أورد ابن السيد البَطَلْيوسي في كتابه «الاقتضاب»

روايته عنه بقوله : « وفي رواية ثعلبَ التي رويناها عن الشيخ عبد الدائم بن مرزوق القيرواني . . . »

ويعدّ عبد الدائم هذا أول من أدخل دواوين شعر المعري ـ مثل « سقط الزند » و « ضوء السقط » ـ الى المغرب ، وعنه يرويهما أهل أفريقية والاندلس .

ومات بالاندلس أواخر القرن الخامس .

وقد ورد اسمه محرفاً في كتاب الصلة لابن بشكوال (ص ٣٨٤) حيث جعله عبد الدايم بن مروان ـ بدل : مرزوق ـ وابن جبر ـ بدل: خير ـ واظن الغلط حصل من الناسخ أو من الناشر، فليتنبه .

ومن تآليفه :

« المكتفى » شرح ديوان المتنبيء ، نقل عنه ابن الابار في التكملة . و« حلي العلي » معجم في اللغة ، ذكره أحمد بن يوسف اللبلي الفهري في شرحه لفصيح ثعلب ونقل عنه في عدة مواضع من تآليفه ، وأكثر أبو حيّان في كتابه « الارتشاف » من النقل عنه .

مصــادر :

الصلة ص ٣٨٤ ـ التكملة (ملحق) ١٨٠و٤١٠ ـ بغية الوعاة ٢٩٦ ـ الاقتضاب ص ٢٦٧ .

ابن فضال الفرزدقي

علي بن فضال بن علي بن غالب بن جابر بن عبد الرحمن وينتهي نسبه الى همام وهو الفرزدق الشاعر المشهور، ولذلك يعرف ايضا بالفرزدقي، أبو الحسن المجاشعي من ابناء القيروان وفحول ادبائها المجيدين، قرأ ببلده ثم خرج يتجول في الافاق يغرب مرة ويشرق أخرى وذلك عند حدوث الزحفة الهلالية فنزل بغزنة من بلاد الافغان - والقى عصاه بها وصنف عدة تآليف باسماء أكابرها .

قال عبدالغفار الفارسي : « ورد نيسابور، واختلفتُ اليه فوجدته بحراً في علمه ما عهدت في البلديين ولا في الغرباء مثله في حفظه ومعرفته وتحقيقه ، فاعرضت عن كل شيء وفارقتُ المكتب ولزمتُ بابه بكرة وعشية » .

وحدث محمد بن طاهر المقدسي : « ان أبا الحسن بن فضال لما دخل نيسابور اقترح عليه ابو المعالي الجويني ان يصنّف باسمه كتاباً في النحو ووعده ان يدفع اليه الف دينار ، فحرره وسماه « الاكسير » وابتدأ بقراءته عليه ، فلما فرغ من القراءة انتظر أياماً ان يدفع اليه ما وعده أو بعضه فلم يفعل شيئًا ، فانفذ اليه يقول : « انك ان لم تفِ لي بما وعدتني هجوتك . فراجعه الجويني بقوله : - عرضي فداؤك ! ولم يصله بحبة واحدة ».

قال ياقوت : « وبلغني انه عُقيب ذلك ورد بغداد وأقام بها ولم يتكلم بعد في النحو »

دخل ابن فضال بغداد وانخرط في خدمة نظام الملك مع أفاضل العلماء ولم تطل أيامه حيث قضى نحبه .

وكان إماماً في النحو واللغة والتفسير والتاريخ ، بحراً زاخراً في الادب والبلاغة حتى قال فيه بعض معاصريه « انه من أوعية العلم الشاملة » .

وذكر السمعاني انه مات في ١٢ ربيع الاول سنة ٤٧٩ (يونية ١٠٨٦ م) ودفن بباب أبرز من بغداد .

وله شعر كثير مذكور في مجاميع الادب ، وأورد له ياقوت في معجمه مقاطيع عديدة فمن مشهور قوله :

وإخوان حسبتهم دروعاً فكانوها ولكن للاعادي
وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفتْ منا قلوب لقد صدقوا ولكن عن ودادي

وقولــه :

خذ العلم عن راويه واجتلب الهدى وان كان راويه أخا عمل زاري
فان رُواة العلم كالنخل يانعا كُل التمر واترك العود للنار

من مؤلفاته : في تفسير القرآن :

١ ـ « البرهان العميدي » وهو كتاب التفسير الكبير في ٢٠ مجلد
٢ ـ « الاكسير في علم التفسير » في علوم القرآن ، ٣٥ مجلد
٣ ـ « النكت » في القرآن
٤ ـ شرح بسم الله الرحمن الرحيم ، في اجزاء

في العربيــــة :

٥ ـ « العوامل والهوامل » في الحروف خاصة
٦ ـ « الفصول ، في معرفة الاصول »
٧ ـ « شرح عنوان الاعراب »
٨ ـ « المقدمة » في النحو
٩ ـ كتاب العروض
١٠ ـ معاني الحروف

في فنون الادب :

١١ ـ « اكسير الذهب في صناعة الادب » في ٥ اجزاء
١٢ ـ « الا شارة ، في تحسين العبارة »

١٣ ـ « شجرة الذهب ، في معرفة أيمّة الادب » قال ياقوت : « وقع الي منه شيء فوجدته كثير التراجم الا انه لا يعبأ بالوفيات والاعمار »

١٤ ـ « معارف الادب » كبير جدا في نحو ٨ أجزاء

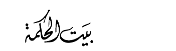
١٥ ـ « مدارج البلاغة » في الادب ، ذكره البغدادي في مقدمة خزانة الادب ولم يذكره غيره

في التاريـــخ :

١٦ ـ « الدول » قال ياقوت : « رأيت في الوقف السلجوقي ببغداد منه ثلاثين مجلداً ويعوزه شيء آخر »

وفي اعتقادنا ان لابن فضال مؤلفات أخرى لم تصل الينا اسماؤها ، ويدل عليه ما ذكر ياقوت بعد ما سرد مصنفاته إذ قال : « وله غير ذلك من الكتب في فنون من العلم » .

وقد خصصنا له ترجمة مستوفاة في حياته الادبية في غير هذا .



التونسي

أول جامعة افريقية

للعلوم



بيت الحكمة الافريقي

سبق لنا ان بحثنا ـ في غير هـــذا ـ عن حركة العلوم الشرعية فى افريقية وعن سيرها ومظاهرها وتطوراتها ، ويناسب الآن ان نتكلم عن أكبر مؤسسة وجدت قديماً في البلاد التونسية لدراسة العلوم الفلسفية والحسابيةوالفلكية والطبية وغيرها من الفنون الموصوفة بالرياضية .

ونبسط القول عما وصلت اليه معلوماتنا عن « بيت الحكمة التونسي » وما كانت عليه من النظام على حسب تقديرنا الخاص .

* * *

رفع التباس :

ظن بعض من وقـف على ترجمـة حياة (أبي اليُسر الشيباني) ⁽¹⁾ ان بيت الحكمة انما كان يحلّ مكاناً بين معاهد القيروان إذ كان من منشآت الامراء الاغالبة ، ولم ينتبه الى ان أفراد هـذه الأُسرة لم يكن مقامهم في عاصمة افريقية الكبرى ، وانما كان في (العبّاسية) من أول ولاية ابراهيم الاول ـ سنة ١٨٤ هـ . (٨٠٠ م) ثم سكنوا بعدها (رقّادة)

---

(١) التكملة لابن الابـار ، ط الجزائر سنة ١٣٣٨ ص ٢١٠ و ٢١١ ـ ونفح الطيب للمقري ، ط . مصر سنة ١٣٠٢ ج ٢ : ص ١١٥

منذ انتقل اليها ابراهيم الاصغر واتخذها مقر الامارة - سنــة ٢٦٤ هـ - (٨٧٨ م) وذلك قبل سقوط الدولة باثنين وثلاثين عاماً كما تــقدم لنا ذكره ، وكلنا يعلم ان هــذا الامير هو الذي أسس « بيت الحكمة » ولم يكن موجوداً قبل تسلّمه مقاليد الحكم ، كما نعلم انه كان مولعاً - أيما ولوع - بالعلوم الرياضية والحكمة ، وان اشتغاله بالفلسفة وما يتبعها من الفنون حمله على إنشاء هذه الدار ، وقد وجه عناية كاملة الى جلب علماء مختصّين من : كتّاب ماهرين ، وأطباء ومهندسين ومغنّــين من الممالك الشرقية أي من العراق ، والشام ومصر حسبما تراه بعد .

ومن حسن الطالع ان أيام ابراهيم الثاني في الحكم امتدت أكــثر من ربع القرن ، وان هذا العصر - أواخر القرن الثالث - هو العصر الذي نضجت فيه العلوم واكتست بالهندام العربي وتلوّنت بصبغته في أرجاء العالم العربي المتمدن ، كما نهضت فيه العلوم بانواعها وأصنافها الى الأوج العالي الذي ميزها به الطابع العربي عن غيرها من الحضارات الاخرى ، ومثل هذه المنشآت العلمية لم تكن لتظهر وتزدهر الا في حاشية الملوك والامراء ذوي الشان وتحت حمايتهم وعنايتهم المباشرة ، أو في قصور كبار رجال الدولة ذوي الثراء ليتسنى لهـا ان تعيش وتـدوم وتقوم بالرسالة التى انشئت من شأنها ، وذلك في سائر الاصقاع الاسلامية .

لهذه الأسباب كلها لم يكن انشاء بيت الحكمة الا في دائـرة الملك وتحت رعايته وصيانته ، أي في مدينة رقادة ، مـنزل الامراء من بـني

الاغلب وبجوار منازلهم ودواوين دولتهم . ثم انا لم نعـــثر على ذكر « بيت الحكمة » الافريقي الا في مدة ابراهيم الاصغر ومن جاء بعـده من الامراء ، اما قبل ذلك فلا خبرله على الاطلاق ، وقاعدة الملك كانت وقتئذ في رقادة الى آخر أيام الاغالبة وصدراً من أيام الفاطميين .

نظام بيت الحكمة

أشرنا في بحثنا الخاص عن معالم « رقادة » الى أن بيت الحكمة كان يحلّ مكانا باحد القصرين اما « الصَّحْن » أو « الفتح » وهما من محدثات الامير ابراهيم الثاني ، ولم يتيسّر لنا تعيين مقرّه بادق من ذلك ، وعسى الحفريات الجارية في أنقاض رقادة تكشف لنا ما يعيننا على تحديد مكانه بالتحقيق .

وقد يكون من الصعب أيضا ان نجزم ما اشتملت عليه هـذه الدار من نُظُم وأقسام ومحتويات ، والظن الغالب انها كانت تشابه سَمِيَّتها العباسية التي كانت وقتئذ في بغداد مع احترام النسبة بين الخلافة والامارة ، وغير خفي ان المؤسسة الافريقيـة أقيمت على غرارها في وضعها وتقاليدها ، ولو أن معلوماتنا عن بيت الحكمة البغدادي هي في نفس الواقع ضئيلة ولا تفيدنا كثيراً فيما تصبو اليه رغبتنا من المعرفة واليقين .

خزائن الكتب

وهنا نرخص لأنفسنا شيئًا من التخمين والتصوّر فيما يخص مؤسسة

رقادة ، والمتوقّع انها كانت تتركب من مجالس (قاعات) فسيحة ، وتقدّر عددها باربع أو خمس متصل بعضها ببعض ، وفي احداها مكتبة منضّدة في خزائن من خشب ، كل خزانة منها تحتوي على عــدد من الكتب المختارة المنسوخة على الرّق أو الكاغد ، ونبيّن هنا الى قلة استعمال ورق الكاغذ آنذاك لحداثة ظهوره بافريقية في العصر الذي نتكلم عنه من جهة، ومن أخرى الى ارتفاع ثمنه .

اما موضوعات هذه المجلدات وما تشمل من العلوم ، فانا لانشك انها كانت تتعلق بسائر العلوم الدينية الاسلامية وغير الدينية ككتب الجدل والخلاف، مما كان له رواج ملحوظ في ذلك الوقت شرقا وغربا ، كما تشتمل على المصنفات المترجمة من اللغات الاعجمية كاليوناني والسرياني والفارسي والهندي (السنسكريتي) ـ مما ترجم في الشام وفي العراق وفي الحيرة في آخر العصر الاموي وأوائل العصر العباسي ، لا سيما أيام هارون الرشيد والمامون والمعتصم والمتوكل ، مما له مساس بالفلسفة والمنطق والجغرافية والفلــك والتنجيم والطب والنبات والحساب والهندسة وما الى ذلك .

ولا يفوتنا ان ننبّه القاريء الى ان هذه العلوم الوضعية الحديثة الظهور في العالم العربي كانت غير مرموقة بعين الرضا من الفقهاء والمحدّثين ، عدى ماله اتصال مباشر بالموضوعات الشرعية كالحساب والهندسة ، فكان علماء السُّنّة أصحاب المدرسة القيروانية ينظرون اليها بتأفّف ،

وشيء من الاشمئزاز ، ولذا لم نرهـا تُدرس في مساجد القـيروان ، وانما استأثر (بيت الحكمة) في رقـــادة بالعناية بها وبدراستها ونشرها بين الراغبين فيها وهم كثيرون ، ومن هنا نشأ شيء من التنافر والتباعد بين مدينتيْ القيروان ورقّادة .

وفي يقيننا ان تلك هي العلّة التي حملت الكثير من أصحاب الطبقات ومؤلفي الـتراجم من القيروانيين على اهـــال أنباء « بيت الحكمة » والتعريف بمن كان يجلس به ويتردّد عليه من نبغاء معاصريهم .

جهاز بيت الحكمة

وقد عرفنا ان الامير ابراهيم الثاني كان يرسل في كل عام ـ واحيانا مرتين في السنـة ـ سفارة الى بغـداد لتجديد ولائـه للخلافة العباسية ، فكان يكلّف هـذه البعثـة بمهمة اخرى وهي اقتناء نفائس ما يوجـد في بغداد مما لانظير له في انحـاء المغرب ، ولهـذا الغرض كان يزوّد رئيس سفارته بالمال الوافر لاستجلاب علماء إخصائيين في سائر العلوم من العراق ومن مصر ، يُتفق معهم بما يرضيهم، وكذا لشراء نسخ الكتب العلمية ، لاسيا مؤلفات الحكمة من فلك وتنجيم لولوع الامير بها خاصة ، وليس من السهل ان نعرف الآن اسماء الكتب التي اشتمل عليها بيت الحكمة وعددها ، ولا يتيسر تقديرها ولو على سبيل التقريب ، وغاية ما نعلمه ان هذه المكتبة كانت من الاهميّة بمكان ، وهي التي ورثها الفاطميون عند استيلائهم على افريقية الاغلبية ـ سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) .

وقد أضاف الفاطميون اليها فيما بعد الشيء الكثير مما استنسخوه أو مما أهدي اليهم ، وفي نهاية الأمر نقلوها جملةً الى القاهرة المُعزّية لمّا امتلكوا البلاد المصرية - سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) .

ولنعد الى مقاعد « بيت الحكمة » فالظاهر أن قاعاته كانت مفروشة بانواع من الُحصر واللّبود الجميلة من الصنع المحلي ، وتتخللها طنافس (زرابي) مخصّصة لجلوس وجوه المطالعين ، وكبار الباحثين كالمدرسين ورجال الدولة ، ولا يخفى أن افريقية التونسية كانت آنذاك مشهورة بنسج الزرابي الوفيرة حتى انه كان يرفع منها جانب عظيم الى الخلفاء العباسيين من جُملة الخراج السنوي[١] ، واذا ما حضر الأمير مجلساً من مجالس الدروس والمناظرة نُصب له سرير (كرسي) يتربّع عليه لينصت الى المناقشات الدائرة ، حسبما يأتي ذكره بعد .

وبجانب خزائن الكتب كان يوجد - في أركان بعض القاعات - دولاب او دواليب تُحْفَظ فيها الآلات الفلكية لحساب سيْر الكواكب ورصدها : كالاسطرلابات والمقنطرات والجيوب وما يشبهها من أدوات البحث وتحقيق الاوفاق ، وضبط الأطوال والعروض ، مما يستعمل في علميْ الفلك والتنجيم ، ولا خفاء ان التنجيم أي الرغبة في استكشاف المغيّبات كان مما استهوى قديماً ميول الرؤساء والكبراء ، واستحوذ على شهوة ملوك المسلمين وغير المسلمين بالسواء .

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٧١ ، ط . مصر سنة ١٣٢٠

وبالجملة فـــان « بيت الحكمة » كان في آن واحد مجلساً للدراسة والمطالعة ، ومحلا لنسخ الكتب ومقابلتهـا على الاصول المعتمدة ، وكان مرخصاً للنسّاخ ان يحلّوا في اماكن معـدة لهم سواء أكانوا ينسخون لأنفسهم او لغيرهم بالاجرة ، كما يُسمح للمطالعين مراجعـــة المؤلفات النادرة في أوقات معينة ، وكذلكَ استعمال الآلات الفلكية التي لا توجد الاّ هناك .

ونعلم يقيناً ان هُوَاة المخطوطات كانوا يـاتون من القـيروان ومن غيرهـا لمطالعة الاصول الصحيحة المحفوظة في رقّـــادة ومراجعتها ، ويقيمون الأيام الطويلة في سبيل نسخها وتحقيقها . حكى ابن الوكيل المؤرخ القيرواني ، قال [١] :

« أبطـأ أبو القـاسم الوزّان عن شيخـه عبد الله المكفوف النحوي أياما كثيرة ثم أتاه ، فلامـه على تخلّفه عنـه تلك المـدة ، وقـال له : يا أبا القاسم ! نحن كنا سبب ما انت فيه من العلم ، وقـد علمتَ كيف كنتُ أخصّك وأوثرك على غيرك ، فلما صرتَ الى هذه الحال قطعتنا ؟ فقال له : أصلحك الله ! أعـذر ، فقد كنت في شغل . قال : وما هـو ؟ قال الوزّان : لي اليوم أكثر من شهر اختلف الى (رقّادة) الى قصر الأمير (زيادة الله الأخـير) أشكل له كتـباً وأصلحها ، فقال (المكفوف) :

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي ، ط . مصر ١٩٥٤ ص ٢٥٨

سررتني والله ، قال : بماذا سررتك ؟ قال : بما يكون من برّه ومكافاته على اختلافك اليه وتصحيحك لكتبه . »

اعوان بيت الحكمة

وكان يُشرف على نظـام الدار قيّمون مرتّبون مهمتهم السهـر على حراسة ما فيها ، ومناولة المطالعين ما يحتاجون اليه من الكتب المطلوبة وبرأس هؤلاء القيمين ناظر يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » ، وأول من تولى هـــذه الخطة أيام ابراهيم الثاني : (أبو اليُسر ابراهـيم الشيباني) المشهور بالرياضي كما سنبيّنه فيما يلي .

اسئلة عارضة

حيـنا كنت أبحث عن (بيت الحكمة التونسى) تواردت على الخاطر أسئلة ملحّة شغلت البال وقتا طويلا وقد حاولت الجواب عنها ، من ذلك :

ـ هل اعتنى آخر أمـراء الأغالبة ومن كان يعيش فى كنفهم من العلماء الرياضيين بترجمة بعض المؤلفات الأجنبية الى العربية ؟ كما حصل في بغداد في عصر الرشيد وأبنائه من بعده حينما اهتمّوا بنقل مصنفات الاغريق وغيرهم فى مختلف العلوم ؟ ـ واذا وقع ذلك بافريقية في الزمان

الذي تكلم عنه فمن أي لغة نقلوا ؟ - وما هي أنواع الفنون التي نقلوها الى لغتهم ؟ - ومَن هم التراجمة الذين باشروا هذه المهمّة ، وما كان جنسهم؟

قد يكون من الصعب الجواب عن هذه الأسئلة ، اذ أن المراجع التاريخية التي لدينا لم تزوّدنا بشيء من المعلومات عن هذه الناحية ، أضف الى ذلك ضياع جلّ المصادر المحلية القديمة لأخبار افريقية التي يتوقّع ان تكشف لنا الغطاء عن بعض المشاكل العارضة لنا اليوم ، ومن جملتها معرفة مآثر المتقدمين ، فلنحاول حينئذ تعويض ذلك بالاستنتاج والمقارنة بما كان موجوداً في الممالك الاسلامية المعاصرة ، واذا أعوزتنا هذه الطريقة فلنتخيّل على الاقل ما كان يجب ان يكون ، فان أصبنا المرمى فذلك المبتغى والاّ فقد نكون اجتهدنا ولم نصب ، كما يعرض لكل باحث ، وعلى مَن يأتي بعدنا ان يمحّص ويحقّق ان وجد الى حلّ تلك المشاكل سبيلًا .

بيت الحكمة والترجمة

تثبت المصادر التاريخية التي بين أيدينا ان الثلاثة الامراء من بني الأغلب : (ابراهيم الاصغر ، وابنه عبد الله الثاني ، وزيادة الله الاخير) كانوا يحسنون اللسان اللاطيني (١) المؤخر (La Langue romane) الدّارج في ذلك العصر في الممالك الافرنجية الغربية ، والرائج استعماله

(١) كتاب « طبقات علماء افريقية للخشني ، طبع الجزائر ١٣٣٢ ص ١٦٢

ايضا بين جانب من سكان افريقية التونسية الذين تمسّكوا ـ منـذ الفتح العربي ـ بمتقدهم المسيحي ، وقد حذق أولئك الامراء الثلاثة هذا اللسان حينا كانوا مباشرين ولاية صقلية ، وما منهم الا وقد أقام مدة طويلة بتلك الجزيرة ومارس في خلالها لُغة الشعب الذي تحت ذمته وراجع لحكمه ونظره ، فلا يستغرب ـ والحال تلك ـ من اهتمامهم بالمصنّفات المؤلفة باللغة اللاطينية ، ولا يستبعد ـ بل المتوقع ـ ان ابراهيم الاصغر ، وهو من هو ؟ أمير عالم ذكيّ المعيّ ، تعلّقت همّته بترجمة بعض المؤلفات اللاطينية المناسبة لذوقه وميوله ، لاسيا وانا نعلم انه كان يوجد في حاشيته جماعة وافرة من الموالي الصقليين ـ لا الصقالبة ـ الممتازين بالدراية والحنكة ، مثل الفتى (سوادة النصراني) والفتى (بلّاغ) ناظر دار ضرب المسكوكات ، و(شُكر) وغيرهم ، فانهم كانوا في صغرهم مسيحيين ، وجُلبوا من جزيرة صقلية ، ثم أسلموا وكُلّفوا ببعض شؤون الحكومة ما عدا الوظائف الحربية التي لا يتولاها الا مَن ينتسب الى البيت الاغلبي ، جرياً على القاعدة التي سنّتها دولة بني امية العربية ودأبت على اتباعها مدة خلافتها .

والظن الغالب ـ البالغ درجة اليقين ـ ان الامير ابراهيم الثاني تخيّر بعض المصنّفات اللاطينية في العلوم الرياضية التي اطلع عليها ، وكلّف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلّمين باللغة العربية ، وألحق بهم بعض علماء اللغة من الافريقيين ، وعهد اليهم مهمّة تنقيح عباراتهم

وسبْكها في قالب عربي صحيح ، رغبة منه في تعميم فائدتها ونشرها بين النـاس .

ومما يؤيد هذا الظن ما ذكره (حسن الوزّاني = Léon l'Africain) في رحلته المشهورة من انه راى في بلاد افريقية (تونس) ترجمة كتاب (بلينوس ـ Plinus) الروماني في علم النبات باللغة العربية ، ونعـلم يقينا ان هذا الكتاب المفيد جدا الذي نقل عنه العشّابون المغاربة كثيراً فيا بعد ، لم تقع ترجمته بالاندلس فى مـدة عبد الرحمن الثالث ولا في ايام ابنه الحكم الثاني كما يتبادر للذهن أول وهلة .

ولا يفوتنا ان نذكّر القارىء الكريم ان ما تُرجم من أمهات الكتب الأعجمية فى ممالك الشرق الاسلامي انما نقل عن اللغات التي كان لها رواج بالمشرق فى زمن الفتوح العربية : كاليوناني والسرياني والفارسي والهندي ، ولم نقف البتة على اسم كتاب واحد تُرجم من اللسان اللاّطيني اذ لم يكن منتشراً وقتئذ هنـاك ، اما بـلاد المغرب ـ من الاندلس الى آخر برقة ـ فان اللغة السائدة فيها سـواء فى الشؤون الرسمية أو في رسوم الديانـة هي اللاطينية خاصةً ، ولذا اضطر كثير من العرب الافارقة تعلّمها واتقـانها تكلماً وكتابة ، لما يفرضـه عليهم امتزاجهم بالعناصر المحلية ومجاورتهم المستمرة لبقايا الرومان والمسيحيين المقيمين فى بلادهم ، سواء كانوا فى الشمال الافريقى او فى الاندلس او فى صقلية .

ولهذا السبب نفسـه نجـد كل ما تُرجـم من المؤلفـات الاعجمية في

الاصقاع المغربية انما تُقل عن اللاطيني لاغير ، فلا غرابة - والحال تلك - ان يهتمّ مؤسس (بيت الحكمة) الافريقية وخلفاؤه بنقل ما كان سهل التناول لديهم مع الاستعانة فى التحقيق ببعض القساوسة الصقليين الخاضعين لسلطانهم ، ولا ننسى ان الثقافة عند الافرنج فى تلك العهود كانت مقصورة على الرهبان دون سواهم .

وقد عثرنا في المكتبة العتيقة المحفوظة في جامع عقبة بالقيروان على نسخة من ترجمة عربية لكتاب « تاريخ الامم القديمة » نُسِبَ وضعه الى القديس المسيحي (يرونيم الروماني - Saint Gérome) المتوفى سنة ٤٢٠ م . ولا ثاني لهذه النسخة فيما علمناء وقد رسم على هوامشها بعض كلمات بالحروف اللاطينية منها تسمية المؤلف اي (يرونيم) [١] .

وجملة القول ان مساعي امراء الاغـــالبة في توثيق العلاقات بين الشرق والغرب ، وفي ميدان الثقافة ونشر العرفان في ممتلكاتهم بالخصوص ، كان مجهوداً عظيم الشان ، قوي الاساس والبنيان ، قلما تأتّى مثله لغيرهم من الأُسرات المغربيـــة في عصرهم . ومن دواعي الاسف الشديد ان يجتهد الفاطميون - خلفاؤهم في الملك - في طمس معالمهم ،

---

(١) يراجع ما كتبه صديقي الاستاذ الكبير : جورجو ليفي دي لافيدا - في مجلة الاندلس الاسبانية سنة ١٩٥٤ ص ٢٥٩ ، ثم الفصل الممتع الذي خصصه لهذه الترجمة في الكتاب التذكاري للمستعرب - ليفي بروفنسال - المنشور في باريس سنة ١٩٦٢ - ص ١٧٥ وما بعدها ،

واخفاء أخبارهم ومزاياهم ، آملين من جراء ذلك الا يبقى الاّ صيت الفاطميين ، والاّ يكون الفضل الا لهم ، وقد بلغ بهم الاسراف ان ازالوا اسماء بني الاغلب المنقوشة على المعالم والرسوم وعوضوها بالقابهم ونسبوها لانفسهم [1] وتابى الابحاث الاثرية الا ان تفضح عملهم وترجع الفضل الى ذويه (ويحق الحق ، ويزهق الباطل) . على انا لا نريد من قولنا هذا استنقاص مزايا ملوك الفاطميين وما كان لهم من العناية الكبيرة بشأن العلوم وبثها في الاصقاع الافريقية وتنشيطهم لحركة التاليف والادب والفنون .

لكن الحقيقة التي لامراء فيها انه لولا الجهود الجبّارة والمساعي المتتابعة التي بذلتها الاسرة الاغلبية طوال مدّتها ، بعزيمة صادقة واخلاص نادر ، لتكوين دولة عربية شامخة ذات شوكة قوية ونُظُم إدارية متينة في اصولها وفروعها ، ولاسيا تفرّدها باسطول عتيد لم ير

---

(١) جاء في « رياض النفوس ج ٢ مخطوط ص ٣٢ - وكذا في غيره من كتب التاريخ والتراجم : « وأمر عبيد الله (المهدي) أن تزال من الحصون والمساجد أسماء الذين بنوها وأمروا بها من السلاطين ، وان يكتب اسم المهدي . . بدلا منها » ومنذ ألف سنة يصرخ الجاحظ باعلى صوته قائلا : « من شأن الملوك أن يطمسوا آثار من قبلهم ، والعمل على إماتة ذكر أعدائهم ، فقد هدموا لهذا السبب المدن والحصون ، وهكذا كان الحال أيام العجم وايام الجاهلية ثم في الاسلام . . فقد هدم بنو العباس ما بناه بنو أمية وبنو مروان من المدائن والمصانع بالشام » كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ٣١ . .

العالم الاسلامي مثيله في البحر المتوسط ، قلت لولا ذلك كله لما تسنى لعبيد الله المهدي وابنائه الفاطميين من بعده إنشاء امبراطورية ضخمة امتدّ سلطانها من الغرب الى الشرق في مدة وجيزة جدا ، وما ظهر من السؤدد والهيمنة لتلك الامبراطورية انما كان نتيجة لما ورثته من مؤسسات سالفيها الاغالبة وفتوحاتهم ، والله يؤتي الملك من يشاء .

* * *

انقرضت دولة بني الاغلب التميميين وامتلك عبيد الله المهدي افريقية ، وحلّ هو ورجاله في قصور (رقّادة) ودُورها ، وقد اتخذ دَاعِيه الكبير (أبو عبد الله الصنعاني) «بيت الحكمة » محلا لمجالس الدعوة الاسماعيلية ومناظرة علماء السنّة القيروانيين . ومن حسن الحظ ان نقل الينا الاخباريون صورة واقعية لمجالس الجدل الدائرة بين الطرفين، وهي نحو الاربعين مجلسا تقع مرة في كل أسبوع ، يُستدعَى لها مشاهير المتكلّمين من اهل القيْروان ، ويدور جدَلها حول مفهوم بعض النصوص الدينية في العقائد وخصوصاً في مسألة الامامة والتفضيل ، يعارض كل فريق بما أوتي من بيان وحجة .

وكان لشيخ السنة المتكلّم القيرواني المشهور (ابي عثمان سعيد الحداد) الظهور الكامل في الردّ على مفهوم الاسماعيلية في تفسير آيات معيّنة من القرآن وبعض الاحاديث النبوية وفي سيرة الرسول وعمل أصحابه .

ثم تعطلت هذه المناقشات وتوقفت المناظرات بعد قتل الداعي الصنعاني ولم تعد تجتمع الى حين انتقل عبيد الله الى سكنى مدينة المهدية التي انشأها ـ سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) ـ وهو آخر عهد لازدهار رقّادة ومعالمها ، ومن جملتها بيت الحكمة .

والذي يجب ان نشير اليه هو ان المناقشات الدائرة في « بيت الحكمة » التونسي بين دُعاة الاسماعيلية وعلماء السُّنّة تحوَّلت بعد فتح مصر الى القاهرة المعزية ايام المعز لدين الله الفاطمي وخلفائه ، ولا سيما في مدة ابنه (العزيز بالله) وحافده (الحاكم بأمر الله) حيث انشأوا « دار العلم » للغرض المتقدم ، أي لبث الدعوة ونشر أصولها بين طبقات الامة المصرية بواسطة دُعاتهم المدرَّبين ، ولم يكن تأسيس هذه الدار الجديدة الا لهذا الغرض وليس لتنشيط العلوم ونشر الثقافة كما هو المقصود الاول من بيت الحكمة البغدادي وسميّه التونسي . ويؤيد ما ذهبنا اليه ان صلاح الدين الايوبي لما افتكّ ملك مصر من الفاطميين وعزم على تعطيل المذهب الاسماعيلي أمر بهدم « دار العلوم » الفاطمية وأنشأ مكانها مدرسةً للشَّافعية أي لعلوم السنّة خاصةً ، وقد أطال المقريزي في بسط الكلام عن ذلك في خِطَطه ، فليراجع في محله .

ولزيادة الفائدة نقول ان « دار العلم » المصرية غير خزانة العزيز بالله للكتب ، ولا هي خزانة المخطوطات التي كانت توجد داخل القصور كما توهّمه بعض المؤرخين ، بل ان « دار العلم » كانت تحلّ

مكاناً خاصا يقع بجوار (القصر الغربي) من قصور الفاطميين بالقاهرة المعزية ، نبّهنا على ذلك لئلا يحصل التباس لمن يبحث عن هذه المؤسسات

انتشار صناعة الكاغذ

« الكاغذ » كلمة صينية تسرّبت الى اللغة العربية حينما أخذ العرب صناعة الورق عن سكان الصين في أواسط القرن الثاني للهجرة وقلّدوا عمله عنهم في خبر طويل ليس هذا محله ، وقد حافظ أهل المغرب عموماً على التسمية الصينية ، أما في الممالك الاسلامية الشرقية فصار ينعت باسم الورق .

ولا ريب عندي ان ورق الكاغذ كان يصنع في القيروان وفي رقّادة ، نقلتْ اليها طريقة عمله من بغداد ومن مدينة الفُسطاط فى خلال القرن الثالث ، ومن القيروان تحوّلت الى (بَلِرْمُ Palermo) عاصمة صقلية الاغلبية ، ثم تسربت صناعته الى جنوبي بلاد ايطاليا مثل مدينة (ساليرنو Salerno) وخصوصا (فابريانو Fabriano) ومنها الى إمارات جرمانيا في قلب أروبا ، مما ساعد على اختراع فن الطباعة في المانيا بعد حين ، ومن المسلّم انه لولا وجود ورق الكاغذ لما تيسر السبيل لهـذا الاختراع الذي كان سبباً أصلياً في نهضة الممالك الأُروبية.

يهمّنا من هذا ان ظهور الكاغذ العربي في صقلية وفي جنوب ايطاليا تمّ قبل ان يجتاز جبال البرانس (البرينات) ويدخل الى فرنسا عن طريق

المغرب الاقصى (مدينة سبتة) ومن الاندلس (مدينة شاطبة Xativa) بمائة عام على أقل تقدير .

وفي المكتبة العتيقة بجامع القيروان نماذج قيّمة من هذا الكاغذ القديم، مما يسمح بالجزم بانه صُنع في القرن الثالث للهجرة في القيروان أو في رقّادة أو في المهدية ، أشرنا الى هذا من باب الاستطراد واتماماً للفائدة ، وقد خصصنا لموضوع الكاغذ في حركة انتقاله وفي صنعه واستعماله بحثاً مستقلا في غير هذا المقام .

وقد اشتهر غير واحد من التونسيين في صناعة ورق الكاغذ طيلة ثلاثة قرون - الثالث والرابع والخامس هـ - ونسب اليها جماعة كبيرة كانوا ينعتون بالورّاقين ، من بينهم : (ابراهيم بن سالم ويعرف بالورّاق الافريقي) فانه ولد بمدينة تونس ودرس في القيروان ، وأتقن صناعة (الورّاقة) حتى تلقّب بها ، وباشر مهنته للامراء الاغالبة في رقّادة ، وبعد سقوط دولتهم تحوّل الى الاندلس واستقر بقرطبة واتصل بالخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله، فالحقه بحاشيته ورتب له جراية مناسبة، وكان الورّاق شيخاً صالحاً ذا همة عالية وفيه شَمَمٌ معروف ، قيل ان الامير الحكم أراد امتحانه فهدّده بقطع جرايته ، فكتب اليه ابراهيم برقعة تحمل بيتين :

تزيد على الاقـــلال نفسي نزاهة وتأنس بالبلوى وتقوى مع الفقر
فمن كان يخشى صرف دهر فانني آمنت بفضل الله من نُوَبِ الدهر

فاسترضاه الحكم وزاد في جرايته ـ وتوفي الوراق عن سن عالية في خلال القرن الرابع (١)

ومنهم محمد بن يوسف المشهور بالورّاق الذي تحوّل بعد اتقانه للعلوم والفنون في افريقية الى بلاط الاندلس ، وانخرط في سلك العلماء المؤلفين لحاشية الحكم الثاني بقرطبة ، واليه ألّف جملة كتب في جغرافية بلاد المغرب ، مع اشتغاله بالورّاقة الرفيعة (٢) .

ومما تقدم يتضح أن « بيت الحكمة » الافريقي انما أنشاه أمراء بني الاغلب بنية نشر الثقافة العالية في غير المادة الدينية التي كانت دراستها موقوفة على جامع عقبة وعلى كثير من مساجد القيروان وغير القيروان، وفي دور الفقهاء والمحدّثين .

بيت الحكمة والفاطميون :

وبمجرد سقوط دولة الاغالبة سكنت حركة (بيت الحكمة) في رقادة ، وخفى صوته وتعطلت رسالته الثقافية ، وذلك بسبب محاولة ملوك بني عبيد الفاطميين حمل السكّان على اتباع نحلتهم الاسماعيلية، فبعد أن عُقِدت المجالس الجدلية التي دارت في ارجائه عقب حلول عبيد الله المهدي وقد سبقت الاشارة اليه ، نَفَرَ سكّان القيروان ،

---

(١) التكملة لابن الابار ط : الجزائر ص ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه .

المتمسكون أشد التمسك بمذاهب السنّة وخاصة بآراء أهل المدينة أي مذهب مالك بن أنس وأصحابه ، نفروا من الاختلاط برجال الدولة الجديدة ، وهجروا رقّادة ، وقاطعوا كل من يقصدها ويلجأ اليها ، اعلاناً منهم على تعلقهم باذيال السنّة وتمسّكهم المتين بها ورفض ما سواها من النِحَل والنزعات .

ومن ذلك الحين تعطلت المهمّة التي أنشئ من أجلها « بيت الحكمة » أعني تثقيف نخبة صالحة من الباحثين في العلوم الفلسفية والرياضيات ، ومن المؤسف ان لم يعوّض فيا بعد بغيره ، وقد عفى عبيد الله حينما حول مقرّدولته الى مدينة (المهدية) ، التي بناها على ساحل البحر ، عن معالم رقّادة ومعاهدها ـ ومن ضمنها « بيت الحكمة » فصار أثراً بعد عين ، ولم يبق سوى رنين صداه ، والبقاء لله !..

إشعاع بيت الحكمة

وهكذا تنتهي رسالة « بيت الحكمة » التونسي بعد أربعين عاماً من تأسيسه ، غير أن مأثرته الثقافية لم تنضو بعد ، بل ان الكثير من روّاده وخرّيجيه تفرّقوا في أطراف البـــلاد وحملوا شعلته الى الافاق المغربية البعيدة مثل مدينـــة (فاس) وخصوصاً مدينة (قرطبة) بالاندلس حيث زها شعاعه في حاشية الامويين ، فاشرق أيما اشراق في دولة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، مصداقاً لقول الله تعالى :

(فاما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

* * *

بيت الحكمة والنهضة الاروبية

والامانة العلمية تفرض علينا أن نعدّ من المزايا الكبرى لبيت الحكمة الاغلبي انه أوجد النّواة الاساسية للمدرسة الطبية المشهورة في تاريخ العلوم « بالمدرسة القيروانية » التي انتشر تأثيرها مدة ثلاثة قرون متوالية ، ومنها انبثقت حركة التعليم والتأليف في المادة الطبية في عموم بلاد المغرب ، ثم انتقلت كتبها ونتائج أبحاثها الى جنوب ايطاليا حيث أنشأ الملوك النرمنديون دير (مُنْتِي كاسِّينو : Monte Cassino) ، وكان أول مُشرف على ادارته وسيره قسيس مسيحي يسمىَ (قسطنطين الافريقي : Constantino Africano) وقـــد ولد بقرطاجنّة تونس ـ سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) ـ وقرأ بالقيروان في زمن المعز ابن باديس الصنهاجي ، وأتقن اللغة العربية وتتلمذ لمشاهير الاطباء ، واطلع على جانب وافر من مؤلفات الطب ، ثم سافر الى مصر على عهد الفاطميين واكمل معرفته في العلوم الرياضية ، ثم تحول الى صقلية حيث احتضنه ملكها النرمندي وأوكل اليه رياسة رُهبـــان الدير المذكور ، فتصدى قسطنطين لدراسة كتب الطب الافريقية وترجمتها الى اللسان اللاطيني واعتمـــد عليها ـ هو ورفقاؤه ـ لنشر علم الطب ومناهجه في جامعة

(سالبرنو : Salerno) ومن هناك تسرّبت تلك التعاليم وترجمات كتب الافريقيين وغيرهم الى جامعات (نابولي : Napoli) و (بولونيا : Bologna) و (بادوفا : Padova) ثم أخذت طريقها الى غيرها من المعاهد العلمية ومدارسها في شمال ايطاليا وإمارات جرمانيا ، فكان ذلك من أقوى الأسباب لانطلاق النهضة العلمية في قلب ممالك أوروبا وظهور نشاطها في خلال القرون الوسطى .

وقد ترجم القسيس (قسطنطين الافريقي) المتوفى سنة ٤٨٠ هـ - (١٠٨٧م) جملة من كتب الطب الافريقية ، نخصّ بالذكر منها :

كتاب (المالنخوليا : Melancolia) للطبيب اسحاق بن عمران في وصف أمراض الوسواس ، ويعرف ايضا بالمرض السوداوي ، وطريقة معالجته ، نقله قسطنطين الى اللاطينية في ترجمة ضعيفة جدًّا

وكتاب الحُمِّيَات (Liber de febribus) ، وكتاب البَول (Liber de urinus) ، وكتاب العَنَاصر (Liber de elementis) وكتاب (الحدود والرسوم Liber de definitionibus) ومعها سبع مقالات أخر من وضع الطبيب اسحاق بن سليمان الاسرائيلي القيرواني ، وطبعت الترجمة اللاطينية في مدينة ليون سنة ١٥١٥ م بعنوان (Opera Isaci)

كتاب « زاد المسافر وقوت الحاضر » للطبيب احمد بن الجزار القيرواني ، وهو من أشهر تآليفه العديدة ، واسمى قسطنطين ترجمته (Peregrinantis Viaticum)

كما ترجم أيضاً مصنفات افريقيـة أخرى في غير الطبّ ، مثل كتاب « البارع » فى الفلك والنجوم من وضع الكاتب علي بن أبي الرجال الوزير الافريقي ، وغير ذلك مما يطول تعداده .

وهذا المقدار يكفينا شاهداً للـدلالة على ما كان من الاثر العميق للمدرسة الطبيـة القيروانية ـ وليـدة بيت الحكمة الاغلبي ـ على البعث الظاهر في النهضة الثقافية في بلاد الافرنج في القرون الوسطى وبعدها.

المناظرات في بيت الحكمة

يفيدنا مؤلفو التراجم من الافريقيين أن الاغالبة كانوا يعقـدون مجالس علمية للمناظرة بطريقة الجَدَل والكلام، ويقع الاجتـماع في قصور رقّادة . ولا أخالها تقع الا في قاعات «بيت الحكمة». وقد يستدعي الأمير الى حضورها مشاهير العلماء من القيروان ، فمن فقهاء السنّة المقلدين لآراء اهل المدينة ـ مذهب مالـــك ـ ومن المتمسكين باراء اهل العراق ـ مذهب أبي حنيفـة ـ ومن المعتزلين المعدودين وغيرهم .

وقد نقل الينا صاحب « رياض النفوس » صورة مجلس مناظـرة عقده الامير ابراهيم الثاني، وقع الخوض فيه في مسألة « خلق القـرآن » ولا يخفى ان هذه المسالة ـ أو المحنة كما يسمونها ـ كانت أثيرت باد يء بدء فى بغداد في خلافة المأمون ابن الرشيـد ، وصارت الشغل الشاغل

لأفكار علماء الاسلام مـــدة غير قصيرة حيث امتدت الى ايام المعتصم والواثق بالله ، كما هو مبسوط في التاريخ ،

ومن بغداد انتقلت الى الآفاق الاسلامية فمن الشام الى مصر وأثارت من الخلاف والنزاع بين المتكلمين مـا هو معروف مدوّن ، ثم هي تظهر في المغرب ويتلقفها الفقهاء والمتكلمون والمعتزلة كل حسب نزعته، ويتدخّل في لجاجها الامراء والكبراء ، ويتفشى النقـاش فيها الى ان يـنزل الى طبقة الشعب وتذهب فيها أفكار العامة كل مذهب ، ولم ينطفـئ لهيبها الا في خلافة المتوكل على الله العباسي .

ونورد هنا ـ نموذجاً لتلك المناقشات ـ مما رواه أبو بكر المالكي [١] عند التعريف بأبي عثمان سعيد الحداد ، كبـير المناضلين عن السنّة ، قال المالكي : « وكانت له مجـالس كثيرة مع أهل العراق (يعني الاحناف) القائلين بخلق القـرآن من اهل القيروان » وأنا اذكر منها مجلساً واحداً ليستبين الناظر في هذا الفصل موضع سعيد بن الحداد من العلم وقيامه بالحجة لاهل الحق (يعني أهـل السّنـة) ، فمن ذلك مجلسه مـع الامير ابراهيم (الثاني)

قال سعيـد ـ رحمه الله ـ : دخلت على ابراهيم وكان حاضراً للمجلس (عبد الله بن هـارون بن الكوفي) وهو قاضيه يومئذ، و (عبـد الله

---

(١) رياض النفوس ج ٢/٣٧ وما بعدها (مخطوط)

ابن الاشج) وجماعة كبيرة، فلما دخلت عليه أومى اليّ ، ولم أقبّل له يداً ولا لغيره قط ، وأدناني حتى لصقت الى سريره ، ثم أخذ بعض « النافية » وهم القائلون بخلق القرآن ، فقال : ايها الامير ، كثر التشبيه وفشى بالقيروان ، وقال قائلون كذا ، وقال آخرون كذا ، فقال أبو عثمان (سعيد الحداد) : « صرّح باسم النافي ، وكنّيتُ أنا - إجلالاً لله عز وجل - عن تشنيع أهل التعطيل على اولي السنّة ، وعلمت انه انما اراد ان يحرك بذلك الامير الى أمر يتصل به السبيل الى كيد السنّة وإماتتها ، - فقلت له : أيها الامير ! ان ما استفاض من الخبر وانتشر دخل على البكر في خدرها ، والبدوي في بدوه ، فكيف بن حضر ، فليشر - ايها الامير - الى رجل . - فقال : ذلك من جميع البرايا ، فان لم يفعل فاعلم مقامه - فقال له الامير : أذكر واحداً ، قال (ابن الاشج) سوف اطلب ذلك - قال أبو عثمان ، فقلت له : « طلبناك بذكر ما سلف الى أن ضرب بطلبه في التوقيف - قال الامير : منادياً ينادي ان لايتكلم احد في الكلام ، قال (سعيد) فقلت : « ايها الامير الناس هادون ، ساكنون ، فمتى ناديتَ حركت ساكناً »

قال : ثم جرى ذكر تكلّم الله تعالى لموسى عليه السلام - فقلت : - من سمع موسى الكلام ؟ - قال ابن الأشج : من الشجرة ، - قلت : من ورقها او من لحائها ؟ - قال ابو عثمان : - ووالله ما درى احد من أهل المجلس مرادي فيا ظهر لي ، الاّ الامير ، فبدر فقال لابن الاشج : أسكت ويلك ! - خوفاً ان يجيب فَيَجِبُ عليه الكفر - قيل لابي

عثمان : وما أردت. أصلحك الله . بهذا الكلام ؟ فقال : لانه كل من صرح فقال بأنه من الشجرة على الحقيقة كفر ، وزعم ان الله لم يكلم موسى وانه لم يفضله بكلامه ـ قال أبو عثمان : ـ ثم حوّل اليّ الامير وجهه وقال لي : أقول لك كما قلت لابن طالب ، لا أقول مخلوقاً ولا غير مخلوق ، ـ قال (أبو عثمان) فقلت له : لِمَ ؟ . قال : ـ لان الله تعالى قال كلامي، ولم يقل مخلوقاً ولا غير مخلوق ـ فقلت له : ـ فان قال غيرك مثلما قلت في علم الله ؟ فقال : ان الله لم يقل مخلوقاً ولا غير مخلوق ، وسلك في العلم مسلكك في الكلام ، قال (أبو عثمان) : وَلِمَ ؟ قال الامير : لانه لو كان مخلوقاً قبل ان يخلق العلم لكان جاهلاً ، لان ضدّ العلم الجهل ، فقلت له : فكذلك لا يقال في الكلام مخلوق لانه لو كان مخلوقاً لكان موصوفاً قبل خلقه بضده وهو الخرس ، وما لزم في العلم لزم مثله في الكلام ، ودليل آخر : ان العلم لا يعدو إحدى منزلتيْن : اما ان يكون صِفَة فعل كان من الله عز وجل ، فمن شك في خلق ذلك فهو كافر ، ومن شك فلم يدرِ ذلك مخلوق او غير مخلوق فهو كافر ، والكلام لا يعدو هاتين المنزلتيْن ، فالواقف شاهد على نفسه بانه تارك للقول بالحق حتماً ـ قال (أبو عثمان) : فتبسم الامير وبيّن لي انه فَهِم ما كلمتُه به ، وابن الاشج يكّرر القول ويبديه ، يريد القول بالوقوف. فاقبل عليّ الامير ابراهيم وقال لي : ـ أقول لك ما كنت أقول لابن طالب : ـ أنت لا تضطرني الى مذهبك ، وانا اضطرك الى مذهبي قال أبو عثمان : ـ ثم اخذ ابن الاشج في مدح اهل العِرَاق (اي

الاحناف) ويفضّلهم على أهل الحجاز (اي المالكية) فقال : ـ لقـد قال (أسد بن الفرات) : ـ سألت مالكاً فاجابني ، وسألته عن اخرى فاجابني ، ثم سألته عن مسألة اخرى فاجابني ، فقال لي رجل كان واقفـاً على رأس مالك ـ رضي الله عنه : « ان اردت التشقيق فعليك بالعراق ! »

فقلت : ايها الامير ، هذا (يعني ابن الاشج) واصحابه يزعمون ان ابا بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ اذا انفرد بخـبر عن رسول الله ـ ﷺ ـ لم تقم به حجة ، وان عمر اذا أنفرد بخبر لم تقم به حجة ، وان عثمان وعلياً كذلك اذا انفردًا بخبر ، وها هو ذا يريد ان يقيم الحجة في تفضيل اهل العراق على اهل المدينة بخبر رجل لا يعرف من هو من جميع البرايا .

« قال ابو عثمان : فما نطق ابن الاشج ولا اصحابه بكلمة غير قوله : ـ ويحك ! ـ كانه يريد دون هذا ، على تعظيم الامير .» اي لجلالة مقام الامير .

* * *

وحدة الثقافة الاسلامية :

ومما تقدم يتبيّن ما كان يظهره الامراء من بني الاغلب من الحرية الكاملة في المناظرات والمناقشات مثلما اتصف به الخلفاء العباسيون في

مجالسهم العلمية وقد حرصت على إيراد النص المتقدم بكماله لكي أدلل على سرعة انتقال المجادلات الكلامية والخلافات المذهبية من دار الخلافة ببغداد الى النوادي التونسية على بُعْدٍ ما بينهما من المسافة ، ويؤيد ذلك بالتأكيد ما أثبته الخشني في طبقاته عندما ترجم لاحد متكلمي القيروان المعاصرين له ، وقد مرّ اسمه في الخبر السالف ، قال الخشني (١) :

« وعبد الله بن الاشج كانت له رحلة ودخل العراق ، وكان من أهل المناظرة والجدل ، سمعت من يذكر عنه انه لما قدم من بغداد دخل عليه أحداث القيروان للسّلام ، فقال لهم : ـ ما الذي يتكلّم فيه أهل القيروان اليوم ؟ ـ فقيل له : في الأسماء والصفات ، فقال : انما تركت الناس بالعراق يتواقفون في مسألتيْن : مسألة القدر ، ومسألة الوعد والوعيد »

وفي ترجمة ابي اسحاق ابراهيم المعروف بالعمشاء وهو من المتكلمين المعدودين ايضا ممن قرأ في العراق كصاحبه المتقدم ـ يقول الخشني (٢) :

« ومن اعلام رجال الكلام في القيروان : أبو اسحاق ويعرف بالعمشاء ، يذهب الى خلق القرآن ويناظر فيه المناظرة الشديدة ، وله في ذلك داعية،وله لَمَّة واصحاب واحزاب في ذلك،يجالسونه ويختلفون

---

(١) طبقات علماء افريقية ط الجزائر ص ٢٢٠

(٢) المصدر المذكور ص ٢٢١

اليه ، صحب ابن عبدون القاضي وغيره من رجال العراقيين ، وهو اليوم على هذه الحال (سنة ٣١٠ هـ ٩٢٢ م)

وانما سقت هذين الخبرين الاخيرين على سبيل الاستطراد وللدلالة على انتشار طريقة المجادلات الكَلامية في الوسط الافريقي - في رقادة والقيروان - مثلما كان جارياً وتتشذ في العراق وفي سواه من الاقطار العربية الشرقية اذ ان الثقافة الشائعة فيها جميعا انما كانت ثقافة واحدة، مستمدة من اصل واحد في تعاليمها ومظاهرها وتقاليدها .

وكنت أحصيت العلماء الافارقة من أهل الكلام والجَدَل في خلال القرن الثالث وأوائل الرابع فبلغ بي الاحصاء الى نحو الثلاثين متكلّماً ، كما عددتُ من المعتزلة في العصر نفسه ما يقارب العشرين رجلاً ، أتيت على أخبارهم ومواقفهم وأسماء مصنفاتهم - ان كانت لهم - في غير هذا المقال [١] .

---

(١) ضمن فصول تأليفنا « كتاب العمر » المعد للنشر ان شاء الله .

الفصل الثاني

تراجم علماء بيت الحكمة

رأينا من المناسب ونحن نؤرخ لبيت الحكمة ان نلم بتراجم المشاهير الذين قاموا بتدريس العلوم بـه ، او الذين يتـوقّع انهم كانوا يتردّدون عليه من العلماء والحكماء والادباء ، وذلك بقدر ما تيسّر لنـا معرفة اتصالهم به وانتسابهم اليه .

ونبتدىء بتعريف مختصر للثلاثة الامراء من بني الاغلب وهم الذين اجتهدوا في تأسيسه . وسهروا على إعداده والقيام بنفقاته ، وحرصوا طوال مدتهم على بقائه حيًّا نامياً الى ان بلغ درجـــة الازدهار وآتى أكله الشهي النافع .

ثم ننتقل الى طبقـة الوزراء ورجال الدولة الذين أنعشوا حركته وحضروا بأنفسهم مجالسه، ثم نشير الى اعلام الحكماء الذين قاموا بتدريس الطب والفلسفة به حتى علا صيته وانـتشرت تعاليمه مع مصنفاتهم في غير البلاد التونسية ، ونختم الفصل بتراجـم مختصرة للاساتذة الادباء

الذين بثوا بين طلّابه فنون الترسّل ورواية الدواوين المنقولة عن فحول الكتّاب والشعراء المعاصرين بالمشرق ، ومن ذلك كله يتضح للقارىء أخبار كل واحد منهم ومقدار مشاركته فيه، وما قام به في تشييد هذا الصرح العلمي ، وما كان لهذا الصرح من الاثر البالغ في انتشار الثقافة الاسلامية في ارجاء المغرب .

ومن خلال تلك الاخبار يتبيّن للقارىء الكريم كيف ابتدأت حركة انتقال العلوم العربية الى افريقية التونسية،وكيف امتدت منها الى اطراف شمال إفريقية والاندلس ، وما كان لها من الاثر العميق في رسوخ الحضارة الاسلامية بجميع مظاهرها العلمية والادبية والفنية حتى عمّت فائدتها البلاد المغربية قاطبة ، فأصبحت بفضل ذلك من اشد الممالك العربية تمسكاً بالعروبة وتعلقاً باذيالها ، وبالله التوفيق .

ابراهيم الثاني

هو ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب ، تاسع الامراء من آل بيته ، تولى حكم افريقية من ـ سنة ٢٦١ الى سنة ٢٨٩ هـ (٨٧٤ الى ٩٠٢ م) وكان في اول حاله شديد الطلب ، مولعاً بمصاحبة العلماء الاجلاء ، يميل بغريزته الى العلوم الرياضية ولاسيما الى الفلك منهــا مع اتقانه لعلوم الدين واللغة والادب ، وينشد الشعر الرقيق ، وقد مر بك فيا سلف مشاركته الفعلية في مناظرة فحول العلماء ، وتوطّن في صغره جزيرة صقلية مدة واتقن بها اللغة اللّاطينية اتقاناً لا باس به .

وكان ذا شجاعة نادرة واقدام عجيب ، وهو الذي أتم فتح مدائن صقلية الخارجة عن المسلمين ، وغــزا جنوب ايطاليا واستولى على مقاطعتي أكبرده . (لمبارديا ـ Lombardia) ـ وقَلَوْرِية (كلابريا Calabria) ونازل بجيوشه في حملته الجهادية مدينة « كوسنته ـ Cosenza » وكانت غايته فتح مدينة « رومة ـ Roma » لولا ان أدركه الاجل في حربه هذه .

وله منشآت جليلة في افريقية منها مدينة (رقّادة) وقد اتخذها داراً لسكناه ،وبنى بها القصور والدور والمساجد والصهاريج الضخمة لماء الشراب ولسقي الحدائق الغناء التي تحيط بها ، وجلب اليها المياه العذبة في القنوات من مسافة بعيدة،وفي رقّادة استقبل سفارات من ملوك

الافرنج الأوروبيين ، ومن قياصرة القسطنطينية ، ومن ملوك السودان في أبّهة عجيبة ، وعلا صيته في ممالك البحر المتوسط حتى أن ملوك الافرنج الغربيين (القهامسة ـ Comtes) متى عرضت لهم منازعات مع مخالفيهم من امراء بلادهم الايطالية كانوا يتوسلون بالامير ابراهيم لفصل خلافاتهم الداخلية ، وقد وقع ذلك بالفعل مرات عديدة .

ومن الاسف الشديد ان تغمر حياة ابراهم في ثنايا التاريخ ولم يعبأ بها اصحاب الاخبار المحليين كما يجب ، مع انها صحيفة فخر لهذا القطر مدى الدهر ، ويكفيه شرفاً دائماً ان أنشأ جامعة « بيت الحكمة » بافريقية ، فكانت مبعثا جديداً وعاملًا قوياً لنشر الثقافة الاسلامية في اصقاع المغرب وفي جنوب اروبا .

والى القارىء بعض ما وصفه به كبار المؤرخين وفي مقدمتهم ابن الاثير الجزري قال [١] :

« كان ابراهيم عادلًا ، حازماً في أموره ، أمّنَ البلاد ، وشرّد اهل البغي والفساد ، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين ، يسمع شكوى الخصوم ، ويصبر عليهم ، وينصف بينهم ، وكانت القوافل والتجار يسيرون في الطُرُق آمنين ، وبنى الحصون

(١) الكامل في التاريخ ٧ : ١١٢

والمحارس على سواحل البحر ، حتى كان يوقد النار من سَبْتَة فيصل الخبر الى الاسكندرية في الليلة الواحدة . . . »

« وعزم على الحج فرد المظالم وأظهر الزهد والنسك ، وعلم انه ـ ان جعل طريقه الى مكة على مصر منعه صاحبها ابن طولون فتجري بينهما حرب يقتل فيها المسلمون ـ فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد ، ويفتح ما بقي من حصونها ، فأخرج ما ادّخره من المال والسلاح وغير ذلك ، وسار الى سوسة فدخلها وعليه فرو مرقع في زي الزهاد - اول سنة ٢٨٩ هـ - وسار منها في الاسطول الى صقلية ... وسار الى « طبرمين » (Taormina) فاستعدّ أهلها لقتاله ، فلما وصل خرجوا والتقوا ، فقرأ القارىء بين يديه : (انا فتحنا لك فتحا مبينا ...) فقال الامير ، اقرأ : (هذان خصمان اختصموا في ربهم ...) فقرأ القارىء ، فقال ابراهيم :ـ اللهم ! اني اختصم أنا والكفّار اليك في هذا اليوم » وحمل ومعه أهل البصائر فهزم العدو ودخل معه المسلمون المدينة عنوةً » .

وتوغل ابراهيم بجيوشه الجرّارة في العدوة الايطالية مُؤَمِّماً مدينة رومة ، وكان قصده ان يسير منها بعد فتحها الى القسطنطينية ، كما أكّد خبره ابن الاثير وغيره من المؤرخين لكن المقادير أبت ذلك .

قال ابن الاثير : « ... وسار الى كسنتة = Cosenza » في أرض قلورية فجاءته الرسل منها يطلبون الامان ، فلم يجبهم ، وكان قد ابتدأ

به المرض ، وهو علّة الذرب (الديسانتريا) فنزلت العساكر على المدينة ولَم يجدّوا في قتالها لغيبة الامير عنهم ، فانه نزل منفرداً لشدة مرضه ، وامتنع منه النوم ، وحدث به الفوَاق،فتوفي ليلة السبت لاحدى‌عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة من سنة ٢٨٩هـ (٢٦ اكتوبر ٩٠٢ م) فجعلوا الامير إبراهيم فى تابوت وحملوه الى بلرم ، ومنها نُقِل الىافريقية ودفن في تربة اجداده بالقيروان رحمه الله .. » .

وقد أضاف ابن الاثير في ترجمته : « ... وكان ابراهيم عاقلاً، حسن السيرة ، محبًّا للخير والاحسان ، تصدّق بجميع ما يملك ، واوقف املاكه جميعها على اوجه البرّ ، وكانت له فطنة عجيبة فى اظهار خفايا القضايا .. » الخ .

عبد الله الثـاني

أبو العباس عبدالله الثاني ، ابن الامير ابراهيم المتقدم، تولّى بتقليد من الخليفة (المعتضد) العباسي لما خرج أبوه مجـاهداً الى صقليـة وجنوب إيطاليا ، وكان شهماً عفيفاً ، له عناية كاملة باللغة والادب ، وأخذ ذلك عن كبار شيوخ أفريقية كابن عبدون القاضي وعبد الله بن الاشج وغيرهما ، وفي صغره كان قلّده أبوه ولاية صقلية ، فسار فيهـا سيرة العدل والعفاف ، وهنالك اختلط بالرعايا الغير المسلمين فتعـلّم لسانهم المتولد من اللاطينية .

و لما قام باعباء الامارة الافريقية اعتنى عناية كاملة بتنشيط العـلوم وأسند الى « بيت الحكمة » الذي أسسه أبوه برقّادة علماء وحكماء آخرين. وفي خلال إمارته اشتدت وطأة دعـوة الفاطميين على يـد الداعي (ابي عبد الله الصنعـاني) ولاقت من بربر (كتامة) أذناً صاغية فاخـذت تنتشر بسرعة حتى انها هدّدت ملك الاغالبة ، وحـاول الامير عبد الله قمع هذه الدعوة قبل امتدادها فلم يقدر عليها لارتدائهـا بصبغة الدين ، وتمكّنها لذلك من نفوس عامة البربر ، فـال الامير الى سيرة التقشف ، وتحوّل الى سكنى مدينـة تونس ، وجلس للمظـالم بنفسه ، وكتب الى ولاّة الجهات بالرفق في الرعية ، غير ان ايامه لم تدم الا قليـلاً ، اذ تآمر عليه نفر من مواليه ووثبوا عليه في نومه وعجّلوا به ، فكانت ولايتـه سنة وخمسين يوما .

قال ابن الاثير فيما نقل عمن تقدمه من الاخباريين [1] : « كان عبد الله لبيباً ، أديباً شجاعاً ، أحد الفرسان المذكورين مع علمه بالحرب وتصرّفها ، وكان عاقلاً ، عالماً ، له نظر حسن في الجدل » .. ثم قال : « ولما وُلي الأمر كتب الى العمّال كتاباً يقرأ على العامة يعده فيه الاحسان والعدل والرفق ، ففعل من نفسه ما وعد به .. وكان كثير العدل ، وأحضر جماعة كثيرة من العلماء عنده ليعينوه على العدل ، ويعرّفوه من أحوال الناس ما يفعل فيه على سبيل الانصاف ، وأمر القاضي في بلده ان يقضي عليه وعلى جميع أهله وخواصّ أصحابه ، ففعل ذلك » .

وهي شهادة ذات قيمة بالغة تدل على اخلاقه وعلمه وفضله ، وله شعر لطيف أورد شيئاً منه ابن الابار وابن الاثير وغيرهما .

وكان اغتياله بمدينة تونس كما تقدم يوم الاربعاء ٢٨ شعبان سنة ٢٩٠ هـ (٢٨ يوليو سنة ٩٠٣ م) .

مصادر :

الحلة السيراء لابن الابار ص٢٦٣ ـ الكامل لابن الاثير ٢٠٦:٧

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢٠٦

زيــــادة الله الثالث

ابن عبد الله المتقدم ، هو خاتمة الامراء من بني الاغلب ، تولّى بعد أبيه وأقام في الحكم الى سقوط دولتهم ، وقـرأ في صغره على اعـلام الشيوخ المنتسبين الى بيتهم ، وفي صغره تولّى عمالة صقلية في مدة جده وأبيه ، وقد يُنسب اليه الطيش والميل الى الملاهي والطرب ، وهـذا صحيح ثابت ، لكن ليس بالدرجة التي يصفه بها الاخباريون المتزلفون لدولة العبيديين ، يكفينا شاهد عنايته بالعلم وحرصه على جلب أعـلام جلّة في الفلسفـة والطب والادب من عواصم الشرق الكبرى كبغداد والفسطاط ومن بلاد اليونان أيضا ، وإضافتهم الى « بيت الحكمة » للدراسة والتعليم . ولا ننسى انه وجه اهتمامه في مدّته القصيرة الى معالم رقّادة فزاد فيها قصوراً فاخرة ومنشآت أخرى نافعة حتى صارت رقّادة في الصف الاول من مدائن افريقية ، مما جعل عبيد الله المهدي يقول عند حلوله بها : « رأيت ثلاثة اشياء بافريقية لم أرَ مثلها بالمشرق » منها قصر (البحر) الذي بناه زيادة الله هذا ، وقد اتخذ حذوه صهريجاً للماء طوله خمسمائة ذراع وعرضه اربعمائة ذراع ، انفق على إنشائه مائتين واثنين وثلاثين الف دينار ، واجرى اليه المياه المجلوبة من بعيد في القنوات ، كما ابتنى بجانبه قصراً آخر سماه (العروس) الى غير ذلك من البناءات . ولا يبعد انه أضاف غرفاً جـــديدة الى « بيت الحكمة » غير التي انشأ جده ابراهيم .

تولّى زيادة الله الامارة في رمضان ٢٩٠ (يولية ٩٠٣ م) وتخلّى عن الملك حين هاجمته الجنود البربرية المنضمّة الى داعي الشيعة ابي عبد الله الصنعاني (٢٥ جمادى الثانية ٢٩٦ هـ = ٢٠ مارس ٩٠٩) وبالرغم من الاضطرابات الداخلية والقلاقل الواقعة في ايام حكمه فانه كان يأنس لمجالسة العلماء والحكماء والادباء الذين انتدبهم من العواصم العربية الكبرى. منهم الطبيب الطائر الصيتْ اسحاق بن سليمان الاسرائيلي ، وابن خُنبس وغيرهما ، وكان وزراؤه . وفي مقدمتهم عبد الله بن الصائغ . من اجلّ ادباء عصره لكن الظروف القاسية التي احاطت بولايته منذ اندلاع الدعوة الفاطمية واستيلائها بالتدريج على البلاد منعتـه لا محالة من اظهار كامل عنايتـه بالشؤون العلمية والاقبال على بيت الحكمة .

وكان من امره بعد انفصاله عن الامارة ان قصد طرابلس ، ومنها سار الى مصر وحاول الوصول الى المقتدر بالله الخليفة العبـــاسي في بغداد ليمدّه بنجدة لمقاومة الفاطميين واسترجاع ملكه من المغتصبين ، فاتاه الإذن بالتوقّف الى ان يأتيه الاذن ، فصار يـــتردّد بين مصر وفلسطين في ارتقاب المعونة،وهيهات ! واستقر آخراً بمدينة (الرّملة) ولم يأته شيء ، وطال به مقامه الى ان وافاه اجله في خلال سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ـ وقد دامت امارة الاغالبة بافريقية مائة واثنتي عشرة سنة ، وهي حقبة فخرية في تاريخ تونس اذ انها كانت خصيبة الانتـاج في كل الميادين : العلمي ، والمعماري ، والاقتصادي ـ والبقاء لله وحده !

مصـــــادر :

ابن الابار : ٢٦٤ وما بعدها ـ الكامل لابن الاثير ٨:٨ وما بعدها ـ ابن العذارى : ١٢٩:١ وما بعدها .

ابن الصـــائغ

عبد الله بن الصائغ ، أحـــد وزراء زيادة الله الثالث ، واصحابه المخصوصين بلطف المنزلة عنده ، كما يقول ابن الابار .

وهو من ابناء القـــيروان وبها قرأ وتعلّم ، وظهرت عليه مخائل النجابة فاستخدمه أبو مسلم منصور بن اسماعيل ، رئيس ديوان الخراج في كتابة رسائله واضافه الى ديوانه في رقّـادة ، وذلك في مدة ابراهيم الثاني ، ولما تقـــلّد زيادة الله الاصغر الامارة استوزر ابن الصـــائغ واستخلصه لنفسه واسند اليه وظيفة البريد ، فصار يعرف (بصاحب البريد) وهي أعلى المناصب في الحكومة ، وكان ابن الصائغ مشهوراً بالفضل والادب ، حسن التدبير في سياسة الملك ، شاعراً مجيداً . وتعدّ رسائله في الدرجة العالية من البلاغة .

حكى ابو اسحاق الرقيق : ان زيادة الله سأل يوماً (مؤنساً) ان

يغنيه صوتاً لم يسمعه منه قبل ، فاخذ المغني العود وانشد لبعض المتقدمين :

فقد صرت بعد البيْن اقنــع بالهجر

ونسى مؤنس صدر البيت ، فاقترح الامير على وزيره الزيادة على ما انشد ، فارتجل في الحين :

وبي كَبد لَوْلاَ الأسى لتصدّعت وقلبٌ أبيَ ان يستريح الى الصبر
وقدكنتاخشىهجرهم قبلبيْنهم فقد صرت بعد البيْن أقنعُ بالهجر

فطرب الامير وامر لمغنيه بجائزة فاخرة ، وانما ذكرنا هذا لتُعرف مكانة الرجل من الادب ، وقد اورد له ابن الابار وغيره مقطوعات شعرية تدلّ على منزلة ابن الصائغ من القريض .

وليس من شك ان ابن الصائغ تلقّى فى صغره الادب وخصوصا فنّ الترسل عمن كان فى حاشية الاغالبة من كبار الكتّاب امثال ابي اليُسْر الشيباني ، والكاتب البليغ محمد بن الفرج البغدادي المتوفى سنة ٢٩٠هـ ولا سيما من ابي محمد عبد الله المكفوف كبير اللغويين والنحاة في القيروان خلال القرن الثالث .

ولا أدل على عناية ابن الصائغ وتشجيعه لاهل العلم من الخبر الذي اورده الزبيدي في ترجمة ابي محمد المكفوف ، فقد نقل الينا حديثاً دار

بين هـذا النحوي الشهير وبين احد تلاميذه : « قال الشيخ ابو محمد : ـ أتدري كم وصل إليَّ من ابن الصائغ صاحب البريد ؟ ـ قال التلميذ : ـ لا ادري ، ـ قال : نحو من خمسمائة دينار سوى الخِلَع وقضاء الحوائج ، والبرّ والاكرام ، وما كان يسألني عن شيء الا بعث في طلبي دابته وابنه من رقّادة . فكنت اصل اليه واحضر مائدته ، وآكل معه يوم الجمعة » .

والذي يهمّنا ان ابن الصائغ كان من أعيان المتردّدين على « بيت الحكمة » كما تفرضه عليه وظيفته العالية ومنزلته المكينة من الامير ، وكما يحتّمه عليه ايضاً ميله القوي للادب وتنشيطه للمنتسبين اليه .

وقد شاطر ابن الصائغ مخدومه الاغلبي في افراحه واتراحه ، وشاركه بفكره وقلمه في مقاومة الدعوة الفاطمية التي كان يقودها ابو عبد الله الصنعاني في اطراف الامارة ، حتى اذا ما انتصر داعي الشيعة وفرّ زيادة الله الى طرابلس ، ركب ابن الصائغ البحر من سوسة وأراد الالتحاق بالمشرق فاضطرّت السفينة الى الارساء على طرابلس لاضطراب البحر ، فتمكّن زيادة الله من ابن الصائغ وامر بقتله لاسباب نجهلها ، وذلك في آخر سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) ولم نعثر له بكل اسف على ترجمة وافية ولا على شيء من تحاريره النثرية التي اشتهر بها .

مصـادر :

الحلة السيراء لابن الابار ص ٢٦٦ و ٢٧٧ م ـ ابن العذاري ١ : ١٢٩ و ١٣٢ و ١٤١ وما بعدها .

اسحـــاق بن عمــــران

طبيب بغداديّ الولادة والنشأة والدراسة ، مُسْلِم النحلة وأن توهّم بعضهم انه يهودي لما في اسمه من الشبه بالالقاب الاسرائيلية .

يُعتبر اسحاق بحقّ اول طبيب افريقي يستحق هذا النعت بكل ما في معناه من علم واسع ، وحـــذق بالصناعة العلمية ، وخبرة تامة بأصول الاوائل وأقوال الفلاسفة من اليونانيين وغيرهم ، وإحـاطة شاملة بما وصلت اليه العلوم العقليـة من رقي وتقدّم في مهد الحضارة العباسية في بغداد .

ومن دواعي الاسف إننـــا لا نعلم عن دراسته الاولى ، وتلقّيه الفلسفة والطب وعلوم الطبيعة الا القليل التافه ، لكن ما وصـل الينا من مصنفاته يجعلنا نجزم بقيمة ثقافته العاليـة وملكاته الواسعة ، ولا نشك انه قرأ في حداثته على حكماء اعلام في بغداد ، وقد بلغت مدرستها الطبية وقتئذ أقصى حدود المعرفة ، ومن الجائز جدًّا انه أخذ عن بَختيشوع ابن جبرائيل ، وحُنيْن بن اسحاق العبّادي ، ومن كان في طبقتهما ، وربما كان في أثناء دراسته يختلف الى « بيت الحكمة » العباسي ، الامر الذي سمح له بعد حين بالانتصاب لمباشرة الصناعة الطبية في دار السلام ، وقد اشتهر فيها وفي ضواحيها بإسم « سمّ ساعة » وكأنها

إشارة لما يظهر من سرعة تأثير الادوية التي كان يصفها للمرضى ، وانا نعلم انه في أول امره كان يختلف الى مدينة « سُرَّ من رأى » (سَامرَّاء) وما جاورها من القرى والمنازل لمعالجة حرفائه .

وفي تلك الاثناء دُعِيَ من جانب الامير ابراهيم الثاني الى المجيء الى افريقية، فنزح اليها - سنة ٢٦٤ هـ (٨٨٧) وانظم الى حاشية الامير وخدمه مخلصاً بعلمه وحرفته ،فكان للطبيب اسحاق اوفر نصيب في نشر علوم الطب والفلسفة في افريقية على يديه. قال ابراهيم الرقيق: « كان اسحاق طبيباً حاذقاً متميِّزاً بتاليف الادوية المركّبة ، بصيراً بتفرقة العِلَل ، أشبه الاوائل في علمه » وقال ابن جلجل : « وبه ظهر الطب (العلمي) بالمغرب ، وعُرِفت الفلسفة » وقال صاعد الاندلسي : « ومن اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعي : اسحاق بن عمران وكان مقدّماً في جودة قريحته وصحّة العلم ، وهو الذي ألّف بين الطب والفلسفة بديار المغرب » وهي لعمري شهادات تقدير فائق من كبار مفكري العلوم الرياضية العارفين بقيم علماء عصرهم وما قبله .

وبالفعل تلقّى عدد كبير من الافريقيين الفلسفة والطب عن اسحاق ، نذكر من مشاهيرهم : ابنه (علي) المتزائد في القيروان ، وزياد ابن خلفون ، واسحاق بن سليمان الاسرائلي الوافد بعدُ من مصر ، وابو بكر محمد بن الجزار ، عمّ احمد الطائر الصيت ، وابو سعيد الصيْقل

الفيلسوف وغيرهم ، وهؤلاء الذين اشتهرت بهم (المدرسة القيروانية) للطب والحكمة .

وقد ألّف اسحاق بن عمران جملة وافرة من الكتب في المادة الطبية وفي العلوم الطبيعية،وقد توصلنا الى معرفة اسماء نحو الاثنتي عشرة منها، وكان تحريره لجميعها حين إقامته بافريقية ، وقد قـدّم جانباً منها الى الامراء الاغالبة ، ومن الاسف الشديد انه لم يصلنا من مصنفاته غير كتاب واحد ، وهو « المالنخوليا Melancolia » في وصف امراض الوسواس ، ويعرف ايضاً بالمرض السوداوي وطريقة معالجته ، يوجد منه نسخة فريدة في مكتبة مونيخ (بالمانيا) ، ويقول ابن جلجل في حق هذا الكتاب : « لم يُسْبَق الى مثله » وقديمـاً اعتنى الباحثون من الاطباء بهذا التصنيف المبتكر ونقلوا عنه ، وفي القرن الحادي عشر للميلاد تُرجم الى اللغة اللاطينية لاهميتـه العظيمة ، كما سبقت الاشارة اليه فيا سبق .

وكانت وفاة اسحاق بن عمران ـ بل اغتياله على التحقيق ـ في سنة ٢٩٤ او ٢٩٥ هـ (٩٠٧ - ٩٠٨) اي قبل انقراض دولة الاغالبة بقليل ، وعلى هذا التقدير يكون اسحاق قد استوطن افريقية التونسية ما يزيد على العشرين عامـاً ، نضجت في خلالها معلوماته ، وتنوّعت اختباراته وتجاريبه ، وقد قضى تلك المدة في تحرير مصنفات عديدة مفيدة ، كما بثّ في اثنائها فنّ الطب وعلوم الطبيعة بين المتاهلين من ابناء البلاد ،

وبهذا الاعتبار يكون اسحاق المؤسس الاول للمدرسة الطبية في ربوع افريقية وما والاها، وكذا كان معاصره وصديقه (أبو اليُسر الشَّيْبَاني) المرشد المقدم في المادة اللسانية و الادبية لما خصهما الله به من العلم الواسع والقريحة النادرة والاخلاق الحميدة، فجزاهما الله عن أبناء المغرب أوفر الجزاء.

مصادر :

طبقات الاطباء ٢ : ٢٥ ـ طبقات الامم لصاعد : ٦٨ ـ البيان المغرب ١ / ١٦٦ جامع المفردات لابن البيطار في عدة أماكن ـ بروكلمان ١ : ٢٢٢ وملحقه ١ : ٤١٧ ـ « كتاب العمر » للمؤلف .

الاسرائيلي

إسحاق بن سليمان الاسرائيلي ، أبو يعقوب ، نشا في مصر وبها تعلم الصناعة الطبية وتعاطى مهنة الكحالة (امراض العيون) في مدة احمد بن طولون ، وكان قدومه الى افريقية صحبة رسول زيادة الله الثالث الى بغداد ، وقد قاوله الرسول على خدمة الامير الاغلبي بخمسمائة دينار في السنة ، وكان وصولها الى القيروان في عام ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) فاقـام برقادة ، وانخرط في جملة من كان يحضر دروس الطبيب اسحاق بن عمران في « بيت الحكمة ، ولازمه وتتلمذ له كما اكّد ذلك ابن جُلجُل ، وروى عن استاذه مؤلفاته ثم انه اختصرها فيما بعد .

واستمر الاسرائيلي على مباشرة مهنته الطبية الى آخر ايام زيادة الله ، فلما انقضت دولة بني الاغلب التحق بالامراء الفاطميين ولازم خدمتهم - اعني عبيدالله المهدي ، وابنه القائم ، ثم المنصور واخيراً المعز لدين الله - ونال من الحظوة لديهم ما لم ينله غيره ، قال ابن جلجل : « كان اسحاق طبيباً فاضلاً بليغاً مشهوراً بالحذق والمعرفة ، جيّد التصنيف بالعربية ، وكان مع فضله في صناعة الطب بصيراً بالمنطق . يعني الفلسفة . متصرفاً في ضروب المعارف » .

وكان معاصروه من يهود افريقية يجلّونه إجلالاً عظيما حتى انهم

اسندوا اليه رياستهم الدينية ، وقد ألّف لهم كثيراً من الكتب في تفسير تعاليمهم ، كما سنّ لهم تقاليد شرعية ساروا عليها الى زمن الزحفة الهلالية وبعدها بقليل ، وعمّر اسحاق طويلاً فقد قيل انه بلغ المائة سنة ، وكانت وفاته في منتصف القرن الرابع للهجرة ، قبيل انتقال المعز لدين الله الى مصر ، ودفن بمقبرة اليهود بمدينة المهدية .

وقد اخذ عنه الطب والفلسفة جماعة من ابناء البلاد منهم الطبيب الشهير (احمد بن الجزّار) القيرواني وهو يروي عنه حكايات طريفة في تاريخه .

ولاسحاق الاسرائلي جملة مؤلفات بالعربية ، واخرى بالعبرانية في مواضيع من الديانة الموسوية ، ومن اهم مصنفاته : « الحُمّيات » . كتاب « البَوْل » . كتاب « النَّبْض » . كتاب « الحدود والرسوم » في الطب . كتاب « الترياق » . كتاب « بستان الحكمة » قال في حقه ابن جلجل : « فيه مسائل من العلم الالهي » وغالب ما كتبه في المادة الطبية تُرْجم قديماً الى اللاّطينية حسبما سبقت الاشارة اليه ، كما أن جانباً وافراً من مؤلفاته حوّل الى اللغة العبرية اما في افريقية أو في الاندلس

مراجع :

طبقات الاطبـــاء لابن جلجل ـ ابن العذارى ١ / ١٣٦ ـ كتاب « تاريخ الطب عنـــد العرب » للحكيم لوكلير (باللغة الفرنسية) ـ الحكيم احمد الشريف التونسي : « تاريخ الطب العربي في تونس » (بالفرنسية) ص ٤٤ ـ بروكلمان ١ : ٢٣٦ وملحق ١ : ٤٢١ ـ وكتاب « العمر » للمؤلف .

بنـو الجـزار

في اواخر الدولة الاغلبية اشتهر بالقيروان افـــراد بيت واحد برعوا في علم الطب واحترفوا به في حذق زائد وامانة ، وقد توارثوه خلفاً عن سلف وتناقلوه ما يزيد عن المائة عام وهم : (بنو الجزّار) . ومن دواعي الاسف ان أغفل اصحاب الطبقات تراجمهم ولم يذكروا لنا منهم سوى واحد وهو احمد الذي غمرت شهرته بقية الأسْرة ، غير ان احمد هذا مات خلال عام ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) ولم يتصل (ببيت الحكمة) في رقادة وانما كان من تلاميذ اساتذتها وروّادها .

اما (ابو بكر محمد بن ابي خالد بن الجزّار) عمّ احمد ، فقد تلقّى علم الطب في صغره عن اسحاق بن عمران وعن تلميذه اسحاق الاسرائيلي كما اخذ عن زياد بن خلفون وعن غيرهم من اطباء بني الاغلب ، وقد

وصفه ابن اخيه وتلميذه احمد في تاليفه « نصائح الابرار » فقال : « كان عمًّنا عالماً بالطب حسن النظر فيه » . وذكر في كتابه هذا عدة ادوية واشربة ومعاجين وترياقات ركّبها عمه محمد ، وقال : « وعالج بها سادة من ذوي الاقدار العالية واهل الترفه والنعمة » ثم قال : « . قد جرّبتها فحمدتها » . ويقصد باهل الاقدار الخلفاء والامراء من الفاطميين برقّادة والمهدية . ونقل ابن حماد [1] : ان ابن الجزار - أبا بكر - عالج المهدي عبيد الله في مرضه الذي مات به وسقاه دواء (حب السورنجان) لنقرس كان يشكوه - سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) . ونعلم من ناحية اخرى ان من كبار حرفاء ابي بكر بن الجزار الحاجب جعفر بن علي البغدادي ، حاجب المهدي ، ويظهر من كلام ابن اخيه احمد ان لابي بكر هذا مؤلفات في الطب والنبات ولم نقف على اعيانها ولا على أسمائها لفقدانها .

وكانت وفاة ابي بكر في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة ، وقد جاوز السبعين من العمر .

٢ - ابراهيم بن ابي خالد بن الجزّار ، هو اخو ابي بكر السالف ووالد الطبيب احمد .

---

(١) ابن حماد : كتاب اخبار بني عبيد وسيرتهم ، ط ، الجزائر سنة ١٣٤٦ ص ١٥

كان ممن تعلم الصناعة الطبية وزاول فنونها مع اخيه على من تقدم ذكرهم من حكماء افريقية ، وكان يباشر مهنة الكحالة في القيروان في آن واحد مع اخيه ، ولا ندري من اخباره الا ما ساقه ابن جلجل في ترجمة ولده احمد حيث يقول : « هو طبيب ابن طبيب وعمّه أبو بكر طبيب » وفي يقيننا ان شهرة ابنه احمد حولت انظار الباحثين عن اخبار سلفه ، وذلك لنبوغه النادر وبعد صيته وكثرة تصانيفه ، وهو بلا ريب مفخرة الأسرة ، كما سبق لنا بيانه مفصلاً في غير هذا المكان .

زياد بن خلفون

كان زياد من موالي بني الاغلب ولا نعلم عن اصله شيئًا ، اكان ابوه من « الفتيان » كما كان ينعت الاغالبة مواليهم من الصقالبة ومن الصقليين ؟ ام هو من الوافدين على البلاد ؟ هذا مالم نتحققه ، بيد انا نعلم انه كان يسكن القيروان ويعالج الامراء والرؤساء والاعيان ومن اليهم ، ومن عادته انه كان يزور مرضى الدِّمْنَة - مستشفى البلد - في ايام معيّنة ، ثم انتقل بالسكنى الى مدينة رقّادة لما احدثها ابراهيم الثاني ليكون قريباً من حاشية الامير . قال البكري :

« وكان زياد بن خلفون المتطبّب اذا خرج من القيروان يريد مدينة رقّادة وحاذى (باب أصرم) - من ابواب القيروان - رفع العمامة على رأسه ليباشر الهواء رأسه كالمتداوي به لصحّته » .

وفيما يظهر ان زيادا تلقى دراسته الطبية عن عميدهـــا سليمان بن عمران في بيت الحكمة واستمر بعد ذلك على مباشرة مهنته الى آخر مدة الاغالبة ، ثم انه التحق بخدمة المهدي الفاطمي وكان في مقدمة من انظم اليه ، ولا عجب في ركون زياد الى الدولة الفاطمية الفتية ، ولا عجب أيضاً من اقبال هذه عليه إذ كانت في حاجة كبيرة في مبتدأ أمرهـا الى اصطناع الرجـــال ولا سيما الاخصائيين منهم من اهل المهن والخبرة بقصد انشاء حاشية تناسب الملك والسلطان . والى هذا المرمى يشير ابن العذاري بقوله : « وكان زياد بن خلفون عالما بالطب حسن الذهن فيه، وكان عبيد الله قد احتاج الى زياد فقرّبه من نفسه » للاسباب التي ذكرنا ، وخدم زياد بن خلفون المهدي مدة عشر سنوات متوالية الى ان دارت عليه محنة كان فيها حتفه اذ اغتـــاله بعض حاسديه من أعوان المهدي لاسباب بسطناها في غير هـــذا ، وكان مقتله في مدينة القيروان سنة ٣٠٨ ه (٩٢٠ م) ، وقد هال المهدي خبر قتله وتأسف عليه كثيراً.

مراجـع :

البكري . ص ٢٤ ـ ابن العذارى ١ : ١٥٠ و ١٨٧

ابن ظفر

الفضل بن علي بن ظفر ، أبو الفضل ، طبيب وأديب حكيم ، من أبناء القيروان ، قرأ على أعيان علمائها من الحنفيين ، ودرس الطب والفلسفة على مشاهير حكماء عصره حتى حذق ذلك كله ، قال الخشني : « كان من أهل الرسوخ في علم الطب مع أنفته من ان ينسب اليه » . ثم قال : « وكان شاعراً وكان مرسلا ، وكان أديباً » وقال ابن ناجي فيما نقل عن المؤرخ التُّجيبي : « كان الفضل كثير التصرف ، معروفاً بالطب والجدل والشعر ، وله جاه عند الملوك ، وهو من أصحاب ابن الصائغ صاحب دولة الاغالبة ، وكان صديقاً لابي جَعفر البغدادي ، وكان كثير الانفة » .

وذكره ابن العذاري فوصفه بقوله : « كان أديب دهره ، وطريف عصره ، علماً وفقهاً وأدباً ووفاء » .

وصحبته المتينة لكبار دولة الاغالبة تدل على انه كان ممن يروح ويغدو الى « بيت الحكمة » ومجالس وجوه علمائه من الأطباء كاسحاق ابن عمران ، واسحاق الاسرائلي ، وزياد بن خلفون ، علاوة على كثرة اجتماعه بأعيان ادبائه كابي اليسر الشيباني ، وابي جعفر البغدادي ومن في طبقتهما من الشعراء والكتاب المترسّلين .

وقد اورد له أبو عبيد البكري أبياتا تدل على انه كان من المناهضين لحركة التشيّع الفاطمي في افريقية .

وقد أبتـلي في آخر عمره بمرض مزمن اضطره الى الاحتجـاب في بيته اعواماً الى ان توفي خلال سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) .

مراجـــع :

الخشني ص ٢٢١ ـ البكري ص ٣١ ـ ابن العذاري ١ / ٢٧١ ابن ناجي ٢ : ١٧٦ .

ابو اليسر الشيباني

ابراهيم بن محمد الشيّباني ، يكنّى بـابي اليُسْر ويعرف « بالرياضي » الكاتب ، أصله من بغداد وبها نشا وقرأ على جلّة من محدثيها وفقهائها، وتتلمذ الى كبار أدباء عصره كالجاحظ ، والمبرد ، وثعلب ، وابن قتيبة واخذ عنهم مصنفاتهم ، ولقي من علية الشعراء : أبا تمام ، والبحتري ، وعلي بن الجهم وغـيرهم وروى عنهم دواوينهم مبـاشرة ، وجالس من الكتاب المشاهـير : سعيد بن حميد ، وسليمان بن وهب ، واحمد بن ابي طاهر وسـواهم . ولما اكتمل أدبه تاقت نفسه الى الترحـال فقصد اولا الاندلس على طريق البحر ، ونزل على اميرها محمد بن عبد الرحمن الاموي

بقرطبة ، وطاف في انحـــاء الجزيرة الاندلسية ، ثم ركب البحر الى افريقية وقصد اميرها ابراهـــيم الثاني فاكرم وفادته واتخذه لرياسة ديوان الرسائل ، ومن ذلك الحين استقر الشيباني بافريقية واتخذها دار قرار ، وباشر وظيفته بخبرة زائدة ووقار ، واستمر على وجاهته ايام عبد الله الثاني ، فلما آلت الامارة الى زيادة الله الثالث ترقّت به الحال الى رياسة « بيت الحكمة » مع المحافظة على زعامة ديوان الانشاء ، ولم يزل محلّ العناية الكاملة في مناصبه العالية ، يفيد ويدرّس الادب الى ان انصرمت دولة الاغالبة .

ولمّا امتلكت دولةُ بني عبيد البلاد ، انضم أبو اليسر الشيباني الى دعوة الفاطميين ، وقد أقرّه عبيد الله المهدي على وظيفته ، وادنى منزلتـه ، واستعان به على توطيـد ملكه الجديد لـما تيقّن فيـه من مخايل الذكاء والخبرة والنزاهة والدربة الكاملة بشؤون الملك .

وقد ألم المؤرخ الكبير ابراهيم الرقيق القيرواني بأخبار ابى اليسر ووصفه « بالأدب الرفيع ، والـترسل البليغ ، والشعر الـرائق ، مع حصافة الفكر ومكارم الاخـلاق » ثم قـال الرقيق : « وهـو الذي أدخل الى افريقية وسائل المُحدثين واشعارهم ، وطرائف اخبارهم » ثم قال : « وكان ضارباً في كل علم وأدب ، كتب بيـده اكثر كتبه مع براعة خطه وحسن وراقته ، حُكِيَ انه كتب على كبره « كتاب سيبويه »

كله بقلم واحد وما زال يبريه حتى قصر فادخله في قلم آخر وكتب به حتى فني بتمام الكتاب » .

وروى عنه الأدب ووسائل الترسّل عدد من أبناء افريقية منهم : ابنه يزيد ، وابو جعفر الكاتب ، وعبد الله بن الصائغ ولا سيا تلميذه المختص بصحبته ابو سعيد الصيقل الآتي ذكره .

ولم يزل ابو اليسر بالمنزلة الرفيعة الى ان ختمت انفاسه يوم الاحد ١٥ جمادى الاولى من سنة ٢٩٨ هـ (٢٠ يناير ٩١١ م)وله من العمر خمسة وسبعون عاماً ، ودفن بمقبرة باب سلم بالقيروان .

وقد ألف ابو اليسر مصنفات لغـوية وادبية كثيرة ، منها :

١ ــ « سراج الهُدى » في معاني القرآن وإعرابه ومشكله

٢ ــ « مسند في الحديث »

٣ ــ « لقط المرجان » في الادب على نسق عيون الاخبار لابن قتيبة وهو اكبر منه حجماً .

٤ ــ « قطب الادب »

٥ ــ « المرصّعة والمدبّجة » وهي من الرسائل النثرية في الادب .

٦ ــ « الوحيدة والمؤنسة » كذلك .

وله غير ذلك مما لم نقف على تسميته .

ولا شكّ عندي أن أبا اليسر الشيباني كانت له أكبر يد في حمل ابراهيم الثاني على تأسيس « بيت الحكمة » الافريقي لما كان يعلمه عن بيت الحكمة البغدادي، ولا ريب انه كان من جلسائه ومن المتزجين بأساطين أعلامه كما مرّ في أول الكلام عنه.

وعلى كل فهو من فحول الادباء الذين نقل عنهم الافريقيون رواية الادب العباسي، وكذا أسباب الحضارة البغدادية وأوضاع الحياة الاجتماعية بها، كما حصل لزرياب من قبله لما نقل التقاليد العباسية الى البلاط الاموي بالأندلس.

مصـــادر :

كتاب « التكملة » لابن الابار، ط. مجريط ١ : ١٩٠ ــ ابن العذاري ١ / ١٥٠ و ١٥٨ و ١٦٣ ــ ونفح الطيب ٢ / ١١٥ .

البــريــدي

ومن كبار الكتاب المترسّلين المعاصرين لابي اليسر الشيباني ممن كان يضمهم البلاط الاغلبي وساهمـــوا بقسط وافر في نشر الثقافة الادبية في البلاد :

محمد بن حيُّون ويعرف بالبريدي، ابو العباس، كان من مشاهير كتّاب الدولة وادبائها الظرفاء، حضر بناء مدينة رقادة، وقدّمه ابراهيم

الثاني لرياسة ديوان الانشاء قبل قدوم ابى اليسر الشيباني ، ثم سخط عليه الامير لهفوة كبيرة ارتكبها وسجنه، ثم امر بقتله - سنة ٢٧٦هـ (٨٩٠م) وقد حفظ لنا التاريخ نص رسالة بليغـة من انشائه حررها في السجن يستعطف فيها الامير ويستعفيه عن زلته ، يقول في آخرها :

هبني أسأتُ فأيْنَ العفـو والكرمُ　　قد قادني نحوك الاذعانُ والنـدمُ
يا خير من مُدّت الأيـدي اليه اما　　ترثي لمن قد بـكاه عندك القـلم
بالغت في السخط فاصفح صفحَ مقتدر　　إن الملوك إذا ما استرحموا رَحمُوا

مصـــادر :

ابن العذاري ١:١١٥ ـ اعمال الاعلام لابن الخطيب ط بلرم ١٩١٠، ديوان الادب التونسي ص ٢٨ طبع مصر ١٩٤٤

ومن طبقة الكتّاب ايضا :

محمد بن احمد بن الفرج البغدادي ، مولى بني هاشم ، طرأ على افريقيـة قادماً اليها من الاندلس بعد ما طاف في ارجائها ، وكان قدومه في مـدة ابراهيم الثاني ، وقد الحقه بأبي اليسر الشيباني لتحرير الرسائل ، وكانت له اليد الطولى في ذلك ، مع مشاركة عاليـة في فنون الادب ، وتوفي في رقادة خلال سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م .) في اوائل ايام زيادة الله الثالث .

مصـــادر :

ابن العذاري ١:١٣٠ .

أبـو سعيـد الصيقـل

عثمان بن سعيـد ، ويعرف بالصَّيْقل ، أبو سعيد

من موالي الاميـر ابراهيم الثاني . ولا نعلم عن نشاته شيـئاً يذكر ، وفيا يظهر ان اصله من المشرق ، وانه جاء صغيراً مع بعض السفارات الاغلبية الى بغداد ، وقد حضر في شبابه بـدار السلام مجالس التدريس للغة والادب ، وسمع من ابي العباس ثعلب إمام اللغـويين في عصره .

ولما حلّ بافريقية اتصل بخدمة البلاط في رقـادة واختص بالامير زيادة الله الاصغر في مدة ولايته الامـــر ، ومما لا شكّ فيه انه تتلمذ لرئيس الدواوين الاغلبية ابي اليُسْر الشيباني المتقدمَ الذكر ، وتلقى عنه فنون الادب وحضر مجالسه في « بيت الحكمة » وصحبـه طويلاً ، وكان من ألصق الطلبة به ، وسمع منه دواوين شعر المتقدمين ، وكتب عنه ادب المولّدين الذي يرويه الشيباني عن مؤلفيه ، مثل شعر ابي تمام حبيب بن اوس الطائي وغيره .

والى جانب ذلك كان ابو سعيد شعلة ذكاء ، يتصرف بحذق ومهارة في الصناعات اليدوية الرقيقـة ، ويتقن صنـع الآلات الرياضية وغيرها وربما لُقب بالصَّيْقل ـ وهـــو الذي يجيد سنّ السيوف وجلائها ـ لهذا السبب عينه ، كما انه كان يقرض الشعر الجيد ويكتب الرسائل البليغة بالخط البديع ، قال الحافظ ابن الابار : « كان حكيما بليغاً صاحب معمى » ـ ويستفاد مما نقله السيوطي في كتاب « الاوائـل » ان الصَّيْقل هو اول

من ادخل النوع المسمّى (بالمُعَمّى) في الشعـــر الى المغرب ولم يكن معروفاً قبله .

وعلى كل فان أباسعيد اقام برقّادة صدراً من شبابه وكهولته يخدم مع شيخه بالبلاط الامـيري الى ان انفصلت الدولة الاغلبيـة فانضم الى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي مـــع شيخه ابي اليسر الشيباني وقد لزمه الى ان توفي ، ففكر الصَّيْقل حينئذ في مفارقة ارض افريقية وكانه أنف من المقام بها بعد شيخه وبعد انقراض دولة اسياده الاغالبة ، فركب البحر من تونس وقصد الاندلس ـ اوائل القرن الرابع ـ واستقر بقرطبة في كنف ملكها عبد الرحمن الناصر ، ونال لديـه حظوة كبيرة لا سيما وقد اضافه الناصر الى تربية اولاده وفي مقدمتهم ولي عهده الحكم الثاني.

وفي مدة اقامته بالاندلس أخذ عن الصيقل جماعة من نبغاء العلماء من بينهم : ابو بكر الزبيدي امام اللغويين والنحاة بقرطبة،وكذا غالب بن عمر التيّاني الاديب المشهور وغيره،ورووا عنه شعر ابي تمام وغيره.وخلاصة القول ان ابا سعيد الصيقل يعدّ بحق في طليعة الادباء الذين حملوا الرواية لشعر المولدين بالمغرب ونشروها به ، ومـات ابو سعيد في خلافة مخدومه عبد الرحمن الناصر ـ في حدود سنة ٣٣٠هـ (٩٤١ م)او بعدها بقليل.

المصــادر • التكملة لابن الابار ، ط . مدريـــد ، ص ١٩٠ ـ كتاب • رياض النفـوس • ج ٢ (خـــط) ـ • نفح الطيب • ٢ : ١١٥ـ كتاب • الاوائل • للسيوطى .

ابـن القمــودي

أبو بكر القَمُّودي المشهور بالفيلسوف، أصله من سكان قمّودة، ناحية بالوسط الغربي من القطر التونسي، وتربى في القيروان وبها قرأ وتخصص في الجَدل والمنــاظرة ودرس كتب الفلسفة للاوائل وبحث آراءهم ، وصحب أبا عثمان سعيد بن الحدّاد مدة طويلة وتتلمذ لغـيره من وجوه المتكلمين . وكان يميل الى الاعتزال حتى عرف به .

قال الخشني : « كان حادّ القنّا ، بصـيراً بوجوه الكلام ، عارفـاً بابواب المناقضة ، متدرباً في صناعة المعارضة » ثم قـال : « وغلب عليه مذهب الاعتزال حتى لقب بالفيلسوف فصار نعتاً له » .

وطالما شارك في المناظرات العلمية والمذهبية التي كانت تـدور في « بيت الحكمة » أيام ابراهيم الثاني ، وقد اظهر من المقدرة في الجَـدل ما ميّزه عن أقرانه .

وحينما امتلك الفاطميون افريقية كان أبو بكر مضادًّا لحركتهم ، ومقاوماً لمبادىء مذهبهم ، قال الخشني : « وناظر ابو بكر ابا العبـاس الشيعي برقّادة مناظرة أفحمه فيها ، فجعل الداعي ابو عبد الله الشيعي يحرّك له اصبعه ويقول له : « وانك لتنظر لاهل البيت ما أرى منك من البغضاء ، وتنصب في توهين امرهم ما أسمع من حجاجك ! ـ فاضطر الرجل الى الاعتذار وخاف سفك دمه » .

فكان ذلك سبباً في انضمام هذا الفيلسوف الى دعوة الفاطميين ، فكلّفوه بالنظر الاعلى في السكة ، فتولى رياسة دار الضرب في رقّادة مدة عبيد الله المهدي ، وتختفي عنا اخباره فلا نسمع عنه شيئاً ، والمظنون انه توفي في خلافة المهدي اما في رقّادة او في المهدية .

مصـــادر :

طبقات الخشني ص ٢١٤ و ٢٢٢ وما بعدها ـ ابن العـــذاري ١ : ١٤٨ و ١٥٨

الطـلاء المنجـم

إسماعيل بن يوسف وأكـــثر ما يُعرف باسم « الطّـلاء المنجم » ، من مواليد القيروان وفيها قرأ مبادىء العلوم ، ثم سافر الى العراق ودرس علم الفلك والتنجيم حتى برع فيها ، قال الزبيدي عند التعريف به « كان من ذوي العلم التام بالعربيـة ، وكـان غاية في علم النجامة » ويظهر انه كان فقير الحال ، محتاجاً الى العمل بيده ، فخدم في بغداد عند بعض مستحضري العقاقير ، فحذق صنعة الطـلاء واطلع على غامض أسرارها .

وما كان يعرف بالطلاء قديماً هو وسائل تجميل وجـوه النساء

وأبدانهن ، وهي تطريتُها بالادهان والعقاقير المناسبة ، وهو ما يسميه الافرنج الآن (الماكيّاج) .

وفارق اسماعيل العراق وتجوّل في انحاء الشام ومصر مدة ودرس بهما ما تميل اليه نفسه من العلوم اللسانية والادب والفلسفة والفنون الرياضية حتى إذا ما مهر في كل ذلك عاد الى بلده القيروان ، ولاول رجوعه اتصل بالامير ابراهيم الثاني فاختبره وادناه من نفسه لما رأى فيه من النجابة والبراعة في كل فن ولا يبعد ان الحقه « ببيت الحكمة » برقادة ونصبه مع المشتغلين بالرياضيات مع من سبق ذكرهم ، وقد قلنا ان الامير كان مولعاً بعلم الفلك وفنّ التنجيم الرائج وقتئذ أيّما رواج في في العالم بأسره . فاستفاد ابراهيم من معرفته وخبرته ، وقد استصحبه لما غزا معاقل صقلية التي لم تُفْتَحْ من قبل ، وحضر الطلّاء حملات الامير على طبرمين (Taormina) وامتلاكه اياها ، وكذا غزوة مجاز مَسِّينة (Massina) المشهورة ، ورافقه في جميع حروبه في جنوب البلاد الايطالية الى ان استشهد ابراهيم الثاني شعبان ٢٨٩ (أغسطس ٩٠١ م) .

ولما انقرضت دولة الاغالبة أقام اسماعيل بالقيروان صدراً من دولة عبيد الله المهدي يشتغل بتحضير مركبات الطلاء للسيدات : « وهو اول من ادخل الطلاء البغدادي الى القيروان » كما صرح به الزبيدي . ثم انه أتهم بعمل الدنانير والدراهم الزائفة ، أتهمه بذلك صاحب دار الضرب (دار السّكة) ويظهر ان السبب الحقيقي في هذه التهمة انتساب

اسماعيل للأسرة الاغلبية ، فاضطر اسماعيل الى الالتجاء الى الاندلس وركب البحر ودخلها في خلافة عبد الرحمن الناصر ، ومن ذلك الحين تنقطع عنا اخباره ولا ندري هل التحق بخدمة ملوك بني أمية في قرطبة كسائر المهاجرين من رجال الاغالبة ومواليهم ، أم انه اقام يعمل لنفسه في تحضير المواد الكيمائية والارتزاق من بيعها ، والامر الذي نعلمه انه مات في قرطبة في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة .

مصـــادر :

الزبيدي : ١٦٤ ـ التكلة لابن الابار ، ط الجزائر . ص ٢٢٨ ـ بغية الوعاة : ٢٠٠

ابن القيـــار

أبو العباس (احمد) بن القيّار ، من علماء القيروان وفقهائها على مذهب اهل العراق اصحاب ابي حنيفـــة ، وقرأ في بلده على اعلام الحنفيين ، قال الخشني : « كان قِبَلَه علم كثير وجَدَل » .

وكانّ نسبة (القيّار) تدل على أن اباه كان يحترف بصناعة القير ـ وهو النقط الذي يصنع منه النار المُحْرقة التي تُلْقى على حصون العدو وسُفُنه البحرية فتحرقها ـ ، وهي من الصناعـــات التي أخذها العرب عن الروم البيزنطيين وتفنّنوا في وسائلها وأدواتها حتى فـاقوا

على غيرهم في استعمالها ، وكان لها رواج كبير في ذلك العصر وما بعده .

وقد برع ابو العباس هذا في علم الكلام والجدَل ، واختص بصحبة الامير عبد الله بن ابراهيم الثاني ، وهو الذي علّمه الفقه ولقّنه وسائل المناظرة ، ولازمه مدة حياته في صقلية وفي البلاد التونسية ، ولا ريب انه كان يتردّد على « بيت الحكمة » في مدة صاحبه الامير وقبل ذلك في ايام ابراهيم الثاني ، ولا نعلم من اخباره اكثر مما ذكرنا .

وكانت وفاته في خلال سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) .

مصادر :

الخشني ، ص ١٩٧ ـ وابن العذاري ١ : ١٣١ .

بكر بن حماد

بَكر بن حمّاد بن سهر بن ابي اسماعيل الزَناتي ، منشاه بمدينة تاهرت في المغرب الاوسط ، وقدم في حداثة سنه الى القيروان ، ودرس على عِلية محدثيها وفقهائها ، ثم رحل في طلب العلم الى المشرق فسمع من جلة علماء البصرة والكوفة وبغداد ، وأتقن علم الحديث وفنون الادب ، قال ابن العذاري ـ نقلا عن الرقيق لا محالة ـ « كان بكرٌ عالمًا

بالحديث وتمييز الرجال ، شاعراً مفلقاً ، مدح الخليفة المعتصم فواصله بصلات جزيلة ، واجتمع بحبيب الطائي ، وصريع الغواني ، ودعبل، وعلى بن الجهم ، وغيرهم من شعراء العراق ، وله ابيات الى المعتصم يحرّضه فيها على دعبل لسبب ما ، وهي :

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الارض العريضة دِعْبَلُ ؟
اما والذي أرسى ثبيراً مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تزلزلُ
ولكن امير المؤمنين بفضله يهم فيعفو أو يقول فيفعلُ

وعاتب حبيب الطائي بكراً في ذلك وقال له : « قتلته والله يا بكر ! » فاستمر في انشاد قصيدته هذه الى ان قال :

وعاتبني فيه حبيب وقال لي لسانك محذور وسمك قاتلُ
واني وان صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

وعاد بكر بن حمّاد الى افريقية واقام بر قّادة دهراً طويلا ، ومدح كلاًّ من الامراء ابراهيم الثاني ، وعبد الله ، وزيادة الله الاخير بقصائد ضربنا عن ذكرها ، وكانت له علاقة متينة بالبلاط ورجاله وخصوصاً بالوزير الاديب ابن الصائغ ، وليس من شكّ انه كان يختلف الى « بيت الحكمة » ويجالس اعيان مدرسيه ، وقد حمل عنه ابناء افريقية روايةَ الحديث ، وكذا دواوين شعر المعاصرين الذين اجتمع بهم في رحلته الى المشرق ، ولذلك كان يعدّ من كبار نقلة العلم والادب الى المغرب .

ولما انصرمت الدولة الاغلبية فارق بَكْر بن حمّاد القيروان ورقّادة وتوجه الى مسقط رأسه تاهرت فـاعترضه قُطّـاع الطريق قبل وصوله وقتلوه ـ آخر سنة ٢٩٦ هـ ـ وله من العمر ستة وتسعون عاما .

مصـــادر :

الحلة السيراء لابن الابار ، ـ وابن العذاري ١٥١:١ ـ وديوان الادب التونسي للمؤلف ص ٣٣ .

ابـن خُنبس

ابن خُنْبس الترجمان اليوناني ، لا ندري كيف وقع الى افريقية ، والذي نعلمه انـه رومي الاصل من الرعايا البيزنطيين ، وانه من موالي الامير زيادة الله الثالث وكان في خدمته مدة ولايته . وقد تولىّ الترجمة من اليونانية الى العربيـة لما جاءت الى رقـــادة السفارة السياسية الـتي ارسلتها حكومة بيزنطة الى البـلاط الاغلبي ـ سنة ٢٩٥ هـ . (٩٠٨ م) وقد وقع قبولها في أُبهة عجيبة لم يسبق لها مثيل ، شان الدول في اظهار العظمة والبذخ لما تحسّ بتخلخل كيّانها وقرب انهيارها .

ثم انه كان يرافق مخدومه الامـــير في اسفاره وحركاته الحربية ، وحضر معه المعارك الدائرة بينه وبين الفاطميين ـ وليس هنـــاك ما

يشير الى مشاركته في الحركة العلمية ولا فى تعريب المؤلفات التي نقلت عن اليونانية او اللاطينية ، لكنه كان نشيطاً متحركاً ، فيحتمل انه ساهم في تعريب المصنفات التي ترجمت في بيت الحكمة،وهذا غاية ما بلغه تخميننا في خصوصه ، ولهذا السبب أثبتنا اسمه هنا عسى ان يوفّق غيرنا الى زيادة التعريف به .

مصـــادر :

ابن جلجل ، ـ وطبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة ٢: ٣٧

سعيـــد ابن الحـــداد

سعيد بن محمد بن صبيح شهر بابن الحدّاد الغساني ، أبو عثمان

من كبار المتكلمين الافريقيين فى عصره ان لم نقل اشهرهم وأعلمهم وأذكاهم ، درس في اول أمره العلوم الدينية وأخذ عن الامام سحنون وغيره ، ثم مال بكليته الى العلوم الفلسفية واتقن فنّ الكلام والجدل اتقاناً كاملاً حتى اصبح لا ينازعه فيه منازع ، وتتلمذ له جماعة كبيرة من صغار معاصريه واقتدوا بسلوكه وآرائه ، فكان هو رأس المدرسة الكلامية بالقيروان ، ولم يتقيّد مدة حياته بتقليد مذهب من المذاهب ، قال الخشني عند التعريف به :

« كان مذهبه النظر والقيـاس والاجتهـاد ، لا يتحلى بتقليد احد العلماء ويقول : ـ انما أَدْخلَ كثيراً من الناس الى التقليد نقصُ العقول ودنا الفهم ـ وكان يقـول : كيف يسـع مثلي ممن أتاه الله فهماً ان يقـلد احداً من العلماء بلا حجّة ظاهرة » .

ثم زاد الخشني فقال : « كان مذهب ابي عثمان المناظرة وفهم القرآن والمعرفة بمعانيه ، وكان نافذاً في النحو ، عربيّ اللسان ، جهير الصوت ، واذا تكلّف الشعر اجاد ، وكان يردّ على اهل البِدَع المخالفين للسّنّة ، وله في ذلك مقامات مشهورة ، وآثار محمودة . قـال له يومـاً سليمان بن الفراء ـ كبير المعتزلة بالقيروان ـ يا ابا عثمان ، أين كان ربنـا إذ لا مكان؟ فاجابه من فوره : ـ السؤال محال ، لان قولكَ أينَ كان ؟ يقتضي المكان وقولك : لا مكان ينفي المكان ، فهذا : نعم ، لا » .

وقد اتفقت كلمة معاصريه في الزمان انه كان « عابداً ورعاً ، ذا صيانة وعفاف » وعَظُمت شهرته وانتشرت في البـــلاد بعد ما ناظر الدُّعاة من شيعة الفاطميين في رقّادة عقب استيلائهم على افريقيـة حتى مثّله اهل السنّة بالقيروان باحمد بن حنبل ايام المِحنة ، وقد دارت بينـه وبين الدعاة نحو الاربعين مجلساً حفظ لنا الخُشني صورة أربعة منها[1] وقال : « كانت لابي عثمان مقامات كريمة ، ومواقف شريفة في الدفـاع

---

(١) طبقات علماء افريقية للخشني ، ص ١٩٩ وما بعدها .

عن الاسلام ، والذبّ عن السنة تآظر فيها أبا العباس المخطوم - أخا ابي عبد الله الشيعي الصنعاني - بملء فيه ، ومُنى نفسه ، مُناظرةَ القرن المساوي ، بل مناظرة المتعزز المتعالي ، لم يتلعثم لجلالة المقام ، ولا أحجم لهيبة السلطان ، ولا خاف ما خيف عليه من سطوة الحدثان ، ولقد قال له ابنه محمد يوماً : « اتق الله في نفسك ، ولا تبالغ في مناظرة الرجل - فأجابه : حسبي من له غضبت ، وعن دينه ذببت ! »

ولولا خوف الإطالة لاثبتنا صورة مجالس المناظرات المذكورة حسبما اوردها الاخباريون المعاصرون ، لكنا نقتصر هنا على ايراد اول اجتماع حصل له مع عبيد الله المهدي في رقادة ، حكى ابو بكر بن اللّباد صاحب ابن الحداد وتلميذه قال :(١)

« بينا سعيد بن الحدّاد يوماً جالساً إذ أتاه رسول من قِبَل ابي جعفر البغدادي (حاجب عبيد الله المهدي) ، فقال له : أحبَّ ابو جعفر ان يراك ، قال : فلبست ثيابي ومضيت الى رقّادة حتى أتيت بابه ، فاذا برجل أُجلِسَ لي ينتظرني ، فقال : ادخل ، فدخلت عليه ، فقال لي (الحاجب) : أحبَّ الخليفة ان يجتمع بك ، فقلت له : ها أنا ذا ، وجعل معي من يصحبني ومضى وهو أمامي ، فمضيت مع الرجل حتى أُتِيَ بي الى مكان فاجلسني فيه ، فانا جالس حتى أتاني رسول ثان

(١) كتاب رياض النفوس ج ٢ ص ٣٢ (خط)

غير الذي كنت معه ، فقال لي : قم يا شيخ ، فقمت فدخلت معه حتى أليت الى باب المجلس ، فاذا بعبيد الله جالس والبغدادي واقف على رأسه ، فتكلمت بما حضر لي من الكلام ، فقال لي : أجلس ! فجلست فإذا بكتاب لطيف الى جانبه على مخدّة فرأيته وقد أومى الى ابي جعفر فقال له : أعرض الكتاب على الشيخ، قال : فرمقته ببصري وعرفت الكتاب ، قال : تصفّح ، وجعل يده على بعض الصفحة وانا انظر الى الاسناد ، فقال لي أبو جعفر : أقرأ ، فقلت له : عرفت الحديث ، وهو حديث (مَنْ كنتُ مَوْلاه فَعَلِيٌّ مَوْلاه) وهو حديث صحيح قد رويناه ، فعطف عليَّ عبيد الله وقال لي : فما للناس لا يكونون عبيدنا ؟ - فقلت له : - أعز الله السيد ، لم يرد ولايةَ الرِقِّ ، انما اراد ولاية الدين - فقال لي : هل من شاهد من كتاب الله عز وجل ؟ - فقلت : نعم ، قال الله تعالى : (ما كان لِبَشر ان يؤتيه اللهُ الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتابَ وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيئين أرباباً، أيأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون) فما لم يجعله اللهُ لنبي لم يجعله لغير نبيء، وعليّ لم يكن نبيئا انما كان وزير النبي ﷺ ،فقال لي : انصرف لا ينالك الحرّ - قال ابوعثمان : فخرجت فصحبني البغدادي واومى اليّ ، فوقفت ، فقال لي : اكتم هذا المجلس » .

وقد اسلفنا مشاركة ابي عثمان في مجالس المناظرة التي كان يعقدها

الامراء الاغالبة في قصورهم ، اي في قاعات (بيت الحكمة) في رقّادة .

ولابي عثمان مؤلفات كثيرة في الجدَل والردّ على المخالفين من اهل المخارق والزندقة ؛ منها كتاب « المقالات » ردّ فيه على اهل المذاهب اجمعين ، وكتاب « إيضاح المشكل » - وكتاب « الامالي » وكتاب « الاستواء » وكتاب « الاستيعاب » وغير ذلك .

مولده في سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) وكانت وفاته بالقيروان في ذي القعدة من سنة ٣٠٢ هـ (مايه ٩١٥ م) ودفن بمقبرة بـاب سلم ، وقبره معروف .

وقد حرصنا على إيراد شهادة معاصريه فيه واقوالهم في سيرته وأعماله .

وبالجملة فان سعيد بن الحدّاد كان في وقته رأس « المدرسة الكلامية » في افريقية التونسية ، والآخذون عنه ، والمقتدون بمذهبه وآرائه من ابناء البلاد لا يعدون كثرة .

وما أحوج هذا العالم المتكلم الضليع الى ترجمة مفردة تعطينا صورة جليّة عن فحوى المناظرات الكلامية التي كانت تجري في الاوساط العلمية بالقيروان في القرن الثالث للهجرة في شتى المواضيع ، فتنير لنا السبيل عما بلغت اليه الابحاث الجدلية في ذلك العصر ، والجدَلُ - كما لا يخفى - من فروع الفلسفة وملحقاتها .

مصـــادر :

طبقات الخشني ص ١٤٨ و ١٩٨ ـ المالكي ورقـة ٣٢ (خط) ـ معالم الايمان ٢ : ٢٠٢

ابن طـــالب

عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيان التميمي ، ابو العباس ، من بني عمّ الاغالبة ، ومن كبار تلاميـذ سحنون واصحابه ، بل من اجل اعيان مدرسة الفقه المالكي بالقيروان ، رحـل الى المشرق ولقيَ بمصر محمد بن عبد الحكم ، ويونس بن عبـــد الاعلى ، وحجّ ثم عاد الى بلده وتولّى قضاء افريقية مرتين آخرها سنـة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) وسمـع منه خلق لا يحصون ، منهم ابو العرب التميمي المؤرخ ، وابن اللبّاد قـال الخشني في حقه : « كان لَقِناً فَطِناً جيّد النظر ، مشغوفاً بالمناظرة ، يجمع في مجلسه بين المتخالفين ويُغـــري بينهم في المناظرة وربما أباتهم عند نفسـه ، وكان اذا تكلم ابان واجاد فيستحلى السامع لفظه ويستحسـن كلامه حتى يتمنّى ألّا يسكـت ، وكان مجبولاً على كرم النفس مع سماحة الكفّ ، وله اخبار كثيرة مروية في البر والعطاء ، وكان عدلاً في قضائه ، وَرِعاً في احكامه كثير المشاورة لاهل العلم ».

وقد تقدمت الاشارة الى مشـاركته في المنـاظـرات الدائرة في

« بيت الحكمة » بين ابراهيم الثاني وابى عثمان سعيد بن الحدّاد واستشهاد الامير بآرائه ، وله مؤلفات مشهورة منها « الردّ على من خالف مالك » و « ثلاثة أجزاء فى اماليه » وغير ذلك .

ودارت عليه محنة في ايام ابراهيم الثاني فعزله عن القضاء وسجنه في رقّادة ومات في محبسه سنة ٢٧٥هـ (٨٧٨ م) وهو ابن ثمان وخمسين عاما .

مصادر :

الخشني : ١٣٦ و ١٩٨ - المالكي ١ : ٣٧٥ - ابن العذاري ١ : ١١٥ - معالم الايمان : ٢ : ١٠٥ .

ابن عبدون

محمد بن عبدون بن ابي ثَوْر الرُّعَيْني ، ابو العباس ، من اعيان الفقهاء الحنفيين بالقيروان ، تخرّج على القاضي سليمان بن عمران تلميذ أسد بن الفرات ، وبرع في العلوم الشرعية والكلام ، وقد اولاه ابراهيم

الثاني قضاء افريقية بعد عبد الله بن طالب فقام باعباء هذه الخطة نحو الثلاثين شهراً، وكان الامير محباً فيه،شديد الاعجاب به لفطنته وذكائه وقد تقدّم انه كان يحضر مجالس المناظرة برقّادة ، وكان ابن عبدون ذا هيئة جميلة عالية ، وله جملة مؤلفات في الفقه على مذهب ابي حنيفة ، منها كتاب « الشروط » وغير ذلك .

ولما خرج ابراهيم الثاني الى حرب صقلية وايطاليا وخلفه ابنه عبد الله في امارة افريقية أوصاه بابن عبدون وقال له : ـ احفظه لي ، فاغرى بعض جلساء الامير به وقال له ـ كان ابوك دفع اليه الفيْ دينار لعمل أبواب جامع القيروان ، فبعث الامير عبد الله في طلبه وساله عن حساب المال، فاخذ ابن عبدون معه من ماله الفي دينـــار وحملها فلما دخل على الامير قال له : ـ ائتنا بحساب المال الذي انفق في ابواب الجامع ـ فاجابه ابن عبدون : ـ أعز الله الامـير ، لست بصاحب ديوان تحاسبني ، واخرج كيساً من كُمّه وقال : ـ هذه ألفَا دينار من مـــالي فخذها ويكون ثواب عمل الابواب التي بالجامع لي ، وقد عملت بوصية أبيك بي ! فاستحى الامير وقال : ـ والله ! ما ترى مني الا خيراً وصرف له المـال .

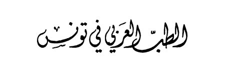
ولابن عبدون نوادر طريفة أورد الاخباريون كثيرا منها ، وهي

تدلّ على فرط ذكائه وغزارة علمه ، وقد اشرنا الى حكاية عنه فى فصل التعليم بجامع القيروان المتقدم .

وكانت وفاته بالقيروان سنة ٢٩٧ هـ . (٩١٠ م) بعد استيلاء الفاطميين على افريقية .

مصادر :

الخشني : ١٨٧ و ٢٣٧ ـ معالم الايمان ٢ : ١٨٧ ـ نفح الطيب ٢ : ١٣٠


الطب العربي في تونس



الطب العربي في تونس

كانت العرب في مبدأ أمرها لا تعرف من الطب الا التجريبي منه، ونقصد بالتجريبي ما حصل لهم معرفته بالتجربة من استعمال بعض النباتات والعقاقير والاستفادة من خصائصها في معالجة الامراض والجروح .

ويشترك العرب في هذا المقدار مع سائر الامم التي نشأت على بساطة العيش في اول نهوضها ، وقد عرف العرب - في شيء من المهارة - مباشرة الحجامة ، والفصد ، والكي ، والكحالة - وهي معالجة امراض العيون - وفيما عدا ذلك لم يكن لهم المام متين بالطب المعروف في زمانهم والمنتشر بين الشعوب المتمدنـــة المجاورة لبلادهم مثل الروم والفرس والهنود ، حتى خرجوا من جزيرتهم في زمان الفتوح وتوسعوا في ممالك العالم القديم ، واختلطوا بغيرهم من اهل الحضارات السابقة ، واشركوهم في مصالح دولتهم الفتية ، ولا سيما الاطباء منهم.

ثم انهم اخذوا في نقل علوم تلك الامم الى لغتهم، وابتدأت حركة

النقل في الاسلام اوائل القرن الثاني للهجرة حيث انهم استعانوا بالسُّريان وسكّان الحيرة المجاورين لارض فارس ، ونصارى الشام ، ورووا عنهم مؤلفات اليونان والفرس ونقلوها الى لسانهم بواسطة تراجمة مدّوهم بكل معونة رغبةً في الحصول على علوم من سبقهم .

وامتدت حركة النقل للمصنفات الطبية وغيرها من مدينة دمشق ـ عاصمة الخلافة الاموية ـ الى بغداد في عهد العباسيين .

وهناكَ بلغت الحركة الى ذروة العناية العلمية من كشف وتحليل وتمحيص وتطبيق الى ان فاقت كل الحركات الثقافية للامم المتمدنة في العالم المعروف وقتئذ .

اما في بلاد المغرب ـ وخاصة في افريقية ـ فان حَمْلة الغزوات والحروب المحلية شغلت العرب عن الاهتمام بالعلوم وتطبيقها الى منتصف القرن الثاني للهجرة ، ولم تبتدىء العناية بذلك الا بقيام الوُلّاة من (بني الُمهَلب) في افريقية . عُمّالاً للخلافة العباسية .

واول طبيب ـ بالمعنى الصحيح ـ يظهر في البيئة الافريقية هو الطبيب السرياني (ابو يوحنا ماسويه) المسيحي النِحلة ، فانه قـدم القيروان في صحبة الامير يزيد بن حاتم المهلبي ـ حدود سنة ١٥٥ هـ ـ

(٧٧٢ م) ـ وزراه يسهر على صحة الامير الجليل ، ويجالسه ، ويتناول الطعام على مائدته ، ويعالج رجال الدولة واعيانها [١]

وكان ابو يوحنا ماسويه هذا ممن تعلّم في بيمارستان (جُنْديسابور) في العراق ، واقام بعد ذلك يباشر المرضى به مدة ثلاثين سنة ، ثم اتصل بهارون الرشيد فخدمه بطبه وعلمه ، ويظهر انه اتصل في تلك الاثناء بالامير يزيد المهلبي الطائر الصيت في النجدة والتدبير والكرم : وهو الذي استصحبه في جملة من استصحب من العلماء الاجلاء الى القيروان [٢] . ولا ندري أكانت اقامة ابو يوحنا فيها الى آخر ايامه ام انه رجع الى المشرق بعد وفاة الامير يزيد ، وهو الغالب على الظن ، والذي نعلمه يقينا انه ترك ولده (يوحنا بن ماسويه) الذي اشتهر في الصناعة الطبية وحاز بعد ابيه شهرة تامّة في بغداد ايام الرشيد والامين والمامون والمتوكل .

فهذا ما وصلت اليه معرفتنا عن الاطباء والعلماء الذين استوطنوا القيروان في القرن الثاني .

---

(١) طبقات ابي العرب ص ٢٩ وقد سماه « يحنى » بدل : أبو يوحنا ـ وكذا : معالم الايمان ١ : ص ١٧٧

(٢) راجع ترجمة (ماسويه) في كتاب طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ١: ١٧١

فقهاء البدن :

وانما كان قبل ذلك وبعده في افريقية أناسٌ من المنتسبين الى علوم الدين و من رجال الجيش يتعاطون شيئا من التطبيب بما اضطلعوا به من التجربة واخذوه بالتقليد الموروث، وكان هؤلاء المتطببين يُطلقُ على كل منهم اسم « فقيه البدن » وقد ساق لنا اصحــاب التـراجم الافريقيون ـ مثل ابي العرب والمالكي والدباغ وابن ناجي ـ جملة من اسمائهم ضمن التعريف بهم ، فيقول ابن ناجي مثلا في ترجمة ابي الاسود موسى القطان : «... وكان فقيه البدن يعني طبيبا » [١] وكذا في ترجمة : دحمان بن معافي [٢] ونصر بن فتح [٣] ، وسواهم .

وليس من شك ان مثل هؤلاء المتطببين كانوا موجودين بين الاجناد يباشرون المرضى والجرحى من المقاتلين في ميادين الغزوات والحروب ، غير انا لا نعلم كثيراً ولاقليلا عن مدى معلوماتهم الطبية ، ولا عن وسائل علاجهم غير ما ذكرنا من خبرتهم بالفصد والكي وجبر العِظام المكسورة بما ألفوه من المعالجة من قديم الزمان. وبديهي انه كان يوجد ايضا بمدائن افريقية (فقيهات البدن) مماثلات للرجال المتطببين

---

(١) المعالم ٢ : ٢٣٠

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٢١٨

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٣٤

وهن من نساء الفـاتحين ومن جاء بعدهم من العرب ، فكنّ يعـالجن أزواجهن وغيرهم من المصابين من أقاربهن بتضميد الجراحات بالاعشاب المناسبة والعقاقير المـألوفة ، مما ورثن خبرته وتجربته عن أمهاتهن وعجائز العشيرة .

ولا خفاء انه من مبدإ ظهور البشرية كان من وظيفة المرأة بل من رسالتها الكبرى في المجتمع تمريض الاولاد والاقـارب ، فـالأمّ هي المعيّنة لمعالجتهم في الصغر وحتى في الكِبَر ، لما أودع الله في طبيعتها من الصبر على ذلك ، ولما خصّها به من عاطفة الحنو والشفقة .

ما هي الدمنة :

وانقضى عصر الوُلاّة ونالت افريقية استقلالها على يد بني الاغلب التميميين سنة ١٨٤ هـ ـ (٨٠٠ م) ـ فعمدت دولتهم الفتية الى تمدين البلاد وتجهيز مدائنها الكبيرة بالمصالح ذات النفع العـام ، فانشات الاسوار والحصون الحربية على السواحل (الرباطات) وفي التخوم: المسالح ، واهتمت بالطرقـات فعبّدت المسالك الرومانية القـديمة ، وأصلحت ما انثلم من الجسور على الاودية تسهيلا لمرور السابلة ، كما اعتنت بـداخل المـدائن ، فنظمت أسواقها ودروبها ومجـاري مياه أوساخها،ثم التفتت الى وسائل المحافظة على الصحة العمومية فاحدثت في كل مدينة كبيرة في القطر مَرِسْتَان او مستشفى للمصابين بالامراض

المُعضلة التي يطول علاجها والتي يخشى منها تسرّب العـدوى الى السكّان .

واول هذه المرستانات هي الدار التي انشئت بالقيروان في ناحية من اطرافها تسمّى « الدمنة » تقرب من المسجد المعروف بمسجد السبت، وانما أُطلق على هذا المستشفى اسم الموضع الذي اقيم فيه البنـاء ، فصار عَلَمًا له،فاقتصر في تعريفه على كلمة «الدمنة»،واسقط اسم «بيمرستان» او « مرستان » اومستشفى ، وربما عرف كامل الحي باسم « حـارة المرضى » (١) .

وجدير بالملاحظة ان المستشفيات التي أحدِثتْ بعد ذلك في المدائن الكبيرة : تونس ، وسوسة ، وصفاقس ، كانت على غرار مرستان القيروان وعلى نظامه وترتيبه،وقدعرفت كلها باسم « الدمنة » تقليداً لعاصمة البلاد واتباعاً لرسومها في التسميات .

نظام الدمنة :

لم يشأ الجغرافيون وأهل الاخبار ان يفيدونا باقل اشارة عن بناية (الدمنة) في القيروان وشكلها وترتيبها ، ولا عما احتوت عليه جدرانها من الاقسام والمنـافع ، لكن باستقصاء ما جاء من النُتَف في شأنها ضمن

(١) رياض النفوس ٢ : ٦٦ (مخطوط)

تراجم بعض الاضراء المصابين بالاسقام المزمنة من بين العلماء والعبّاد النسّاك امكننا ان نستخلص شيئاً يسيراً عن نظامها وتفريعها ، وقد بذلنا الجهد في الاستفادة من تلك النتف المنبثة هنا وهناك رجاء ان يتجمع منها تعريف بسيط يُدرك من خلاله طراز أقدم المستشفيات التونسية .

ومما تجمّع من الاطلاعات والبحث يتبين ان الدمنة كانت بناية في شكل مربّع الاضلاع او مربع مستطيل ، يدخل اليها من باب واحد كبير يفتح على سقيفة طويلة (دهليز) معقود سقفُها على قوس (أزّج) مرتفع ، ويحفّ بجانبي السقيفة غرفتان صغيرتان او اكثر يسكنها حارس ـ او حراس ـ الدمنة ، وعلى طول السقيفة يميناً وشمالاً مصطبتان قصيرتان ملتصقتان بالجدار الاصلي ، يجلس عليهما العوّاد عند زيارتهم للمرضى ، وفي آخر السقيفة باب ثان أصغر من باب المفتح يُفضي الى صحن متسع غير مسقّف ، ويحيط بجوانب الصحن الثلاثة او الاربعة أروقةٌ (مُجَنَّبات) معقودة السقوف،ومن ورائها عدة حُجُرات صغيرة بسيطة معدة لايواء المرضى .

وفي وسط الرواق المواجه للمدخل مكانُ مسجد صغير لاقامة الصلوات للمقيمين بالدمنة .

ومن جهة احد الاروقة يوجد باب مستقل يدخل منه الى دار فسيحة تحتوي على حُجُرات لا ندري عددها ، تشبه لا محالة الحجرات المتقدم

ذكرها ، وهذه الدار كانت تسمى « دار الْجَذْمَاء » لا يقيم بها الا من كان مصاباً بداء الْجُذَام [١] .

ويستفاد من بعض نصوص التراجم انه كان يوجد حَمّام مستقل يغشاه أهلها لتطهير أبدانهم .

ومن المعلوم ان الحمّامات العمومية كانت موفورة في القيروان ، وقد ذكر البكري [٢] - في القرن الخامس - ان عددها يبلغ ثمانية واربعين حمّاما عدى ما كان منها في بيوت السَّرَاة والاعيان ، وحمام الدمنة كان يستمدّ الماء اللازم من بئر عميقة واسعة موجودة في داخل بنائها .

والظن الغالب انه كان يوجد في دمنة القيروان . كما في سواها من المرستانات - صهريج (ماجل) تتجمع فيه مياه المطر ، تستعمل طول

---

(١) راجع معالم الايمان ٢ : ٢٣٥ - ولا يخفى ان الجذام (Lèpre) داء عضال فتاك كان منتشراً بكثرة في سائر انحاء العالم القديم ، ولم يكن له دواء ناجع معروف ، وانما كان يعالج بطريقة التجربة ، وقد قاست من جرائه البشرية - اثناء القرون الوسطى - مالم تعانه من مرض آخر ، ولذلك كنت تجد جميع أمم البحر المتوسط قد اتخذت ضد سريانه وسائل شتى من اهمها عزل المصابين به في ملاجىء خصوصية ، خوفاً من تسرب عدواه الى الاصحاء من السكان ، وقد عرفت هذه الملاجىء في الممالك الافرنجية بأسم (Léproserie) اي « دار الجذماء » .

(٢) المسالك ، ص ٦٦ .

السنة للشراب وطبخ الاطعمة . ووجود هذه المواجل سنّة مألوفة في في سائر الابنية الافريقيـة ـ كما في المحارس والرباطات (١) ـ ومـا زال اتخاذها سُنّة متّبعة في دور السكنى في سائر المـــدائن والقرى ، وحتى في البادية .

وخلاصة القول ان الدمنة كانت تشتمل على ما يحتاج اليه من المرافق الضرورية وان لها جهازاً قائمـــاً بذاته ، كافياً في ذلك الوقت للغاية المطلوبة منه .

وفي تقديرنا ان عـدد الغُرف المعدّة للمرضى بالدمنة كان لا يتجاوز الثلاثين غُرفة ، يشغل كل واحـدة منها المريض الواحد والمريضان او اكثر ، وفي تقديرنا ايضا ان مساحة كل غرفة كانت ستة أذرع طولاً في اربعة عرضاً ، او ما يقرب مما ذكرنا .

اعوان الدمنة

ومما لا شك فيه ان أطباء البلد ، وكذلك « فقهاء البـدن » كانوا يباشرون مرضى الدمنة ويتفقدونهم ويصفون لهم من الادوية ما يناسب علاجهم ، ونعرف يقيناً منهم طبيب الاغالبة المشهور (زياد بن خلفون) الآتي ذكره ، كان يخرج في ايام معينـة الى الدمنـة فيزور من بها

---

(١) المالكي : ٢ ـ ٢١٣ (مخطوط)

وكذا من « بدار الجذماء » للكشف عن المصابين وتتبع سيْر مرضهم وعاهاتهم .

اما فقهاء البـدن ـ وهم كثيرون بالقيروان ـ فكانوا يزورونهم ويعتنون بالمرضى احتساباً لله ورجاء مرضاته .

يضاف الى ما تقدم ان الدمنة كان يشرف على سيرها حَفَظَة قيّمون مهمّتهم السهر على نظامها وعلى راحة المقيمين بها ومراقبة من يزورها من اهل الخارج ، كما نعلم ان نساء زنجيات من السودان كُنّ يخدمن المرضى ويقمن بشؤونهم الضرورية في الغرف وخارجها (١)

وليس لدينا ما يفيد من أين كان يُنفق على القيام بمهات « الدمنة » ؟ فهل كان لها نصيب من بيت المال ؟ أم هي تعيش مما يتبرّع به اهل الخير من الصدقات والاحسان ؟ هذا ما لم نعثر على ذكره ولا الاشارة اليه .

وقصارى ما نعلمه ان الامراء كانوا يوزّعون بانفسهم العطايا الوافرة على اهل الدمنة او يرسلونها اليهم مع مواليهم واتباعهم ، وكذلك كان يفعل اهل الفضل والخير اذ يتبرعون دواما واستمرارا بصدقات من المال ومن الاطعمة من لحم وزيت وخبز على من بها .

اما بنو الاغلب فكانت عنايتهم متجهة بصورة مخصوصة الى الدمنة

---

(١) المالكي ـ رياض النفوس : ٢ ـ ورقة ٦٧ (مخطوط) .

من أيام زيادة الله الاكبر ،وقد جرت عادتهم من ذلك العهد على تخصيصها بالزيارة في ايام المواسم والاعياد الشرعية ويخصون من بها بالاحسانات الكثيرة . قال المالكي [١] .

« وكان امرآء بني الاغلب يأتون (من العباسية) مع وجوه الناس ليلة النصف من شعبان وليلة نصف رمضان الى جامع القيروان ، ويكون فيهما من الصدقات أمر كثير ، ثم يخرجون من المسجد الجامع الى « الدمنة » ويزورون من بها ... » وقال التجيبي :

« كان امراء بني الاغلب يخرجون من الجامع (بالقيروان) الى دور العبّاد والعلماء والمحارس و « الدمنة » بالصدقة،يلبثون بالقيروان يفرّقون الاموال على المساكين والمستورين ... فكان جملة ما أمر به زيادة الله لمن بالدمنة ستمائة دينار ذهباً » [٢] .

وقد صارت زيارة الدمنة عادة مألوفة لمن تولى بعد زيادة الله الاكبر من الامراء الاغالبة الى آخر عهد دولتهم : ٢٩٦ هـ (٩١١ م) ويخيّل لي ان تلك السُنّة الحسنة ظلت متبعة ممن تولى امر افريقية بعد بني الاغلب، اعني من الفاطميين والصنهاجيين ولم تنقطع إلا بخراب القيروان من جرّاء الزحفة الهلالية في منتصف القرن الخامس للهجرة .

---

(١) المصدر المتقدم ١ : ٣١٨ .

(٢) معالم الايمان ٢ : ٢٣٥ و ٢ : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦

ومن ناحية اخرى نعـلم ان كثيراً من اعيان القـيروان ووجوه علمائها كانوا يتعهدون اهل الدمنة ، لا سيما بمناسبة المواسم والاعياد ، ويرفعون اليهم ما يعوزهم من الملابس المناسبة لتدفئتهم ، ومن الاطعمة المحرومين منها لانقطاعهم عن أهاليهم .

فنرى ـ في القرن الثالث ـ صاحب فرن من المشهورين بصنع الخبز الطيب في القيروان ـ يرسل الى اهل الدمنة جملة الخـبز المتحصّل من فرنه . قال الاخباري الخراط :

« بلغني عن هاشم بن مسرور ـ صاحب فرن بالقيروان ـ انه كان ربما أخرج له الخبز من الفرن ، فاذا نظر اليه وأعجبه طيب رائحتـه أمر أعوانه ان يرفعوه باكمله الى الفقراء والاضراء من اهل « الدمنة » فاذا جاءه المشترون للخبز قال لهم : بعناه لمن يوفينا ثمنه وزيادة » [1] .

ونقل الدباغ عمن تقدمه : ان هـاشم بن مسرور المذكور ـ المتوفى سنة ٣٠٧ هـ ـ كان يذهب الى « دار الجـذماء » فيصنع الحلوى في عيديْ الفطر والاضحى ، ويجعل المرضى صفوفاً فيطعمهم ويـدعو لهم ثم ينصرف [2] .

وفي كتب التراجم نصوص كثيرة تشير الى إسعاف المياسير من اهل

---

(١) المالكي ٢ : ٦٨ (مخطوط) .

(٢) معالم الايمان ٢ ـ ٢٣٥ .

البرّ والمعروف لمن كان يقيم بالدمنة من المرضى والمصابين ، وفيما أوردنا ما يكفي للدلالة على عناية الحكومة العربية ـ في مختلف العصور ـ وكذا اهتمام افراد الامة بمستشفى العاصمة القيروانية .

دمنة سوسة :

كان لمدينة سوسة ـ بالساحل التونسي ـ مكانة ممتازة في عصر الدولة الاغلبية ، وذلك بسبب موقع مرفأها البحري من ناحية ، ومن اخرى لقرب مسافتها من عاصمة القيروان ومجاورتها لارضها ، ولم تكن سوسة قبل ذلك العهد الا مرسى بسيطا تقطنه طائفة من البحريين الضعفاء ممن يعـــاني صيد السمك ، ويتعاطى البعض منهم مهنة فلح الارض والاتجار ، ويرجـع هؤلاء السكان باصولهم الى الافارقة ـ ذلك المزيـج من البربر الفنيقيين والرومان والروم .

ولا ننسى ان سائر المرافيء الحربيـة التي استعملها العرب من حين فتحهم لافريقية انما كانت في شمـال البلاد ، أعني : مرسى تونس ومرسى (نوبة) الكائنة في الجهة الغربية من شبه جزيرة شريك [١] ، ، منهـا كانت تصدر الغزوات البحرية طوال عصر الولاة الأمويـين . ولا نزاع ان هذه الموانى الحربية كانت بعيدة عن القاعدة السياسية للبـلاد ـ يعني

---

(١) نوبة ـ مرسى حربي كان بالمكان الذي به الآن ضريح سيدي داوود النوبي وبه المعمل المشهور لصيد سمك التن وتصبيره

القيروان ـ بُعداً يُحرم الامراء المتولين من مراقبة انشاء السفن وتنظيم الاساطيل واعداد الحملات الجهادية التي اعتزموا تسييرها في عرض البحر المتوسط الغربي .

لهذا السبب الاساسي نرى الدولة الاغلبية من اول قيامها توجه كامل عنايتها إلى تجهيز مرسى سوسة تجهيزاً قوياً وتبادر الى جعله في مقدمة المرافيء البحرية الافريقية الاخرى ، وقد اتخذت بها دار صناعة كبيرة لانشاء السفن الحربية لما عقدت عليه النيّة من مدّ سلطانها الى العدوة الشمالية وامتلاك جزائر البحر ، واقل ما هنالك ردّ غارات البيزنطيين البحرية .

وأول عمل قام به الامراء في هذا الصدد هو إحاطة المدينة بسور منيع من الحجارة يحيط بها من جميع جهاتها ، تقع في اطرافه حصون محكمة البناء ، ووضعوا بداخلها محرساً عظيماً للمرابطة اقتبسوا شكله من اخيه المتقدم في السن رباط المنستير ، وقد عُرف بقصر سوسة،وهو اليوم من المفاخر الجليلة للبلاد .

ومن المحقّق ان الاغالبة أحدثوا بعد ذلك في أحياء المدينة ، دمنة (مرستان) على نمط ما كان موجوداً في القيروان ، الا ان هذه ربما كانت أقل اتساعا نظراً لصغر سوسة بالنسبة لعاصمة افريقية الكبرى بعدد قاطنيها،ويتّضح من النصوص التاريخية ان الامراء كانوا يعتنون ايضا بشؤونها ويخصّونها بالزيارة حينما يقدمون لتفقّد مرفاهم الحربي

الكبير ، فيمنحون مرضاها العطايا بين الفينة والاخرى ، ويوزّعون عليهم الهبات والعطايا من المال والاطعمة واللباس ،

ولا يبعد عندي ان المجدّد لمرستان سوسة هو الامير ابو ابراهيم احمد صاحب المباني الجليلة في سائر انحاء القطر الافريقي (من سنة ٢٤٢ الى ٢٤٩ هـ) . ومن المحقق ايضا ان ابنه ابراهيم الثاني قد زار مرات عديدة هذه الدمنة ونفل المقيمين بها باعانات ذات بال تسعفهم على احتمال نوائبهم [١] فنراه مثلا يجتمع باهل العلم منهم ويحادثهم طويلا جبراً لخواطر هؤلاء الاضراء [٢] .

وهكذا اقتضت حكة أمراء بني الاغلب وحسن سياستهم الاجتماعية ان امتزجوا امتزاجاً قوياً بافراد الشعب، واصغوا الى شكواهم واسعفوهم بما يحتاجون اليه من المعونة، ونشأ عن هذا السلوك الرشيد ان اكتسبوا ثقة الامة الافريقية ومحبة الصغير والكبير والغني والفقير بالسواء ، الامر الذي لم ينتهجه غيرهم ممن جاء بعدهم من الملوك والامراء ، وفي ذلك بلاغ.

* * *

---

(١) رياض النفوس ٢ : ١٣ .

(٢) المصدر نفسه .

تأسيس الدمنات :

قلت فيا تقدم اني كثيرا ما تساءلت : متى أحدثت هذه المرستانات في القطر التونسي ومن هو المنشيء لها، وفي الحقيقة اني لم أجد بين النصوص ما يطمئن اليه الخاطر اذ ان الاخباريين اغفلوا التنصيص عليه ، لكن القرائن التاريخية تدل على ان هذا الانشاء قد حصل في اول عهد الدولة الاغلبية ، لأنا نجد زيادة الله الاكبر في مقدمة من زار من الامراء مؤسسة « الدمنة » وانه كان يشملها بعطفه ويحيطها برعايته ، ولم نر من آل بيته من كان يتعهدها قبله بالزيارة ، لذلك السبب يغلب على الظن انه هو الباني الاول لمرستان القيروان .

وغير خفي من ناحية اخرى ان هذا الامير عرف بنشاطه في تشييد المعالم ذات النفع العام كما عرف بمساعيه في تدعيم أسس الامارة الاغلبية وتنسيق قواعدها الادارية والسياسية ، ويكفينا شاهدا على ذلك انه اول من اتجه الى اتخاذ مدينة سوسة (دار صناعة) لتجهيز الاساطيل الحربية،فلا يبعد ان يكون هو ايضا الذي اقام بتلك المدينة مرستانا لايواء المرضى من العساكر البحريين وغيرهم عند ما اختط سائر معالمها الاخرى من اسوار وقلاع ، واذا صحّ هذا التقدير جاز ان نحكم ان هذه المنشآت ترجع بتاريخها الى العقد الثاني من القرن الثالث للهجرة .

على ان هذا الاحتمال لا يمنع من تتابع اتخاذ المعاهد والزيادات فيها

في بقية المدة الاغلبية الغنية بالانشاءات المفيدة النافعة، لاسيما في ايـــام ولاية السادس من امرائهم ، اعني : ابا ابراهيم احمد ، أكبر من اشتهر بالعمارة في مختلف النواحي في مدائن افريقية .

ويتلخص مما سبق ان دمنتي القيروان وسوسة يمكن نسبة تاسيسهما الى الامير زيادة الله الاول ما بين سنة ٢١٠ و ٢٢٠ (٨٢٥ و ٨٣٥ م)

* * *

ومن المناسب ان نشير بلمحة سريعة الى مرستان آخر كان معروفاً ومذكوراً غير المتقدمين ، الا وهو :

دمنة صفاقس

مدينة صفاقس [1] من محدثات الاغالبة ، ولم يثبت ان بمكانها قديما كانت مدينة تذكر ، وما يدعيه علماء الافرنج من انه كان يوجد بموقعها

(١) اصطلح التونسيون ـ من عصر غير بعيد ـ على رسم اسم (صفاقس) بالصاد في اوله وبالسين في آخره ، مع ان المتقدمين كانوا يكتبونه بالسين في الاول والآخر ، ولا ندري ما أوجب هذا التغيير ، لا سيما وان نطقه التونسي الجاري يلفظها بسينين لا بالصاد،وعلى القياس الاول ضبطها رحالو العرب وجغرافيوهم القدماء كالبلاذري ، واليعقوبي (من القرن الثالث للهجرة) وابي عبيد البكري، والادريسي ، والتجاني وغيرهم ـ وليس من شك ان اصل اسم (سفاقس) مقتبس من اللغة الليبية البربرية القديمة وحرف الصاد لا يوجد بها .

الآن قرية تسمى (تبرورا ـ Taparura) فهو محض وهم لا يقرّه الواقع ولا الآثار ، أجل ، ان مكان (تبرورا)التي جاء ذكرها عَرَضاً في عصر الرومان ، لم يزل معروفاً وهو يبعد عن صفاقس بنحو كيلومترين من الناحية الشرقية ، وبه انقاض لِلأول يُعثر عليها الى اليوم .

اما صفاقس الحاضرة فهي بلا ريب من مُنشآت الدولة الاغلبية كما ستراه . وقد افادنا الاخباريون العرب ان مكان صفاقس كان به ـ اول ما كان ـ محرس (رباط) من محارس الساحل البحري احدثه الولاّة العباسيون في منتصف القرن الثاني للهجرة ـ هرثمة بن أعين أو غيره ـ وكان يحتلّ حينئذ من ارضها موضع قصبتها الآن ، وهو الذي عرف فيا بعد « بالبرج الاحمر » قرب الضريح المنسوب الى سيدي جَبَلّة، فيكون ذلك في مكان قصبتها التي اتخذت فيا بعد ثكنة للعساكر ، وحول هذا الحصن كان ينزل ـ فيا مضى ـ أناسٌ من ضعفاء الصيّادين للسمك يسكنون اخصاصاً بسيطة تسمى (بالاعشاش) ، ويظهر ان عمران تلك الجهة كان غزيراً إذ كان يَضمّ في دائرته كثيراً من صغار القرى والضيعات الزراعية ، حسبما كان ذلك مألوفاً في سائر نواحي افريقية القديمة ، فاتخذ سكان الناحية فناء ذلك الحصن للبيع والشراء ، فتألفت من اجتماعهم هنالك سوق اسبوعية تجتمع كل يوم جمعة ويتعاطى الاهالي عرض بضائعهم ، حتى اشتهر المكان وصار يقصده اهل الضيعات القريبة وسكان الجزائر المجاورة كأهل (قرقنة) وحتى من جربة

ومدينة قابس وناحيتها ، وبتوالي الايام تكوّن هناك مرسى بحري ضعيف ، ولم تزل الحال تترق بذلك السوق الى ان آل الحكم الى دولة بني الاغلب ، وكلنا نعلم اهتمامها الشديد بتعمير البلاد وتمصير قُراها .

أسلفنا ان سادس امرائها (ابو ابراهيم احمد) ممن اقبل على اشادة بناءات لا تحصى ذات نفع عمومي في سائر المدائن الافريقية ، ومن اخصّها تخطيط صفاقس وتعميرها وقلبها من سوق قروية حقيرة الى مدينة من الاهمية بمكان .

جاء في كتب التاريخ ان الامير احمد هذا امر قاضي تلك الجهة وهو (علي بن سالم البكري) [1] بتمصير صفاقس ، بعد ان أمده بالمال ورسم له خطة العمل ، أقبل القاضي على تاسيس معالمها الرئيسية وبنى المسجد الجامع في وسط الخطة على ما جرت به العادة المعمارية عند العرب من لدن الفتح ، ثم اختط اسواقاً للتجارة والصناعات والمهن

---

(١) علي بن سالم البكري من بكر وائل ، بطن من قبيلة ربيعة، وهو من اصحاب سحنون بل هو ابنه من الرضاعة ، ارضعته ام محمد بن سحنون مع محمد وهو جد الولي الشيخ ابي اسحاق دفين جبنيانة ، وقرأ بالقيروان وبرع في العلوم الدينية ، فولاه سحنون قضاء جهة صفاقس والنظر في أسواقها ـ حدود سنة ٢٣٤ ـ وكان عدلا في احكامه ذا دنيا عريضة ومنازل كثيرة وهو الذي بنى الرباط المعروف الآن باسم (المحرس) وكان يسمى قديما (محرس علي) نسبة اليه ، وتوفي في حدود ٢٨٥ هـ

(المدارك ٢ : ٣٦ قفا ، مخطوط بمكتبي)

حول الجامع ، ثم نهج المسالك للمرور والشوارع ، تاركا بينها المساحات الكافية لإنشاء الاهالي منازلهم ، ثم ادار بالجميع سوراً متيناً من الطوب المطبوخ (الآجر) وتتخلل السور أبراج تحصينا للمدينة من كل مهاجمة بحرية كانت او برية ، وكان ابتداء التخطيط في سنة ٢٣٤ أو في التي بعدها ، حتى اذا وافى الامير احمد أجله ـ سنة ٢٤٩ هـ ـ كانت صفاقس من المدائن الكبيرة المعدودة في البلاد[1] ، لا سيما وقد اكتنفها من جهاتها البرية الثلاث بساتين معتنى بها لزاعة مختلف الازهار العطرية ، وأجنة لغراسة انواع الفواكه ، ومن وراء الجميع غابات مكتظة بشجر الزيتون تمتد مدّ البصر اميالاً واميالاً حتى صار زيتها الرفيع مما ترتفق به المراكب والسُّفُن الى المشرق والمغرب على السواء .

وقد اطلنا الكلام في تصوير هذا التخطيط ليعلم ان انشاء (دمنة) صفاقس قد كان مع بقية المحدثات حين تعمير المدينة ، ولا شك انها كانت على طراز دمنة القيروان ودمنة سوسة .

وفي اعتقادنا ان ما كان جاريا في هذين المستشفيين كان واقعاً في مستشفى صفاقس من معونة افراد الشعب للمرضى المقيمين به ، فقد حكى المالكي في ترجمة الشيخ ابراهيم القشّاش الصفاقسي ـ

---

(١) مناقب ابي اسحاق للبيدي (مخطوط بمكتبتي) ـ مسالك البكرى ص ١٩ ـ ورحلة التجاني ص ٤٩ ـ ودائرة الانظار لقديش ٢ : ٧٢ ط حجر تونس سنة ١٣٢١ .

ـ المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ـ انه كان يعدّ الحلوى والدهن والطيب فاذا كان يوم العيد ذهب بكل ذلك الى دمنة (صفاقس) فيطيب به اهل البلاء ، ويجعل الحلوى بين أيديهم،فما زال يطعم هذا وهذا حتى يعممهم جميعا ، ويقسم بينهم الني بقي ، ثم يرجع الى داره [١] »

وما من تونسي الا يعلم عناية الصفاقسيين خاصة بشؤون بلدهم ، وتعلّقهم به ، وتسابقهم الى اعمال البرّ المشكورة ، وحميتهم القومية في الدفاع عن مصالح مدينتهم الفيحاء الجادّة في العمل

ويغلب على الظن ان هــذه الدمنة لم يتعطل الانتفاع بها الا بعد الزحفة الهلالية لاختلال الاحوال واضطراب الامور كما اسلفنا آنفا .

ولا يفوتنا ـ ونحن بصدد الكلام على صفاقس ـ ان نذكر انها انجبت طبيباً ماهراً عــاش في القرن الخامس للهجرة ، ممن غفل عن ذكره الاخباريون ، وهو : (عمر بن محمد بن ابراهيم البَكري) الذي تعاطى المهنة في بلده ثم انتقل الى مصر واقــام بها مكرمـاً الى ان توفي عن سن عالية في ربيـع الاول سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) ، قــال في حقه الحافظ السلفي : « له خبرة شاملة بالطب ، وكان من اهــل الادب ، وله بعلم الكلام انس تام [٢] . . . »

* * *

---

(١) رياض النفوس ٢ : ٩٣ (مخطوط)

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ٥ : ٨٧ نقلا عن معجم المشيخة لابي طاهر السلفي

دمنة تونس

ومدينة تونس من منشآت العرب ومحدثاتهم ايضا ، ولم تكن قبل فتحهم للبلاد الاّ قرية حقيرة لا يؤبـــه بها ، ربما لا يبلغ عدد قاطنيها الثلاثمائة نسمة بمثابة أريانة ومنوبة من قرى حضرة تونس أو أقلّ .

نعم ، ورد اسمها الفينيقي الاصل (Thunes ـ تونس) بين القرى التي كانت موجودة في عصر القرطاجنيين ثم في عصر الرومان والروم البيزنطيين ، الا انها لم يكن لها في الحقيقة نصيب كبير من تاريخ البلاد .

فلما عزم القائد (حسّان بن النُّعمان) على حصار قرطاجنة لامتلاكها ـ سنة ٦٩ هـ ـ اتخذ قرية (تونس) قاعدة لمعسكره ، نظراً لجوارها من العاصمة القديمة التي حل عليها وضيّق عليها الخناق حتى اغتصبها وصالح اهلها ، ثم خالف عليه سكانها فاعاد حصارها واستولى عليها للمرة الثانية وخرب بعض قلاعها لئلا تعود للخلاف ، كما هو مبسوط في التاريخ .

وأنف حسان ان يعيد الى قرطاجنة الهيمنة البائدة باتخاذها مقراً لجيشه ، وذلك لاسباب سياسية وحربية معاً ، فاختار بدلاً عنها تونس وترك قرطاجنة وشانها ، ومنذ ذلك الحين طرقها الوهن والخراب .

وقد ابتدأ حسان في تعمير تونس تعميراً بسيطا مناسبا لضروريات الجيش،واول عمل أمر به هو حفر خليج متسع يصل بُحيرتها بماء البحر من جهة (رادس) من ناحية ، ومن جهة (حلق الوادي) من ناحية اخرى ، وهذا لم يكن موجودا من قبل ، ومنذ ذلك الوقت صارت السفائن البحرية ترسو في ميناء تونس ، وهكذا اتصلت تونس مباشرة بالبحر المتوسط ، وانما قام حسان بهذا العمل الجليل ليتسنى للفاتحين تاسيس اول (دار صناعة) في الاسلام لانشاء الاساطيل ولدفع غارات الروم على الساحل الافريقي [١] .

ومن آثار حسان في تونس اتخاذه مسجداً بسيطا عُرف باسم « الزيتونة » ويظهر انه أحلّه مكان معبد متواضع للرومان ولنصارى البيزنطيين من بعدهم ، ويقال انه كان بفنائه شجرة زيتون فنسب المسجد الاسلامي اليها .

ومن ذلك الحين دبّ التمصير العربي في تونس وناحيتها ، وتتابع في عصر الولاة الأمويين ثم العباسيين ، وما من وال الا يزيد في معالمها ويوفّر لها أسباب الحضارة ووسائل التمدين حتى أصبحت بعد حين من مدائن المغرب الكبرى .

وجدير بالذكر ان تونس كانت اثناء تلك المدة المعسكر الكبير

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

للجنود العربية على حين كانت القيروان القـــاعدة السياسية الادارية للبلاد ، فهذا المركز المختار جعل تونس ثانية العـــواصم الافريقية ، وقديروى ان ابا جعفر المنصور كان اذا ورد عليه بعض أعيـان افريقية يسأله : « كيف حال احد القيروانيْن ؟ » يعني مدينـة تونس ، كيف لا ؟ وقد استوطنها مدةً قبل ان يلي الخلافة العباسية .

ولما آل حكم البـلاد الى بني الاغلب ، صرف أمراء هذه الدولة عناية خاصة لتمـــدينها فانشاوا في أعـلاها ـ ناحية القصبة الآنـ ـ قصراً لسكناهم يُعرف (بدار الامارة) ، مثلما كان يوجد في القاعـدة الاخرى ، وأداروا المدينـة بسور حصين واتخذوا بها قصوراً اخرى للنزهة والراحـة فى وسط حـــدائق وبساتين فيها اصنـاف الثمار والرياحين [١] وكانت هذه المنشآت واقعة خارج باب قرطاجنّة بمكان يسمى قديما (سواني المَرْج) .

وفي منتصف مدة الاغالبـة اعتنى الامير احمد ـ سادسهم ـ بشان تونس ، فاوسـع جامعها (الزيتونة) وزانـه بما هو عليه الآنـ من الزخارف والنقوش والكتابات الكوفية ، حسبما يشاهد على جـدران محرابه وقبته الى الآن .

ولا يخالجنا شك ان هـذا الامير البنّاء الكبير ، جهّـز تونس

(١) مسالك البكري ، ص ٤٠

(بمرستان) نظير ما فعل في صفاقس ، وقد وردت الاشارة الى وجوده في غضون ترجمة بعض العلماء المنتسبين الى تونس [١] . ولا يبعد عندي ان محله كان في ناحية الحي المرتفع المعروف الآن (بالمركاض) في الجهة الغربية من المدينة ، ويؤيد احتمالنا ان هذا الحي - اي المركاض - كان يعرف فيما مضى « بربض المرضى » [٢] . وهذه التسمية وحدها تدل دلالة قوية على ان المرستان الاغلبي كان واقعا هناك .

اما بقية المدائن الافريقية . مثل (قابس) و (توزر) و (باجة) و (قفصة) وان كانت ايضا محل عناية الدولة العربية - فليس لدينا ما يثبت انه كان بها مرستانات في العصر الذي نتكلم عنه . ولايجوز التكهّن بوجودها ما لم نعثر على نص تاريخي صريح .

واذا ما تيسر تحقيق المكان الذى تحله « الدمنة » من القيروان فليس من السهل ان نعين عن كثب أين كانت تقع مرستانات تونس ، وسوسة ، وصفاقس وذلك لما اعترى معالم هذه المدائن من التغير الكبير والانقلاب في عمرانها القديم .

ولربما تسمح لنا وثائق تاريخية يعثر عليها . اوآثار جديدة تكتشف بتحديد مواقع تلك المعاهد الصحية وترشدنا الى نظامها الداخلي ولاسيا

---

(١) المدارك لعياض ج ٢ (مخطوط)

(٢) مسالك البكري ص ٤٠

مدى أثرها في البيئة الاجتماعية التونسية ، وحينئذ نعرف قيمة الرسالة الانسانية التي قامت بها طوال ذلك العصر .

وخلاصة القول ان الدولة العربية ـ وبخاصة الاغلبية منها ـ بذلت غاية الجهد في تجهيز البلاد تجهيزاً عمرانياً قوياً يساير روح العصر لان تكون فى صفّ الممالك الاسلامية الكبيرة الاخرى أعني : مصر والشام والعراق . وفوق كل ذي علم عليم .

الفصل الثاني

مشاهير الأطباء التونسيين

في البحث المخصص « لبيت الحكمة » أوردنا جملة مختصرة من تراجم الاعلام الذين كانوا يترددون على هذه المؤسسة ، والذين كانوا يلقون بها الدروس والمحاضرات في العلوم الطبيعية من طب وفلك وحساب وهندسة وفلسفة ، وكذا الذين يشتغلون بالمسائل اللغوية او ينقلون للمتلمذين روايتهم عن دواوين الشعراء المتقدمين والمعاصرين .

وقد ذكرنا هناك ايضاً أعياناً من الاطباء الذين مهّدوا السبيل لظهور مدرسة طبيّة جديرة بالتقدير اشتهرت من ذلك الزمان باسم (المدرسة القيروانية) .

وعرّفنا اجمالاً ببعض اساطينها مثل الحكيم الكبير (اسحاق بن عمران) ومعاصره وصاحبه (اسحاق الاسرائلي) ومثل الاطباء الاولين من آل الجزّار القيروانيين .

ويناسب أن نأتي عقب هذا المقال بثُلّة أخرى من الاطباء التونسيين

الذين لم يسبق التعريف بهم ممن لم يزاولوا الدراسة ببيت الحكمة مباشرة لكنّهم استفادوا من دراسات متقدميهم وانتفعوا بما تركوا من تجاريب ومصنّفات .

وسيرى القارىء من خلال هذه التراجم لِأيِّ حدٍ من التقدم العلمي والرقي الفني بلغت مدارك هؤلاء الاطباء،وقد تُرجمتْ مؤلفاتهم ونتائج تجاريبهم الى عدة لغات أجنبية،فكانت من أهم العناصر وأقوى الوسائل لانطلاق النهضة الاروبية في القرون الوسطى .

دونش

أبو سهل دونش ـ ويُدعى عند اليهود أدُنيم ـ بن تميم ، ويُنْعَتُ بلقب الشَّفْلْجي (؟) الاسرائلي ، قدِم أوائله من العراق الى افريقية في غرض التجارة في عصر الدولة الاغلبية ، وولد دونش بالقيروان أواخر القرن الثالث للهجرة ، ونشأ نشأة علم وبحث ، فقرأ على كبير أطباء وقته اسحاق بن سليان الاسرائلي ، وكان دونش أصغر منه بنحو عشرين سنة ، وتخرّج عليه في الطب والفلسفة والحساب والنجوم حتى برع في جميعها ، وأتقن العربية اتقاناً جيداً ، كما برع في اللغة العبرية ، وتفقّه في الشريعة الموسوية حتى عُـدَّ من كبار أحبارها وصارت الفتوى تأتيه من بعيد ، من يهود الاندلس ومصر والعراق .

واتصل دونش بخدمة الامراء العبيديين ، فخدم اسماعيل المنصور وابنه المعز لدين الله قبل انتقاله الى مصر ، ووضع كثيراً من التآليف في الطب والحساب والنجوم ، وقدّم جانباً منها الى مخدوميه المنصور وابنه المعز .

ودارت بين دونش وبين أحبار اليهود بالاندلس مراسلات في مفهوم مسائل عويصة من شريعتهم ، أو في حساب مواقيت أعيادهم ومعرفة سِني تاريخهم ، وكان القول الفصل في النهاية له ، ومن وجوه

المحاطبين له من الاندلس الحكيم (حَسْدَاي بن اسحاق الاسرائلي) طبيب الامير الحَكَم الثاني بقرطبة .

ومما يؤسف له ان غالب المؤرخين واصحاب الطبقات غفلوا عن التعريف بدونش ، وتوصلنا الى شيء من اخباره من خلال مصنفاته ، لكنّا لم نقف على تعيين سنة وفاته ، والظن الغالب انها كانت في حدود عام ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) لانه لم يتحوّل فيما علمنا مع مخدومه المعزّ لدين الله الى مصر كما فعل بقية الاطباء والحكماء .

وروى سعدية بن دنان الطبيب الاسرائلي الغرناطي ان بعض العلماء زعم ان دونش مات على الاسلام ، ولا ندري مقدار صحة هذه الرواية. والامر الذي لاشكّ فيه هو ان اليهود ـ وكذا المسيحيين ـ كانوا يعيشون في افريقية ـ وفي القيروان خاصّة ـ في الخمسة قرون الاولى للهجرة في أمان تامّ ، ويتمتّعون باتباع عقائدهم وتقاليدهم وعاداتهم ، ولهم بِيَعٌ وكنائس لصلواتهم في العاصمة وفي غيرها من المدائن الكبرى ، ولهم كذلك مقابر خاصّة بهم وقد عثرنا على بعض بقاياها [١] .

ولا مراء ان دونش كان يجيد العربية كاحد ابنائها إذ كانت لغة

---

(١) كان للطائفة الاسرائلية بالقيروان ـ اثناء الخمسة القرون الاولى للهجرة حارة لسكناهم في ناحية باب ابي الربيع تسمى (اليهودية) ـ المالكي ٢ : ١٥٠ ـ وكذا كان لهم سوق معروفة بهم (سوق اليهود) ـ المالكي ١ : ١٣٩ ـ

كما كان للمسيحيين حي خاص بهم وكنيسة تقام فيها الطقوس الدينية ، ولكل من الطائفتين مقبرة مستقلة بهم كما اثبتناه في غير هذا المقال .

ثقافته ، فكل ما كتبه انما كان بواسطتها الاّ في البعض القليل من من مصنفاته ، مثلما فعل فيما كتب عن بيان المشابهة القوية الموجودة بين اللسانيْن العربي والعبري ، فانه كان يمزج الكتابتيْن للاستدلال على تقارب مفردات اللغتيْن، وبحثه في هذا الغرض الهامّ جعله في مقدمة الذين حاولوا اثبات الاشتراك الاصلي بين اللغتيْن ، وبمقارنتها أمكنه ارجاعها الى أصل مشترك واحد ، وهي الدوحة التي أُطْلِق عليها فيما بعد اسم : الاصل السامي .

قلنا انالم نر من ترجم حياته ، الّا ان ابن البيطار الطبيب الاندلسي طالما يورد اسمه وينقل عنه في وصف بعض النبـــاتات في مثل كلمة (جنطيانا) و (زنجبيل) و (ورد) وغيرها .

ولدونش من التآليف :

١ ـ كتاب « التلخيص » في الادوية المفردة ، وهو الذي ينقل عنه ابن البيطار ، وفي آخر هذا التصنيف بيان للاوزان والمكاثيل المستعملة في المادة الطبية في زمانه .

٢ ـ كتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار ، وهو من أقدم المصنّفات في الموضوع .

٣ ـ كتاب في الفلك وحركة الكواكب ، كتبه الى حبيبه أبي يوسف حسدايْ طبيب الامير الحـــكم بقرطبة ، وفيه تعديل السنين الشمسية بحساب الشهور القمرية .

٤ ـ مصنّف كبير في علم الفلك قدّمه الى مخدومه المنصور بالله بن القائم الخليفة الفاطمي ،

٥ ـ المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية ، وقد سبقت الاشارة اليه وانه مكتوب بالعربية ويتخلّلها أحيانًا كلمات بالعبرانية ، وقد نقل عنه الطبيب الغرناطي موسى بن عرة الاسرائيلي في كتابه « المحاضرة والمذاكرة » نُبَذًا في بيان تلك المقارنة ، وهذا التاليف الاخير موجود .

٦ ـ شرح على (سفر يَصيرًا) أي سفر التكوين الذي هو من دعائم الشريعة الموسوية ، وكان وضع دونش لهذا الشرح في خلال سنة ٣٤٥ (٩٥٥ م) ، وأصله محرّر بالعربية الفصحى ثم حوّله بعض الاسرائليين بعد ذلك الى الحروف العبرية ، وهذا النقل موجود في عدة من مكتبات أروبا ، اما الاصل العربي فلا أثر له اليوم .

ولدونش رسائل كثيرة محفوظة في المكتبة البُدْلَيية باكسفورد ، وكلّها حوّلت أيضاً الى الحروف العبرية ، وبقيت لغتها المكتوبة فيهاهي العربية ، وها هي أسماؤها : ـ كتاب « المستلحق » ـ ورسالة « التنبيه » ـ ورسالة « التسوية » ـ ورسالة « التقريب والتسهيل » ـ ورسالة « اللُّمَع » ـ ورسالة « الاصول » ـ وربما كان له غير ما ذكرنا مما لم نقف على تسميته .

مصـــادر :

جامع المفردات لابن البيطار ـ مقـــالة نشرها المستشرق Munk في المجلة الاسيوية الفرنسية سنة ١٨٥٠ ج ٢ ص ٥ وما بعدها .

ابن العـــزار

موسى بن العزار ـ وقيل العازر والعيزار ، والصواب عنـدي : العَزار ، كما هو في اللغة العبرانيـة ـ طبيب اسرائيلي كان هو وآل بيته في خدمة الدولة الفاطمية بمثابة ما كان آل بختيشوع لدى خلفاء بني العباس في بغـداد ، ومن حديث ساقه ابو الفضل جعفر بن علي الحاجب في « سيرة المهدي » يلوح أن موسى هذا كان وصوله الى المهدية من ضمن الغنائم التي غنمها جعفر بن عبيد ـ احد موالي الفاطميين ـ وقد اخرجه المهدي في اسطول عظيم لحرب بلاد ايطاليا الجنوبيـة ففتح اماكن كثيرة ، منها مدينة واري (Oria) [(١)] سنـة ٣١٣هـ (٩٢٥ م) ، قـال : جعفر الحاجب في سيرة عبيد الله : « واخـرج المهدي جعفر بن عبيد الى بلاد الروم ففتح مدينة عظيمة تعرف (بواري) وغنم غنائم عظيمة منها ، وكان موسى طبيب المنصور بالله والمعز لدين الله والعزيز بالله من جملة غزوة واري هذه المدينـة » واذا صحّ ان موسى المـاسور هو موسى بن العزار فيكون قد عمر طويلا اكثر من ثمانين عاما . وترك موسى ابناء انتقلوا مـــع الفاطميين الى مصر ، وقـد اشتهر من آل العزار :

---

(١) مدينة (أوريـا) Oria ـ ويسميها العرب (واري) واقعة بـبلاد قلورية Calabria تقع على مسافة ٣٠ كيلومتر من مدينة طرنطة (Tarenta) في الجنوب الإيطالي .

= ١ = موسى، ابو ابراهيم، مؤسس البيت، قال ابن أبي أصيبعة : مشهور بالتقدّم والحـــذق في صناعة الطب ـ وقـال ابن القفطي : ان موسى كان طبيباً عالماً بصناعة العلاج وتركيب الادوية وطبـائع المفردات، وركب للمعـــزّ أدوية كثيرة منها « شراب التمر هنـدي » وهو اول من ركبه واشترط فيه شروطا كثيرة وصحّت، كما ألّف له ايضـــا « شراب الاصول» المفتّح للسدد والمحلّل للرياح الشراسيفيةوالامغاص العارضة للنساء عند حضور الطمث،الى غير ذلك من المنافع التي تكفّل ابن القفطي بتعدادها .

ذكرنا ان موسى كان في خدمـة المعز لدين الله وكان يلازمه في مقـــامه وفي سفره، فنراه تارة يصحبه الى المنصورية وتارة الى المهـدية، وكان للمعز ثقة تامـة في علم طبيبه ويعمل بوصفاته ومستحضراته الطبية .

حكى ابو علي منصور العزيزي، قال [1]

« تأخّر الاستاذ جوذر مرة عن حضور مائدة الامير وعن التصرف، فكتب اليه المعز بخطه « ... وعندنا ترياق عمله موسى لمثل هذه العـــلّة التي بك، واختبرناه فرأيناه من

(١) سيرة الاستاذ جوذر، ط مصر ص ١٠٨

العجائب ، كرهنا أن نهجم بـه عليك حتى يتبيّن لنا حقيقة علّتك،فلما كان الآن ذكر لنا موسى انه من أنفع شيء لك ، وإنا إن اعطيناك شيئاً منه ظهر نفعه ... فبعثنا اليك منه في بُرْنية فِضّة ، فخذ منه وزن مثقال بماء أصول الامزاج المطبوخ فيه حتى يستخرج قوّته ، فاذا عُمِل به ذلك أُخِذَ من مائه نصف رطل ووزن أوقيّة من عقيد العنب ، يجعل الله لك فيه الشفاء والعافية . »

واورد ابو بكر المالكي حكاية لموسى دلّت على مكانته المتينة من المعز وعلى مهارته في معالجـة امراض العيون في القيروان (معالم الايمان ٣ : ٨٣) وقـد غفل كل من ابن أبي أصيبعة والقفطي عن ذكر وفاة موسى غير انهما اتفقا على انتقاله مع المعز الى مصر واستقراره بها وانه مات بعد ٣٦٣هـ

ولمـــوسى من التآليف :

(١) « المُعِزّي » في فن الطبـخ ، ألفه لمخدومه المعزّ ووسمه باسمه، كما فعل الرازي اذ سمى كتابه « المنصوري»

(٢) « السُّعَال » وهي مقالة أجاب بهـا سؤالا عرضه عليه أحـد الباحثين عن حقائق العلوم .

(٣) « الاقْرَاباذين » ــ أي الصيدلة ــ في جزء .

وكان لموسى أبناء تخرجوا عليه واشتغلوا طول حياتهم بالطب واشتهروا به وكانوا في خدمة المعز ايضا ، وهم :

= ٢ = عون الله بن موسى ، ويظهر انـه اكبر اولاده ، اعتنق الاسلام واستمر على الاشتغال بالطب مع والده وانتقل ايضا مع المعزّ الى مصر وبها كانت وفاته في ١١ صفر ٣٦٣ .

= ٣ = اسحاق بن موسى ، قال ابن أبي أصيبعة : كان جليل القدر عند المعز ومتولياً أمره كله في حياة أبيه ، وتوفي في ١٢ صفر ٣٦٣ ـ يعني بعد انتقاله الى مصر باقل من سنـة وبعد أخيه المتقدم بيوم واحـد ـ واغتم المعزّ لموت اسحاق لمكانته عندَه ولكفاءته . (راجع اتعاظ الحنفاء للمقريزي ٩٧)

= ٤ = اسماعيل بن موسى ـ أخو المتقدمين واصغر منهما سنّاً ، نصبه المعز مكان اخيه اسحاق واتخذه من جملة اطبائه الخصوصيين

= ٥ = يعقوب بن اسحـاق بن موسى ـ اشتغل مـع عمه المتقـدم بالطب في خدمة المعز تحت نظر جده موسى .

وانا لنأسف كثـيرا من اهمـال ـ أو اغفـال ـ المؤرخين وأصحاب الطبقات لتراجم علماء اجلاء مثل هؤلاء الاطبـاء حتى أننا لا نجد من اخبارهم الا نُتفاً مبعثرة هنا وهناك لا تشفي غليلا ، ولا تكون لمعرفتهم دليلا .

مصادر : طبقات الاطباء ٢ : ٨٦ ـ اخبار الحكماء : ٢١٠ .

اعين بن اعين

ومن الاطباء الافريقيين في العصر الفاطمي ، الطبيب الكحّال (أعيُن بن أعين) ولا نعلم من اسمه اكثر مما ذكرنا ، وقد غفل المؤرخون عن التعريف به ، كان يحترف في القيروان بالصناعة الطبية وخاصة بطب العيون ـ وهي الكحّالة ـ في مدة المعز لدين الله ، واشتهر بالمهارة في معالجة الرمد المزمن ، وشفي على يديه خلق كثير من المصابين به مثل الشريف احمد بن عوانة وابنه ، وشيخ المالكية عبد الله بن أبي زيد الفقيه . ويظهر انه كان على اتصال أكيد بالبلاط الفاطمي ورجاله حتى انه انتقل في جملة المعز الى مصر واستقرّ بها وتعاطى هنالك مهنته ، قال ابن أبي أصيبعة « كان طبيبا متميّزاً وله ذكر جميل وحسن معالجة » وتوفي في شهر ذي القعدة سنة ٣٨٥ هـ (ديسمبر ٩٩٥ م) في ايام الخليفة العزيز بالله بن المعز .

لـــه :

١ ـ كتاب « أمراض العين ومداواتها »
٢ ـ « كُنّاش » في الطب .

مصـــادر :

طبقات الاطباء ٢ : ٨٧ ـ المالكي ٢ خط ـ وابن ناجي ٣ : ٨٣ و ١٩١

احمد بن الجزار

ولنختم هذه التراجم بالتعريف بحكيم جليل هو الدرّة الفريدة من القلادة واحدى المفاخر الدائمة للعلوم للبلاد التونسية بل للعالم العربي باسره ،ونعني به احمد بن ابراهيم بن أبي خالد بن الجزّار. ويكنى بابي جعفر،ثالث الاطباء من أسرته الفاضلة . ولد بالقيروان في حدود عام ٢٨٥ (٨٩٨ م) على عهد الامير ابراهيم الثاني من بني الاغلب، واخذ عن عمه وأبيه . وصحب كبير أطباء القيروان في عصره اسحاق بن سليمان الاسرائيلي المتقدم واستفاد من تعليمه كثيراً كما يذكره في مصنفاته،وبرع أحمد في غير ما علم لاسيما فى الطب والطبيعة والفلسفة والتاريخ،وكان في زمن دراسته على غاية من الاجتهاد في البحث وحبّ الاطلاع والمواظبة . قال الطبيب ابن جلجل :

« كان ابن الجزار من اهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم . حسن الفهم لها » .

ولما آنس من نفسه حصوله على الملكة الكافية والتدربة المطلوبة فتح باب داره لمعالجة المرضى،وربما كان ذلك باشارة من ابيه وبالاجازة من معلّميه .

يستفاد مما حكاه ابن جلجل وغيره انه كان قد بنى عند باب داره

محلاً مستقلاً لعيادة الزائرين ، واتخذ فيه قسماً خاصاً للصيدلة أقعد فيه غلاماً له يسمّى « رشيقا » أعد بين يـــديه جميع الادوية من معجونات وأشربـة ومَرَاهِم وغير ذلك من المستحضرات ، فـــاذا زاره المريض يفحصه مليًّا ثم يصف له ما ينـاسب من الادوية ويكتب ذلك في ورقـة يتحوّل بها المريض الى « رشيق » فيعطيه الدواء المشار به ويقبض الثمن ، وكان أحمد يتفقد في كل يوم قوارير الادوية ويرى ما نقص منها ويخرج من داره الى تابعه رشيق مقدار الادوية الناقصة ، ويحاسب غلامه على ما قبض من ثمن الادوية المباعة ، نزاهةً بنفسه ان يأخذ من أحد شيئًا .

قال ياقوت : «وكان له معروف كثير.وأدوية يفرّقها على الفقراء» يعني يوّزعها على المعوزين بغير ثمن احتساباً لله

وحكى ابن جلجل : « حدثني عنه من أثق به قال : كنت عند ابن الجزار في دهليزه وقد غصّ بالناس اذ أقبل ابن أخي القاضي النعمان ، وكان حدثاً جليلا بافريقية يستخلفه القاضي اذا منعه مانع عن الحكم ، فلم يجد في الدهـــليز موضعاً يجلس فيه الا مجلس أبي جعفر . فخـرج أبو جعفر فقام له ابن اخي القاضي على قدم فما أقعده ولا أنزله ، وأراه قارورة ماء كانت معه لابن عمه ولد القاضي النعمان ، واستوفى جوابـه عليها وهو واقف ، ثم نهض وركب وما كدح ذلك في نفسه ، وجعل يكرّر المجيء اليه بالمـاء في كل يوم حتى بُرِئَ العـليل ـ ابن النعمان القاضي » ـ قال ابن جلجل : قال لي الذيحدثني : فكنت عنده ضحوة

نهار اذ أقبل رسول النعمان القاضي بكتاب شكره فيه على ما تولىّ من علاج ابنه ومعه منديل بكسوة هدية وثلاثمائة مثقال ، فقرأ ابن الجزار كتابه وجاوبه شاكراً ولم يقبض المال ولا الكسوة . فقلت له : « يا أبا جعفر ، رزق ساقه الله اليك ، فقال لي : ــ والله ، لا كان لرجال مَعَدّ ــ الخليفة الفاطمي ــ قِبَلي نعمة »

اتفقت كلمة من ترجم لاحمد بن الجزار انه كان قد اخــذ لنفسه ماخذاً عجيبا في سمته وهدْيه . وانه لم يحفظ عنه مدة حياته زلة قـط . ولا أخلد الى لذّة . وكان يشهد الجنائز والاعراس ولا يأكل فيهـا ، ولا يركب قط لاحد من رجال الدولة ولا الى سلطـانهم ، إلاّ الى ابي طالب احمد بن عبيد الله المهدي ، عم الخليفة المعز ، وكان له صديقاً قديماً،فكان يركب اليه يوم الجمعة من كل أسبوع لا غير. وزاد ياقوت « انه لم يكن يقصد احداً الى بيته » لعلو همته وصيانته .

ولربما يفهم من ذلك انه كان متكبّراً ومعجباً بنفسه ، بل الامر الواقع انه كان على خلاف ذلك ، وقد تقدم انه كان يشهد جنائز الفقراء ويحضر أعراسهم . ومن عادته انه كان ينهض في كل عام الى المرابطة فيذهب الى المنستير ــ وهو الرباط المشهور الــبركة ــ فيكون هنالك طول أيام القيْظ ، ثم يعود منه الى القيروان على ما جرت به عادة العلماء الزّهاد المتواضعين . وقد سبق ان تكلمنا على بعض من كان يرابط فيه مثل سحنون وابنه محمد وسواهما كثير . وبالجملة لو أردنا استقصاء اخبار

احمد بن الجزار من الشيء القليل الذي وصل الينا لطال بنا الكلام ، ويكفي للدلالة ما نقلنا من كلام المتقدمين فيـــه وما وصفوه به من الصفات النـادرة كقول ياقوت : « كان احمد طبيبا حـاذقا دارساً ، كتبه جامعة لمؤلفات الاوائل ، حسن الفهم لها ، وكان مع حسن المذهب صائناً لنفسه » .

ورأيت عبارة أوردها المالكي عَرَضاً في كتابه « رياض النفوس » تشير الى ان ابن الجزار ربما كان يميل الى شيء من التشيّع . حيث قال: « كان ابن الجزار الطبيب على خلاف السنة » [1] وقـد لا يبعد ذلـك اذا علمنا انه وضع تاريخا خاصاً لمبتدأ دولة الفاطميين الشيعة بافريقية . ويؤيده ايضا الصحبة الاكيدة التي كانت تربطه بأبي طالب عمّ المعز . وهو من وجوه رجال الشيعة ، وربما كان مَيْله هـذا لآراء الشيعة هو السبب الذي حمل اصحاب الطبقات من الافارقة المالكيين على التغافل عن إيراد ترجمته في مصنفاتهم ، لانا لم نر من بينهم من تكلم عليه لا بالكثير ولا بالقليل . واول من اطـال في التعريف به هـو الطبيب الاندلسي سليمان بن حسّان المعـروف بابن جلجل ، فجـلّ اخباره منقولة عنه مع العلم بأن ابن جلجل قَرَأ الطب على بعض تلاميذ ابن الجزار .

ومهما يكن من اهـــال أصحاب الطبقات لترجمته فان الاطباء

---

(١) رياض النفوس للمالكي - ج ٢ خط

التونسيين لم يرتابوا في تقدير علم ابن الجزار الواسع وتعظيم قدره، وبالاخر الانتفاع بفوائده الغزيرة . فقد قال الطبيب أحمد الحجيري ـ من الاطباء التونسيين في القرن العاشر للهجرة ـ في « تحفة القادم » من تآليفه :
« ان غالب المصنفات الكبيرة التي تنظر في علم الطب ، مصنّفوها من غير هذا الاقليم الافريقي ، كابن سينا والرازي والمجوسي وغيرهم، والمناسب النظر في هذا الاقليم في تصانيف ابن الجزار لانه افريقي، اما سائر كتب الطب فلا ينبغي لغير الطبيب الماهر المداواة بنصّها على ما هي عليه الا بعد مراعاة قدر اختلاف الطبائع واعتبار الاقطار وتأثير الادوية في قطر دون قطر ، بحسب اختلاف عروض الاقاليم والعادات ... الخ »

ولا مشاحّة ان تآليف ابن الجزار نالت شهرة بعيدة المدى حتى في مدة حياته . فهذا كُشَاجم الشاعر المشهور ـ ولم يدخل القطر الافريقي ـ يقول في مدح ابي جعفر احمد ويصف كتابه « زاد المسافر » :

أبا جعفر أبقيتَ حيًّا وميّتاً ... مفاخر في ظهر الزمان عِظاما
رأيتُ على « زاد المسافر » عندنا ... من الناظرين العارفين زِحاما
فايقنتُ أن لو كان حيًّا لوقته ... يُحَنَّا لما سمّى التمام تماما [1]
سأحمد افعالاً لاحمد لم تزل ... مواقعها عند الكرام كراما

والواقع ان من يستعرض ما صنّفه ابن الجزار من الكتب في غير

(١) يشير الى الطبيب البغدادي الطائر الصيت : يحنا بن ماسويه

المادة الطبية ومن ابحاثه فى التاريخ والفلسفـة والادب ، يتبيّن ما كان لهذا الفذ النابغ من الثقافة الواسعة الافـق ومن قوة العارضة مما يجعله مفخرة من مفاخر عصره ، ويكفيه مزية عن ابنـاء العربية ان مؤلفاته الطبية ـ لا سيا زاد المسافر ـ حازت من العناية بها في القارة الاوروبيـة ما جعلها تُتَرجم الى سائر اللغات العلمية المنتشرة فيها حينئذ ، وتُتَّخذ أصلا متيناً للبحوث من لدن الاطباء الافرنج في القرون الوسطى . فقد ترجمت الى اليونانية واللاطينية والعـبرية . واخيراً الى الفرنسيـة . كما ستراه عند ذكر مصنفاته

ولا ننس ان ابن الجزار لم يفارق بـــلاده قط فيا علمنا ولم يتعلم في غير وطنه ، والامر الوحيد الذي نقل في ترجمته انه كان همّ في وقت ما بالرحلة الى الاندلس . ولم ينفّذ ذلك .

وعاش ابن الجزار موقّرا محترماً في البيئة التي قضى فيهـا حياته الطويلة وقد بلغ من العمر الثمانين وربمـا جاوزها . ومات عتيـًّا بالقيروان في خـلال سنـة ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) على مـا رواه المحقق ابن العذاري نقلاً عن الرقيق فيما اظن .

وقد حصل اضطراب كبـير بين من عَرَّفوا بـه في تعيين تاريخ وفاته . فقد قال ياقوت انه « كان في ايام المعز لدين الله في حدود سنة ٣٥٠ هـ او ما قاربها » وقال الحاجي خليفـة في كشف الظنون وكرّرها مراراً « المتوفى بعد سنة ٤٠٠ » وهـذا لا يصحّ اصلا . وآخر

من ذكر ذلك المستعرب بروكلمان وجعل موته في سنة ٣٩٥ هـ ـ نقلا لا محالة عن غيره . والصواب ما اثبتنا آنفا .

وترك احمد ثروة لا يستهان بها . قال ابن ابي أصيبعة : « وجد له أربعة وعشرون الف دينار ذهباً . وعشرون قنطاراً من الكتب بين طبيّة وغيرها » .

ومن اشهر الاطبـــاء الذين تلقّوا العلم والعمل عن ابن الجزار (ابو حفص عمر ابن بريق الاندلسي) فانه قـدم الى القيروان ولازمه مدّة ، واخذ عنه الصناعة وروى عنه تآليفه ثم عـــاد بعد ذلك الى الاندلس ، وخدم بالطب الامراء الامويين خصوصاً الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي استخلصه لنفسه . وابن بريق هذا هو الذي ادْخل كتب استاذه الى جزيرة الاندلس فتلقاها عنه جماعة من الاخصائيين بالصناعة الطبيـة مـا بين مسلمين ويهود ونصـــارى ـ منهم سليمان بن جلجل المتقـدم ـ فراجت كتبه بينهم ايما رواج وتُرْجمت الى لغاتهم كما يأتي بيانه .

ولاحمد بن الجزار مصنفات كثيرة في شتى العلوم والمواضيع وأهمها الطب ، وها نذكر منها ما وصل الينا خبره ، آملين ان تـتـاح لنا أو لغيرنا الفرصة للوقوف على ما لم يذكر منها ليعرّفوا بها .

في الطب :

١ ـ « زاد المسافر . وقوت الحاضر » في علاج الامراض ، مجلدان وهو من أهمّ الكتب الطبية العَمَلية التي وضعها المسلمون،والمظنون ان المؤلف أهداه الى صديقه الامير ابي طالب احمد بن عبيد الله المهدي كما يفهم من مقدمته الرائعة،ويوجد منه نُسخ عديدة في المكتبات العمومية والخصوصية باروبا وبالمشرق ، منها في مكتبة الشعب بباريس وفي الجزائر ودرسدن بالمانيا وفي البدليية في اكسفورد ، وفي رنبور بالهند ومكتبة هافانا بهولانده وغير ذلك .

وقد اتجهت عناية الباحثين اليه من زمان قديم . وتقدمت الاشارة الى ما مدحه به كشاجم الشاعر . واول من عرّفه الى العالم الغربي هو الحكيم قسطنطين المشهور بالافريقي الآتي ذكره ، فقد عمد الى هذا الكتاب حينا كان برأس كُلّية (سالـيرنو) في جنوب ايطاليا وترجمه الى اللاطينية في اواسط القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) بعنوان (Peregrinantis Viaticum) وهي ترجمة كلمة « زاد المسافر » بالحرْف لكنّه نسب الاصل الى نفسه ، كما تُرجم الى اللغة اليونانية باسم (Ephodes)ويوجد من الترجمتين نُسَخٌ عديدة بمكتبات أروبا . منها في باريس ، وفي المتحف البريطاني ، وفيورنسا بايطاليا.واقدم هذه النُسخ هي المحفوظة بمكتبةالفاتيكان في رومة وتاريخها اواخر القرن العاشر للميلاد يعني بعدوفاة ابن الجزار بقليل .

ونقل زاد المسافر الى اللغة العِبْرِيّة طبيب مشهور من يهود الاندلس يعرف بموسى بن طِبّون . بعنوان (تزداد دراشم) . ويوجد من هذا النقل اربع او خمس نُسخ بايطاليا وانكلترا .

ونشر الحكيم شارل دارنبير (Daremberg) الفرنساوي في خلال عام ١٨٥١ بحثاً طويلا عن زاد المسافر تحت عنوان :

Recherches sur une ouvrage qui a pour titre : « Zad al Mouçafir » en arabe - Ephodes, en grec - Viaticum, en latin et qui est attribué dans le texte arabe et grec à Abou Jâfar et dans le texte latin à « Constantin » 1)

وكتب بعده المستعرب الفرنساوي كوستاف دوكا (Gustave Dugat) مقالة ضافية في المجلة الاسيوية في عام ١٨٥٣ بحث فيها عن زاد المسافر وحلّل فصوله وأبان فوائده واهميته ، وترجم منه الى الفرنسية مقالتين وهما المتعلقتان بالعشق وبداء الكَلَب [٢]

ثم جاء صديقنا المرحوم الحكيم التونسي أحمد الشريف وبعد ان عرّف بابن الجزار ترجم الى الفرنسية ايضاً من زاد المسافر ثلاث مقالات: في اسباب سقوط الشعر ، وفي الاغماء وعلاجه ، وفي دود المصران ، نشرها في أطروحته في تاريخ الطب العربي بالقطر التونسي [٣]

---

(١) ظهر هذا البحث في مجموعة : Les Archives des Missions Scientifiques Paris, 1851 - T. II P.490

(٢) Journal Asiatique, Paris, 1853 p.289

(٣) Dr Ahmed Chérif - Histoire de la Médecine Arabe en Tunisie Tunis 908 p.p. 51 à 70

٢ ـ « العُدَّة ، لطول المدّة » ـ قال ابن ابي اصيبعة « هو أكبر كتاب وجدناه له في الطب » ولا نعرف عنه شيئاً .

٣ ـ « الاعتماد » ـ في الادوية المفردة ، ذكر فيه الادوية المفردة التي عليها اعتماد الاطباء في معالجة الامراض، يشتمل على اربع مقالات وقد الفه لصاحبه الامير ابي طالب بن عبيد الله المهدي ، وهذه النسخة مؤرخة بسنة ٥٣٩ هـ . وعدد اوراقها ١٤٠ ، ومنه نسخة موجودة بالجزائر وفي اياصوفيا و في المتحف البريطاني . وكان الطبيب الاندلسي المشهور عبد الرحمن بن اسحاق ابن الهيثم انتقد هذا الكتاب في بعض فصوله وسمّى اعتراضه : « الاقتصار والايجاد، في خطأ ابن الجزار في الاعتماد » وليس لهذا الرّد وجود اليوم . وقديماً تُرجم كتاب « الاعتماد » الى اللغة اللاطينية نقله اليها قسيس اسباني هو (اسطيفان السَرَقُسْطي) في سنة ١٣٣٣م (٧٣٤ هـ) وسمّى الكتاب (Pantegni) والمؤلف (ابن زيزار) وعرّبه الى (Filius Carnificis) وهذه الترجمة توجد مخطوطة في مكتبة مونيخ بالمانيا . وكتاب « الاعتماد » نُقِلَ ايضاً الى اللغة العبرية بقلم الطبيب موسى بن طيبون المتقدم .

٤ ـ كتاب « البغية » ـ في الادوية المركبة . لا نعلم عنه شيئا .

٥ ـ « نصائح الابرار » ـ وقد رأيت النقل عنه في كثير من كتب الطب ، من ذلك في رسالة « طب المشائخ » الآتي .

٦ ـ « قُوت المقيم » ـ وهو غير زاد المسافر وقوت الحاضر المتقدم ذكره. وقال ابن ابي أصيبعة : « حكى الصاحب جمال الدين بن القفطي انه رأى له بقفط ـ في مصر ـ كتاباً كبيراً في الطب اسمه « قوت المقيم » وكان عشرين مجلداً »

٧ ـ « المعدة وامراضها ومداواتها » ـ جزء . ذكره ابن الجزار في كتابه « طب المشائخ » الآتي ونقل عنه .

٨ ـ « أصول الطب » ـ ذكره المؤلف في كتابه « طب المشائخ »

٩ ـ « مُجرّبات » في الطب ـ جزء .

١٠ ـ « المختبرات » ـ جزء . وهو غير المتقدم قبله .

١١ ـ « البُلْغَة » ـ في حفظ الصحة ـ جزء .

١٢ ـ « الفرق بين العِلَل التي تشتبه أسبابها وتختلف اعراضها » ـ جزء .

١٣ ـ « أبدال الادوية » ـ رسالة ـ موجودة بمجموعة طبية في خزانة حبيبنا السيد احمد خيري بك في البحيرة بمصر . وهو يأتي عقب « طب المشائخ » ومنه نسخة مصورة في مكتبتي .

١٤ ـ «التحذّر من اخراج الدم من غير حاجة دعت الى اخراجه» ـ رسالة.

١٥ ـ « طب الفقراء والمساكين» وهو غريب في بابه ، موجود في مكتبة غوطة ، والاسكوريال وقديماً في خزانة السيد عبد الحي الكتاني بفاس . وقد ترجم الى العبرية قديماً .

١٦ ـ « النّصح » ذكره . في « طب المشائخ » وقال انه جمع فيه ادوية الملوك والخواص .

١٧ ـ «طب المشائخ» . رسالة تخرج في عشرين ورقة عالج فيها الحالات التي تعتري المسنّين والمعمّرين وما يجب عليهم اتباعه للمحافظة على العافية واستدامة صحتهم ، وهو الفن المعروف اليوم عند الافرنج باسم (Géronthologie) وهذه الرسالة لم يرد ذكرها في قائمة مصنفاته التي جلبها ابن ابي اصيبعة . ويوجد اصلها في مجموع طبّي مخطوط محفوظ في مكتبة سعادة احمد بك خيري من اعيان البحيرة في مصر . وقد أتيح لي استنساخها وجلبها الى تونس . وعساها تنشر مع ترجمتها والتعليق عليها .

١٨ ـ « سياسة الصبيان وتدبيرهم » . موجود في مكتبة ننيانة بالبندقية بايطاليا وفي الاسكوريال . ومنه نسخة مصوّرة بمكتبتي .

١٩ ـ « الخواصّ » . وقد ترجم قديما الى العبرية .

٢٠ ـ « الزكام » . واسبابه وعلاجه ، رسالة .

٢١ ـ « الُجذام » . واسبابه وعلاجه ، مقالة .

٢٢ ـ « الوباء ونعت الاسباب المولدة له في مصر ، وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوّف منه » . جزء .

٢٣ ـ « المُقعدة » وأوجاعها . رسالة .

٢٤ _ « الحمّامات » - منافعها ومضارها - مقالة .

٢٥ _ « اسباب الوفاة » - رسالة .

وله في التاريخ والجغرافية :

٢٦ _ « التعريف بصحيح التاريخ » - قال ابن ابي أصيبعة : « يشتمل على وفيات علماء زمانه وقطعة جيلة من اخبارهم » وقال ياقوت: « رايت كتابه « التعريف بصحيح التاريخ » في مجلدات تزيد على العشر » وقد ينقل عنه كثير من المؤرخين وأصحاب الطبقات كالقاضي عياض في « المدارك » وياقوت في حوادث سنة ٢٠٨ هـ - (معجم البلدان ج ٢ ص ٦١ اسم طنبذة) وغيرهما - ولا أثر اليوم لهذا الكتاب .

٢٧ _ « تاريخ الدولة » - وقيل « اخبار الدولة » يعني الدولة الفاطمية . وهو تاريخ حافل بسّط فيه القول عن ظهور عبيد الله المهدي، بافريقية وانتشار دعوته بها وسقوط دولة بني الاغلب وما حصل من الاحداث في تلك المدة . وعنه ينقل المقريزي في كتابه « اتعاظ الحنفاء » وغيره من المؤرخين . والغالب على الظن ان قطعة منه محفوظة في مكتبة غوطا وهي التي ترجم منها المستعرب نيكلسون Nicholson بحثه المنشور في سنة ١٨٤٠ بعنوان :

An accunt of the establishment of the Fatimite dynasty in Africa.

ولا يبعد ان يكون هـذا الكتاب موجوداً كامـلا في بعض خزائن الاسماعيليين بالهند .

٢٨ ـ « مغازي افريقية » ـ في اخبار فتح العرب لبلاد تونس ، ولم نر من بين المؤرخين من ذكره سوى ابي عبيد البكري في « مسالكه » فقد قال فيه : وقال ابو جعفر احمد بن ابراهيم المتطبب القيرواني في « مغازي افريقية » ولا شك ان البكري نقل عن ابراهيم الرقيق الذي استفاد من هذه المغازي ما أورد من اخبار الفتح في تاريخه الكبير لافريقية[١]

٢٩ ـ « طبقات القضاة » ـ وكانه مخصّص لتراجم العلماء الذين تداولوا على قضاء افريقية الى عصره . ينقل عنه القاضي عياض كثيرا في المدارك فيقول : قال ابن الجزار في كتابه « طبقات القضاة » ولم يرد في جملة مؤلفاته عند ابن ابي أصيبعة .

٣٠ ـ « عجائب البلدان » ـ وقيل « عجائب الارض » وهو في تقويم البلدان ووصفها،ورد ذكره مراراً في الكتاب المعروف بجغرافية المامون المنسوب الى الفزاري ، ونقل عنه فصلا في وصف مدينة رومية ، كما نقل عنه ابن البيطار في مادة (زمرد) قال : « قال ابن الجزار في كتاب « عجائب البلدان » جبل الزمرد من جبال

---

(١) البكري ـ ص ٢٤ من الطبعة الثانية

النّجاة موصول بالُمقطّم جبل مصر »[(١)] . وذكره في كشف الظنون باسمه المتقدم ولم يزد عليه ، وقد أخبرت ممن أثق به انه يوجد منه نسخة في خزانة كتب المرحوم الباشا المصلوحي قائد بني رزين من بلاد غُمارة في ناحية الريف من المغرب الاقصى .

وله في الادب وغيره :

٣١ ــ « الُمكَلّل » . في الادب والسياسة

٣٢ ــ « الفصول » . في سائر العلوم والبلاغات

٣٣ ــ كتاب « الاحجار » الكريمة . ومعادنها ومنافعها وخواصّها، ذكره مرات كثيرة التيفاشي القفصي الآتي في تصنيفه « ازهار الافكار في جواهر الاحجار » ، ومن جملتها نقل عنه العبارة الاتية . قال احمد بن خالد المعروف بابن الجزار في كتابه في الاحجار : « وعالجتُ أنا وصيفاً الخادم (الفاطمي) صاحب المظلّة من حصاة عظيمة كانت به وامتنع من الفتح عليها بالحديد . فلما فعلتُ به هذا الفعل (يعني ادخال مرود من فِضّة ألصق براسه حجر الماس في مجرى البول) تشلّخت الحصــاة حتى صفرت وسهل عليه خروج ما بقي منها مع البول » وتقـل عنه ايضا في الكلام على

---

(١) كتاب جامع المفردات لابن البيطار ٢ : ١٦٧

حجر المغنطيس وعلى الفيروزج وفي غير ما موضع من كتابه المتقدم ـ ولم نقف له على أثر .

٣٤ ـ « العطر » ذكره عرضاً في كتابه « طب المشائخ » ويظهر انه خصّصه لصناعة الروائح العطرية وطرائق تقطيرها من النباتات والعقاقير التي يستخرج منها .

٣٥ ـ « النفس واختلاف الاوائل فيها » ـ رسالة

٣٦ ـ « النوم واليقظة » ـ رسالة . قال الحاجي خليفة : كتبها الى ابن ابي فضالة المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ـ وهو شخص لا نعرفه ويظهر انه كان من اصدقائه .

٣٧ ـ « الاستهانة بالموت » رسالة كتب بها ايضا الى بعض احبابه

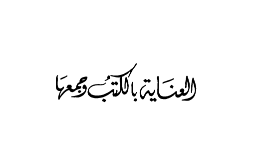
ونختم هذه القائمة الطويلة بذكر مخطوط مجهول المؤلف موجود في المكتبة الظاهرية بدمشق عنوانه « طبائع العقاقير على مذهب ابن الجزار » ولا ندري ما اشتمل عليه .

وليس من شك ان لابن الجزار غير ما حصرنا من المصنفات . وان طبيبنا هذا محتاج لان يوضع بحث مستقل في ترجمة حياته وتحليل مؤلفاته . وهو الامر الذي نتمنى ان يقوم به بعض شبابنا التونسي المثقف .

ومما تقدم من احصاء مآثره المتنوعـــة الاغراض في مختلف العلوم والفنون يتضح لك ان ابن الجزار كان في المرتبة الاولى بين أعلام عصره من اصحاب الثقافة الواسعة المحيطة . وانه كان في الضفّة الغربية للعالم العربي بمثابة الفارابي وابن سينـا والبيروني في المشرق ، فانه درس مثلهم علم الاوائل - من اغــــريق وفرس وهنود وعرب - وهضم أقوالهم واستدرك عليها ما فاتهم وانتقدهم عند الحاجة ،علاوة على ما استنبطته قريحته ودلّته عليه تجاربه،وساقته اليه اختباراته وفطنته الوقّادة . والله يؤتي الحكمة من يشاء .

مصــــادر :

طبقاتُ الاطباء ٢ : ٣٧ وما بعدها ـ طبقات الامم لصاعد ط مصر : ٧٠ ـ معجم الادباء ١ : ٨١ ـ الوافي بالوفيـات للصفدي (جزء خامس مخطوط بالزيتونة) ـ كشف الظنون ١ و ٢ ـ المجلة الاسيوية الفرنسية سنــــة ١٨٥٣ ج ١ ص ٢٨٩ ـ بروكلمـان ١ : ٢٣٨ وملحق ١ : ٤٢٤ ـ وغير ذلك .


العناية بالكتب وجمعها



العناية بالكتب وجمعها

لم يعرف التاريخ العام - فيما علمنا - شعباً من الشعوب الظاهرة على وجه الارض كان له ما للأُمّة العربية من العناية بالكتب العلمية والادبية، والحرص على اقتنائها ونسخها ، والسعي في ايجاد خزائن تحفظها من طوارق الحدثان ، بقصد استبقائها والانتفاع بها وايصالها الى الاجيال المقبلة كثمرة مجهودهم الثقافي ونتيجة تجاربهم العلمية .

اجل ! روى لنا الاخباريون شيئاً غير يسير عما كانت تحويه خزائن بني العباس في بغداد ، وسامراء ، ومكتبات الفاطميين بالقاهرة ، ومجموعة الحكم الثاني الاموي في قرطبة - عاصمة الاندلس - عدى ما عددوه لنا من نفائس الخزائن الخاصة في الشرق والغرب .

وانا لنتساءل الآن لماذا أهمل المؤرخون - بين عموميين وإقليميين - ذكر المكتبات التي تجمّعت في القيروان ، والمهدية ، وتونس في عصر فيض الحضارة العربية ، فهذا فراغ يجب سده ، واغفال يتعيّن تلافيه، ولذا نرى من الواجب المفروض ان نبحث بقدر الاستطاعة عما رود

من الاخبار عن عناية الافارقة بالكتب وعن تأليف الخزائن العامة والخاصة ، وكيف اجتمعت واتسقت ، وعما آل اليــه أمرها بعد بحسب ما وصل اليه اجتهادنا .

العناية بجمع الكتب ونسخها ، وتصحيحها على الاصـــول ، أمر لا يتأتى الا اذا اطمأنت نفوس الراغبين فيها بتوفر وسائل الراحة ، واستتباب الامن في البلاد وقد مضى قرن كامل ونصف قرن قبل ان يستقر قرار العرب في افريقية ، وما كان للولاة الذين تداولوا الحكم على المغرب من لدن الدولة الاموية واول العباسية ، ولا لافراد الامة على عهدهم ، ان يعنوا بجمع الكتب وقد شغلتهم عن ذلك الثـــورات القائمة في البلاد وكذا الغزوات البعيدة براً وبحراً . فكان اتجاههم منصرفا كلّه لاقرار سلطان الاسلام وتمهيد اسباب الراحة والدعة .

وجَليٌّ ان الكتب كانت في تلك الآونة قليلة ، وقليلة جدا - ما عدى المصاحف - إذ كان العصر عصر فتح ، وعصر جمع اللغةِ وإحصاء كلام العرب من الشعر والنثر ، والشروع في نقل علوم الاوائل من لغاتها الاصلية الى العربية .

ولم يتسن لبلاد إفريقيـــة ان تنال الامن المنشود الا بعد ما ملك « بنو الاغلب » ناصيتها ، فمهد الاول منهم الاسباب لقمع الثـائرين ، وقطع جشع الطامعين في الولاية ، ثم شغل الامراء - وسائر الشعب معهم - امر الغزوات البحرية ، وامتـلاك جـزائر البحر الابيض المتوسط ،

كصقلية ، ومالطة ، وقوصرة وما اليها ، فلم يتيسر لهم الاعتنـاء بوسائل العلم وجمع الكتب الا في أواخر دولتهم ، أعني في مدة ابراهيم الاصغر وابنائه من بعده .

لكن ابراهيم الرقيق يفيدنا - في سياق كلام له - انه كان يوجد في احدى قاعات القصر الابيض بالعباسية خزانة كتب حافلة يطالع فيها أمراء الاغالبة واهل بيتهم ، وكان يشرف عليها بالنظر بعض فتيانهم المقرّبين ، فلما ابتنى ابراهيم الاصغر رقـادة وحوّل اليها حاشيته ودواوينه نقل تلك الخزانة برمّتها من العباسية الى مدينته الجديدة ، وانا لا نعلم عن هذه الخزانة شيئاً غير ما قدّمنا .

وأسّس ابراهيم الثاني لاول ولايته مدينة « رقّادة » - عام ٢٦٤ - وجهّز في سنتها سفارة الى عواصم الشرق الكبرى - الفسطاط ، ودمشق وبغداد - ليستوفد منها علماء مختصّين من الاطباء ، وفلكيين ، ومغنيين وغيرهم بنية اقرارهم في عاصمته الجديدة التي اراد ان يباهي بها « سامرّاء » بالعراق « والفسطاط » بمصر ، فجلب اليه سفراؤه من تلكم العواصم زُمرة علماء اشرنا الى دخولهم وتأثيرهم في غير هذا المكان ، كما جلبوا اليه منها الاعلاق النفيسة على ما جرت به عادة سائر الملوك للتظاهر بالابهة والتفاخر بشارات البذخ ، ومن جملة ما حمل اليه الكتب النادرة الجميلة الخط ، خصوصا وان هذا الامير كان مولعاً بعلوم الفلسفة

والكلام وبالفلك وفنونه (١) وقد حفظ لنا التاريخ اسماء بعض اولئك السفراء الذين كان يخرجهم من حين لآخر الى المشرق .

وهكذا تهيأ لابراهيم الثاني - يتيمة العقد الاغلبي - ان يوشّح « بيت الحكمة » التي انشاه في رقادة بنفائس الكتب الفنية - الاصيلة والمترجمة - وبآلات الرصد الفلكي وغيرها، يكفينا شاهدا شغف هذا الامير وعنايته بالخزانة التي انشأها فانه كان يرسل الى كبار علماء القيروان المبرّزين في النحو واللغة فيجلبهم الى رقادة ويمسكهم عنده المدة الطويلة لتصحيح مخطوطات مكتبته وشكلها وتفسير مفرداتها ، فقد حكى الزبيدي في ترجمة ابي محمد الاموي المكفوف ، عميد العربية والادب في القيروان في عصره ، ما يأتي : أبطأ ابو القاسم ابن عثمان الوزان النحوي عن زيارة شيخه ابي محمد المكفوف اياما كثيرة ثم اتاه فلامه على تخلفه عنه وقال له: « يا ابا القاسم نحن كنا سبب ما أنت فيه من العلم ، وقد علمتَ كيف كنتُ أخصّك وأوثرك على غيرك فلما صرت الى هذه الحال قطعتنا ، فقال له : أصلحك الله ، أعذر فقد كان لي شغل ، فقال ما هو ؟ - قال : اليوم اكثر من شهر اختلف الى رقادة ، الى قصر الامير ، أشكل له كتبا وأصححها ، واضبطها ، فقال المكفوف : سررتني والله ، قال :

---

(١) طبقات النحاة - للزبيدي -

بماذا سررتك ؟ ـ قال : « بما يكون من برّه ومكافاته على اختلافك اليه وتصحيحك لكتبه [١] » .

وليس لدينا ما يفيد كيف كان ترتيب الكتب بتلك الخزانة العظيمة لكننا نعلم ان المؤلفات كانت تتركب من جزء أو اجزاء كثيرة ، وان كل واحد منها يسمّى « كتابا » ويشمل من عشرين الى اربع وعشرين ورقة من الرق في شكل مربع مستطيل يختلف طوله في الغالب ما بين ٢٢ الى ٣٠ سنتيمتر ، في عرض ١٥ او ٢٠ سنتيمتر وربما وضعت تلك الاجزاء او الكُتُب ، في « رَبْعَة » من خشب مغشّى بالجلد الناعم ، كما يوجد أجزاء مجلّدة بأسفار بديعة تدلّ على ما بلغ اليه فنّ التجليد من اتقان وزخرف ، وفي المكتبة العتيقة من جامع عقبة بالقيروان نماذج نفيسة ومتنوّعة من جميع ذلك ، ترجع الى العصر الاغلبي المتكلم عنه [٢] .

وخلف ابراهيم في الامارة ابنه عبد الله ، وكان مولعاً بالعلوم واسبابها ، جمّاعاً للكتب من ولايته للعهد ، غير ان مدة ملكه لم تدم الا عاما واحدا ، ثم تولى ابنه زيادة الله الثالث ، خاتمة الامراء من بني الاغلب.

وبالرغم من الفتن والقلاقل الظاهرة في ايامه بالمملكة الاغلبية فقد

---

(١) طبقات الزبيدي

(٢) راجع « الاعلاق القيروانية » بالفرنسية

(Objets Kairouan.) Fasc. 1 ; G. Marçais et L. Poinssot. - Tunis 1948

كان لهذا الشاب اعتناء خاص « ببيت الحكمة » حتى وصل في مدّتـه الى أوج تقدّمه ، وقد زوّده بالعلماء من فلاسفة وأطباء وأرباب فنون ، استوردهم من مصر ومن العـراق ومن القسطنطينية وحتى من اوربا ، وجلب اليه من نفائس المخطوطات والادوات العلميـة ، ما جعل بلاطه ناديا علميا ثقافيا يفتخر به بين الامم المعـــاصرة . وفي بحثنـا عن بيت الحكمة القيرواني زيادة إيضاح .

وبكل أسف ، لم تـدم مدة زيادة الله الاصغر الا ستـة أعوام حيث هاجمه الفاطميون بجيوشهم البربرية ، واطردوه من البلاد ، وبانقطاعه انقرضت دولة بني الاغلب ، وقام مكانها عبيد الله المهـــدي وخلفاؤه الثلاثة من بعده . والملك لله وحده !

ولربما يعجب الباحث الآن من ضياع الـثروة العـلمية الوافرة التي جمعها الامراء الاغالبة ، إذ لم يبق منها ادنى اثر علمي يرشدنا . ولو شيئا ما . الى قيمة تلك الكنوز التي تعـاقبوا على جمعهـا وتاليفها وانفقوا في تكوينها اموالا طائلة ، ووقتا ثمينا .

وفي الحقيقة ليست هنـــاك اية غرابة إذا علمنا ان الفاطميـين استحوذوا على مخلفات الاغالبة ، وانتفعوا بها ما داموا في افريقيـة ، ثم نقلوها . برمّتها . حـين حوّلوا ملكهم الى مصر ، ذلك المطمح الكبير الذي كانت تسمو اليه نفوسهم من يوم ان احتلوا القيروان ومنها ملكوا بقية المغرب .

وبالجملة فقد حصل لتُراث الاغـالبة ـ بعد انقراضهم ـ مـا حصل لذخائر بني العباس لما استولى (هولاكو) كبير المغـول على بغداد ، وساق جيمها الى سمرقند ، وكما حصل لتركة المماليك ، لما فتح السلطان سليم الاول بلاد مصر وحمل طرائفها ونوادر كتبها الى اسطنبول ، حيث هي الآن محفوظة في الخزائن العامة .

ولا يبعد عندي ان الذي كلّف بنقل المجموعة المخلّفة عن الاغالبة الى مكتبة العبيديين هو « يعقوب بن كلّس » ذلـك الوزير اليهودي الاصل الذي أسلم على يد الفاطميين ، وكان في اول أمره يتعاطى الكتابة بدواوين الدولة الاخشيدية ، هـرب من مصر والتحق بالمعز لدين الله في المنصورية ، واقام في خدمته اعواماً الى ان تحول معه الى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ فرتّب يعقوب بن كلس للخليفة الفاطمي الدواوين، وقرّب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم واجرى عليهم الارزاق الطائلة، وحبّب الى الخليفة ـ العزيز بالله ـ اقتنـاء الكتب ، فجمع منها جانباً كبيراً خصّص لها قاعات في القصر الملكي وسماها « خزانة الكتب » وقد ضاهت خزائن بغداد وقرطبة بل ربما فاقتها جميعا [1] .

وبهذا الاعتبار يكون الاصل في الكتب المتجمّعة للفاطميين في القاهرة المعزية هو ما أخذوه من تُراث الاغالبة « برقادة » مع ما أضيف

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٦

الى ذلك مما قدمه اليهم الكتّاب والحكماء والادباء من نفائس مؤلفاتهم مدة اقامتهم بافريقية . علاوة على ما اقتنوه بالشراء والاستنساخ في المغرب والمشرق .

ولا يفوتنا ان نذكر هنا ان الفاطميين منذ قيامهم بالدعوة لآل البيت في المشرق ، كانت لهم عناية خاصة ورغبة في اكتساب الكُتُب ـ لا سيما ما يتعلق منها بدعوتهم الشيعية واخبار المذاهب الدينية الاخرى ـ فقد ملكوا منها قسطاً عظيماً اقتناه دُعاتهم في اليمن وفي الشام والحجاز ولا سيما في مدينتي بغداد وسَلَمية . وها هو حاجبهم جعفر بن علي يخبرنا كيف ضاعت الكُتُب التي كانت مصاحبة لعبيد الله المهدي حين اجتيازه خُفْيةً من مصر الى بلاد المغرب قبل ان يتسلّم الملك الافريقي من داعيه الصنعاني .

قال الحاجب جعفر [(١)] : « ثم جرى على الإمام (المهدي) في طريقه مع القافلة عند خروجه من مصر وعند وصوله إلى (الطاحونة) من البربر ، فقد أخذوا بعض رَحْله بعد ان نهبت القافلة وكُتُباً كانت للمهدي فيها علوم كثيرة ، فكان أسفه عليها (اي على الكُتُب) أشدّ من أسفه على غيرها مما ضاع له الى ان جمعها الله ـ عز وجل ـ وقت خروج (القائم) الى مصر في السفرة الاولى » .

---

(١) سيرة المهدي الفاطمي ، تأليف الحاجب جعفر الكاتب ، في مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، مجلد ٤ ـ ديسامبر ١٩٣٦ ص ١١٥

يشير الى رجوع تلك الكتُب على يد الامير القائم بن عبيد الله لما خرج من رقّادة الى أرض برقة سنـــة ٣٠١ هـ . في وجهته الاولى الى مصر ، وقد حارب في طريقه سكّان برقـة من البربر واسترجـع منهم الدفاتر المنهوبة من المهدي حين مروره بها مجتازاً الى المغرب (١) فعادت الكتب الى خزانة الفاطمي في رقـــادة ، ثم انتقلت تلك الخزانـة الى المهدية بعد انشائها ، ثم منها الى منصورية القيروان .

أفسح الفاطميون مجالا واسعاً للكتب في المدة التي أقاموها بافريقية وقد يفيدنا رُوَاة الاخبار ان اسماعيل المنصور ـ ثالث ملوكهم ـ لما انشأ قصره البديع بالمنصورية ـ سنة ٣٣٤ هـ ـ نقل اليـه من جملة مـا نقل ـ خزائن الكتب التي كانت برقادة وبالمهدية ولا يخفى ان المنصور كان مشغوفاً بالعلم والادب ، محبا له ، مشهوراً بقوة الخطابة وبسعة الاطلاع ولم تشغله مهامّ السلطنة واعبــاء الحكم عن البحث والتاليف وبمجالسة العلماء .

ولعل أحسن جملة تنبئنا على كبير اهتمام الامير اسماعيل المنصور بكتب خزانته وبمصنفات الدعوة الاسماعيلية بصفة خاصة هي الرسالة التي كتب بها من قصره بالمنصورية الى مولاه ومحل ثقته الاستاذ جوذر الصقلي ، فانه يقول فيها : « بعثتُ اليــك كُتبي وكُتبَ الائمةِ آبائي

---

(١) ابن عذاري « البيان المغرب » ج ١ ص ١٧٠

الطاهرين ، وقد ميّزتُها ، فاقرها عندك مصونة من كل شيء فقد وصل الماء الى بعضها فغيّر فيها ، وما من الذخائر شيء هو أنفس عندي منها ، فأمر محمداً كاتبك ينسخ لك منها ثلاثة كتب ، ففيها من العلوم والسير ما يسرّك الله به [١] » .

وعلى هذا الاعتناء بالثقافة ربّى المنصور ابنه وخليفته المعز لدين الله فكانت عناية الابن لا تقلّ عن اهتمام والده بالعلم والكتب والتأليف ، يروي لنا القاضي محمد النعمان انه بلغ من تعلق المعز بمكتبة المنصورية ان كان يعرف مواضيع الكتب فيها ، وما يحويه كل جزء منها من الفنون ، وحكى ايضا : « ان المعز أمر يوما خازن كتبه ان يناوله كتابا منها ، فلما ابطأ الخازن في احضاره ، قام المعز وبحث بنفسه عن الكتاب المطلوب ، فلما وجده قرأه وقرأ غيره من الكتب ، واستهوته المطالعة ، فصرف معظم ليله في القراءة ، وهو واقف على قدميه » ولا عجب في ذلك فانه كان يقول :

« إني لاجد من اللذة والراحة والمسرّة ، في النظر في كتب الحكمة ما لو وجده اهل الدنيا لاطّرحوها لها ، ولولا ما أوجب الله سبحانه عليّ من امور الدنيا لاهلها واقامة ظاهرها ومصالحهم فيها لرفضتها

(١) سيرة الاستاذ جوذر ط. ـ مصر ـ ص ٥٢

بالتلذّذ بالحكة والنظر في كتبها ، والله ما تلذذت شيـًا تلذذي بالعلم والحكة ، [١] .

وروى المقريزي [٢] قال :

«حمل أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الى المعـز لدين الله المصحف الكبير الذي يذكر انه كان ليحي بن خالد بن برمك ، وكان اشتراه ابو جعفر مسلم باربعمائة دينار ، فلما رآه المعز قال لمسلم : ـ أراك معجباً به ، وهو يستحق الاعجاب ، لكن نفاخرك نحن أيضا ، فدعا بمصحف في نصفين ما روي أحسن منهما خطاً واذهاباً وتجليداً ، فقـال المعز : « هذا خط المنصور [العباسي] واذهابه وتجليده بيده ، فقال له مسلم: ـ فهل ثمّ مصحف بخط مولانا المعز لدين الله عليه السلام ؟ فقال : نعم ! وأخرج له نصفين ، فقال مسلم : ـ ما رأيت أصْبَحَ من هـذا الخـط ! فقال المعز : ـ بعد مشاهدتك لخط المنصور تقول مـا رأيت أصْبَحَ من هذا الخط ، ولكنّه أصبحَ من خطّك ، ثم ضحك المعز وقال : ـ أردتُ مداعبتك . »

وتسامع الكتّاب في الآفاق باقبـال المعـز على العلم وولوعه الكبير بجمع المؤلفات المتـــازة في الحكة والفلسفة والتاريخ والادب وبذله

---

(١) كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان ـ مخطوط ج ١ ص ٩١
(٢) كتاب اتعاظ الحنفاء ، طبع القدس سنة ١٩٠٨ ص ٩٩

للاموال الطائلة في الاكثار من اقتنائها ، فقصدوه من انحاء العالم العربي بمؤلفاتهم ونتائج ابحاثهم .

فهذا محمد بن عمر اليَمَني من علماء صنعاء يَفِد من بلاده القاصية حاملا تأليفاً بديعاً وضعــه في « مضاهاة كليلة ودمنة » ويقدّمه اليه بالمنصورية سنة ٣٥٠ هـ ـ فيجازيه المعز عنه جزاء وافراً [١]

ولو جاز لنا التقدير ـ على بعد الزمان ـ لقلنا ان مكتبة الفاطميين بالمنصورية كانت تعد عشرات الآلاف من المخطوطات اذا قايسناها بما كان في الخزانة الفاطمية التي انشئت بعد في القاهرة وكانت تحتوي على مئات الآلاف ـ قيل خمسمائة الف وقيل اكثر . [٢]

وفيا بلغنا من الخبر عن خزانة المنصورية ، انها كانت تشمل ايضا آلات الرصد وأدوات الفلك وما يناسب ان يكون في بيت علم وحكمة.

أخبر القاضي النعمان القيرواني عن نفسه : ان الخليفة المعز لما كان بالمنصورية امره ذات يوم بان يضع له أسطُرلاباً من الفضة الخــالصة ،

---

(١) توجد نسخة مخطوطة بمكتبة الفاتيكان بروما من هذا التأليف الذي اراد مؤلفه اليمني ان يثبت فيه ان كل المعاني الحكمية الواردة في كتاب (كليلة ودمنة) الهندي الاصل، موجودة في الادب العربي الجاهلي منه والمخضرم وان لافضل للاعاجم على العرب .

(٢) الخطط للمقريزي .

فاختار النعمان صانعاً ماهراً أقعده في احـــد أركان خزانة الكتب ، واجلس معه ابنه محمداً ، فلما تمّ صنع الاسطـرلاب على احسن صفة رفعه الى المعز فاستحسنه وجازى ابنه محمداً والصانع على عملها [١] .

ومما كان يوجد بالخزانة الشريفة ـ كما كانوا يسمونها ـ « مقطع من الحرير الازرق التُسْتُري القِرْمزي غريب الصنعة ، منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير ، كان المعز أمر بعمله في المنصورية ، فيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومُدنهـــا وأنهارها ومسالكها ، شبه جغرافية ، وفيه صورة مكة والمدينة مُبيّنة للنّاظر ، مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق ، اسمه بالذهب ، او الفضة او الحرير وفي آخره ما نصـــه : « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حَرَم الله واشهاراً لمعالم رسول الله ، في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » [٢]

وقس على ذلك ما لم يبلغنا خبره ، مع الملاحظة بانه ان وجـد من أرّخ حوادث الدولة الفاطمية ووصف بالتفصيل مـــا كانت تشمل قصورهم ومنازلهم بعد انتقالهم الى مصر ، فانا لا نعلم الا قليـــلا عن اخبار حضارتهم ومظاهر بذخهم في عهدهم بافريقية ، اما اخبار الدولة

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٦٧

الاغلبية فقد بقيت مجهولة الجانب مهضومة الحق ، في حاجة الى العناية بها عناية خاصّة .

فاذا اعوزتنا الرواية عن خزائن الكُتب التي ملكها بنـو الاغلب فانا لم نحرم تماماً من أنباء الكتب عند الخاصة في العصر الذي نبحث عنه، واليك ما تيسّر لنا جمعه في شأنها من غضون تراجم العلماء :

هذا ابو الفضل احمد بن الوزير الاغلبي علي بن حميد التميمي كان ممن تخلى عن المناصب وانقطع للعلم والعنـاية بجمع الكتب ونسخها وتصحيحها ، قال القاضي عياض : (١)

« هو من تلاميذ أسد بن الفرات ، وسحنون وغيرهما ، كان كثير الكُتب واسع الرواية ، بيعت كتبه بعد وفـاته (سنة ٢٥١ هـ) بالف ومائتي دينار ، كما وجد له بعد موتـه آلات كثيرة منها ماندتان من الزجاج أُتِيَ بها اليه من بغداد فلم تَصِلا اليه الا بمائة وتسعين ديناراً » .

وعيسى بن مسكين المتـوفى سنـة ٢٩٠ هـ ، قال صاحبه الكانشي : أدخلني عيسى مـدة قضائه برقادة بيتاً مملوءاً بالكتب من جمعه وقال لي : « كل هذه الكتب رواية لي ، وما فيها كلمة غريبة الا وانا أحفظ لها شاهداً من كلام العرب » (٢) .

---

(١) المدارك (مخطوط) ج ٢ ص ١٧

(٢) الديباج لابن فرحون : ص ١٨٠

ومن هُواة الكُتب في ذلك العصر : محمد بن بسطام بن رجاء الضبي المتوفى سنة ٣١٣ هـ . قال المالكي : « كتب كتباً كثيرة بخطه ، وكان قد اشترى وصيفاً لاصلاح المصباح في حين نسخه بالليل ، فكان يتّخذ له القصب الحلو يقطعه له قطائع لطافا فاذا نعس الوصيف جعل في فمه قطعة ليزيل عنه النعاس متى عرض له » [1] .

وهذا حمدون بن مجاهد الكلبي المتوفى سنة ٢٢١ هـ من اهل جزيرة شريك ومن اصحاب عيسى بن مسكين المتقدم ، له رحلة الى المشرق ، روى فيها الحديث ثم رجع فاستوطن رباط المنستير، ونسخ هناك أكثر دواوين العلم وكان حسن النقل والضبط ، قال عياض : « كان لا يكتب الا عن فهم ويضبط المشكل ويحب نشر العلم وإذاعته » [2] .

حكى عنه صاحبه ابو بكر ميسرة بن مسلم قال قال لي حمدون: « كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب » [3]

وبمناسبة هذا الخبر أقول : « انني كثيراً ما رايت أجزاء مخطوطة على الرق يرجع تاريخها الى القرن الرابع والخامس مرسوماً تحت عنوانها (حُبسُ على جماعة المرابطين بقصر . . . كذا) ويذكر حصن الرباط

---

(١) رياض النفوس ج ٢ ص ٨٥ (مخطوط)
(٢) المدارك ج ٢ ص ١٧ (مخطوط)
(٣) رياض النفوس ج ١ — ٧٦

الموقوف عليه ، وأحيانا تكون عبارة التحبيس هكذا « حُبسُ على من يسكن حُجرَتي برباط . . . كذا) وهلم جرا .

وهذا احمد بن محمد القَصْري المتوفى سنة ٣٢٢ هـ . كان فقيرا جمّاعـا للكتب ضابطا لها ، كتبَ بيده ما لم يكتبه احد من اهل عصره حتى انه كان يقول : منذ أربعين عاماً ما جَفَّ لي قلم » قال المالكي : « وصل مرة الى سوسة ليزور شيخه يحيى بن عمر فوجده ألّف كتاباً فلم يجد القصري ما يشتري به رقوقاً ينسخه فيها ، فمضى الى السوق وباع قميصه واشترى بثمنه رقاً ونسخ الكتاب وقابله واتى به القيروان » [١] .

وفي مكتبة جامع القيروان العتيقة جانب وافر من الاجزاء على الرق منسوخة بخطه وعليها سماعات له مؤرخة .

وهذا ابو العرب محمد بن احمد التميمي - حامل لواء تاريخ القيروان - مات سنة ٣٣٣ هـ - كان كثير الكتب جـداً ، حسن الخط والتقييد ، قال المالكي وعياض وابن ناجي : « يقال انـه كتب بيده اربعة آلاف كتاب » [٢] وفيا تقدم بَيَّنّا ان المقصود بالكتاب قديماً هو الجـزء المرسوم على الرق بمثابة الكراس عندنا يبلغ عدد اوراقه العشرين أو نحوها .

---

(١) المدارك ج ٢ - ١٦١

(٢) - المالكي

وهذا عبد الله بن ابي هاشم بن مسرور التجيبي مات سنة ٣٤٦ هـ ـ من تلاميذ عيسى بن مسكين وغيره ، كان من ذوي اليَسَار ، حسن التقييد صحيح الكتب ، وكانت كتبه كلها بخطه ، قيل انه كان يُصنع له مطر [(١)] من الحِبر في كل سنة لكثرة ما يستنسخه ، قال الفاسي : « كان وزن كتبه سبعة قناطير كلها بخطه حاشا كتابَيْن ، فكان لا يحتمل أن يراهما من أجل انهما ليسا بخط يده » وذكر انه لما اشتدّ به المرض الذي مات منه ـ ولم يكن له وارث ـ قال له أصحابه : يُخشَى ان ياخذ السلطان كتبك ويمنع الناس من الانتفاع بها ، فأوقفها على المسلمين ووجهها أثلاثا في ثلاثة مواضع ؛ ففعل ذلك فلما كان من الغد قال لاصحابه : لم أنم البارحة من فقد كتبي ، فردّوا الثلثين وتركوا الثلث الذي كان عند تلميذه ابي محمد بن ابي زيد،فلما وصل الثلثان اليه مات فاستلم السلطان (المعز لدين الله الفاطمي) ذلك ورفعه الى المنصورية وسَلِمَ الثلث [(٢)]

أقول : وما زالت بعض الاجزاء من ذلك الثلث الموقوف موجوداً في مكتبة جامع القيروان وعلى غالبها خط ابن أبي زيد وغيره .

ومن أكبر المكتبات القيروانية واجلّها في ذلك العصر مكتبة بني

---

(١) مكيال للسوائل كان مستعملا في المغرب قديما يحمل اربعين لترة تقريبا

(٢) المدارك ج ٢ ص ١٦٤

الجزّار الاطباء ولا سيا خـــزانة الاخير منهم : ابي جعفر احمد ، فقد اشتملت على مجموعة ذات قيمة علمية عالية لاهتمام صاحبها بسائر العـلوم الرياضية والطبية والفلسفية والتـــاريخية وما اليها فما من فنّ من هذه الفنون الا ولاحمد بن الجزار فيه تاليف او اكثر كما هو مبيّن في ترجمته خصوصا.وقد كان لهذا الطبيب ثروة لا يستهان بها .

وقال ابن جلجـــل الاندلسي [1] : « ووجدتْ له بعد موته اربعة وعشرين الف دينار ذهبا وعشرون قنطاراً من الكتب بين طبيـة وغيرها . » وبمراجعة المصادر التي ينقل عنها ابن الجزار في تآليفه يمكننا ان نعرف البعض مما كانت تحويه خزانته وهي مصنفات جليلة ومتنوعة، وكانت وفـاة احمد ابن الجزار بالتحقيق سنة ٣٦٩ ﻫ. (٩٨٠ م) واني لاعجب من رواة الاخبـار المتقـدمين ، كيف كانوا يقدّرون الكتب المخلّفة بالوزن لا بعدد الاجزاء ، وربما يُفسّر ذلك بـأنّ المدوّنات كانت مكتوبة على الرقّ وهو ثقيل الوزن فقدروها بأثقالها .

ولا يفوتنا ان نشير هنا الى ابي علي اسماعيل بن القـاسم البغـدادي الذي وفد على القيروان سنة ٣٢٩ ﻫ. وقد جلب في قافلته احـمالاً كثيرة من نفائس المؤلفات الشرقية ، ما بين لغـوية وادبية وتاريخية ودواوين شعر الجاهليين والمخضرمين والمولّدين،فباع منها في مدة عام كامل ما شاء

---

(١) طبقات الاطباء ج ١ ص ٣٨

ان يبيعلاهل افريقية ثم تحول بعد ذلك في سنة ٣٣٠ هـ. الى الاندلس بما بقي له منها ، وأنا وان لم نقف على ما فرط منها في افريقية اذ لم نعلم تسمية ما باعه في القيروان وتونس ، فانا نعلم بالضبط ما حمل الى قرطبة فانك تجد تسميته وتعيينه في القائمة الطويلة الذيـــل التي حفظها لنا ابو بكر بن خير الاشبيلي في فهرست مروياته (١) وكم من تاجر غير هذا البغدادي ورد على البـــلاد التونسية من المشرق والاندلس بقصد بيـع الكتب ولم يصل الينا خبره .

* * *

انقرضت دولةبني عبيد الفاطميين،وخلفهم بنو زيري الصنهاجيون وقد اشتهر من بين أمرائهم بالعلم والادب والفنون الجميلة المعز بن باديس واسطة عقدهم .

ازدهرت في مدته العلوم وبلغت الحركة الادبيـة ما لم تبلغـه في أي عصر من عصور التمدن العربي الافريقي ، وكان بلاط المعز الصنهاجي من أزهر قصور ملوك الاسلام .

بلغت اذ ذاك العناية بالكتب ونسخها وتنسيقها وزخرفتها الى أوج لم تدركه من قبل كما تشهد به المصاحف المحبّسة من لدن عمّته (ام ملال)

---

(١) راجع فهرست مرويات ابي بكر بن خير طبعة سرقسطة باسبانيـا سنة ١٨٩٢ ص ٣٩٥ وما بعدها

وحاضنة ابيه (فاطمة) واخته (امّ العــلو) وزوجته (زليخـاء) فان هـذه المصاحف تُعَدّ بحق آية في جمـــال الخط ورونق التذهيب والزركشة والتزويق مع كبر الحجم ومتـانة الرقـوق مما لا يتسنى صنعه وتدبيجه الا في بلاط بلغ الذروة في النوق والتفنّن .

ومن حسن الحظ ان حفظت لنـا الآثار أسمـاء بعض الخطّاطين الذين كانوا يتداولون النسخ في بلاط المعز بن باديس ، فمنهم : الحـارث ابن مروان – وابنه يحي – من ابناء القيروان وكان خطهما بقلم النسخ وكذا بالقلم الكوفي في طوالع الكتب من امتـع الخطـوط واوضحهـا وأمتنها قاعدة ، وكانا ينسخان الكتب دَوَاماً للخزانـة الاميرية ، وآثار قلمها موجودة بكثرة فيا بقي من الرقوق المحفوظة بمكتبة مسجـد القيروان ، منها النص الآتي وهو مرقـوم على اول صحيفة من كتـاب موقوف : « مما امر بتحبيسه سيدنا سيف الله عبده المعز لدينه ، المـؤيد لسنة نبيـه ، أطال الله بقاءه ، وأدام عزه وعلاه ، على المسجد الجامع بمدينة القيروان ، طلبا لثواب الله عزّ وجلّ وابتغاء مرضاته ، على يـد قـــاضي القضاة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هـاشم سنة اربعـة وعشرين واربعمائة » .

وقد تنـاول النسخ الاب وولده ما يزيـد على الاربعين عاما حسبا يمكن تتبعه من الكُتُب الواصلة الينا بخطها .

ومن نسّاخ القصر الصنهاجي المشهورين : علي بن احمـد الورّاق

وكان يميل بخطه الى أوضاع الكتابة البغدادية الراقية في عصره مع اتقانه البديع للرسم والتذهيب والتجليد .

وكانت تعاصره وتلازمه في البلاط (دُرّة الكاتبة) وقد وصل الينا من آثارها ذلك المصحف ـ مصحف الحاضنة ـ العديم النظير واليك نص ما على الورقة الاولى من كل جزء من اجزائه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كَتَبَ هذا المصحف وشكله ورسمه وذهّبه وجلّده علي بن احمد الورّاق للحاضنة الجليلة ـ حفظها الله ـ على يدي (دُرّة) الكاتبة سلمها الله ، فرحم الله من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار ، آمين رب العالمين وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليما » وتاريخ التحبيس شهر رمضان من سنة ٤١٠ هـ.

ومن الافارقة المشهورين بجودة الخط في ذلك العصر :

ابراهيم بن سوس المارديني، وكان من كُتّاب ديوان الرسائل في دولة المعز ، اشتهر بالادب وصوغ الشعر ، عَرّف به معاصره ابن رشيق في كتابه « الانموذج » بقوله : « اخذ بأطراف العلوم غير ان الغالب عليه الخط وتزويقه ، كان عنده من ذلك أمر عجيب، وقد انفرد في مغربنا بالقلم الرياسي الخافي انفراداً كليّاً لا يدانى فيه ولا ينازع » (١)

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي (مخطوط) بالزيتونة .

وهذه الشهادة لها قيمتها الكبيرة خصوصا من ابن رشيق الكاتب الاديب الذي خدم الملوك والامراء ، وتوفي ابراهيم الماريني في حدود سنة ٤٣٠هـ.

ومنهم عبد العزيز بن محمد القرشي الطارقي وكان ايضا من كتّاب ديوان الرسائل ، قال ابن رشيق في حقه : « أكثر اشتهاره بالنثر دون النظم ، إذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان ، ما بين تزويق مقامة مبتدعة او خطبة غير مفترعة، الى الرسائل السلطانية والكتابات الاخوانية وله من الخط البارع حظ المحلى من قِدَاح المَيْسر »[١]

ويطول بنا التعداد لو أردنا إحصاء الخطاطين والنساخين الذين عرفوا في الدولة الصنهاجية ويكفي شاهداً على كثرتهم اني أحصيت من كان يُلقّبُ بالورّاق من العلماء والادباء المترجمين ، فبلغ بي العد الى نحو العشرين ورّاقاً في مدة لا تتجاوز الثلاثين سنة ، على ان هذا ما عرفناه دون من لم يبلغنا اسمه .

* * *

ومن فضائل المعز بن باديس انه كان كثير إهداء الكتب النادرة للعلماء الذين يعلم منهم العجز على اقتنائها ، مثلما تمّ ذلك لابي بكر عتيق

---

(٢) المصدر نفسه .

السوسي وكان من الصالحين المقـلّين ، حافظاً للحديث والفقه ، عالما بالنحو واللغة مع دين وورع متين ، قال الدباغ : « بلغ المعزّ عنه انه فقير وانه لا مسكن له في البلد ، فبعث اليه بمال يشتري به داراً فلم يقبـله ابو بكر تورعاً منه ، فبعث اليه المعز حينئذ كتباً جليلة في الحديث والفقه مثل « المدونة » و« النوادر والزّيادات » لابن أبي زيد و« الموّازية » وكُتُباً في اللغة وغيرها مما له قيمة جسيمة . وكان ارسالها على رؤوس الحالين ـ نحو عشرين حمالا ـ فلما وصل اليه الرسول خاطبه بقوله : يقول لك الامير المعز : « هذه كُتُبٌ في خزائننا ضائعة وبقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعاً ،وانت أولى بامتلاكها للانتفاع بها » فاجابه ابو بكر : « اكتبوا على كل جزء منهـا تحبيسها على طلبة العلم » فكتب ذلـك ووُقّفت على الجامع الكبير بالقيروان (١) .

ولا مراء ان غالب مـا بقي من الكتب المحفوظة بالمكتبة العتيقة بجامع عقبة اكثره من مخلفات هذه الهبـة ، وقد يرى الزائر الآن بقـايا تلك المكتبة وعليها نص الوقفية وصيغتها بالحرف :

« مما امر سيدنا سيف الله وعبده المعز لدينه المؤيد لسنة نبيه أطال الله بقاءه ،وأدام عزه وعلاه،توقيفها بالمسجد الجامع طلبا لثواب الله عز وجل وابتغاء مرضاته على يد قاضي القضاة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هاشم سنة اربع وعشرين واربعمائة بمدينة القيروان » .

---

(١) المعالم ج ١ ص ٢٢٤

ها نحن جلبنا القدر اليسير من انباء الكُتُب وخزائنها عند الخاصة والعامة في المجتمع الافريقي من لدن الدولة الاغلبية الى العصر الصنهاجي الذهبي ، وذلك بقدر ما سمح به البحث وتيسّر استقصاؤه ، ولا شك عندنا ان ما فاتنا من أخبار الكتب أكثر بكثير مما أحصينا وتتبعنا ، وفوق كل ذي علم عليم .

والآن يحقّ لابناء افريقية ان يتساءلوا عن مصير تلك المجموعات واين ذهبت كل هذه الكتب الوافرة العـــدد الرفيعة القدر والمختلفة الموضوعات اذ يَصعب باديء بدء التفكير في تلاشيها وخروجها برُمّتها من القطر لدرجة انه لا يوجد اليوم من مصنفات بني الجزار ولا غيرهم من قدماء الاطباء تأليفٌ واحد في البلاد التونسية .

والجواب على ذلك بسيط – وبسيط جـــدا فيما نظن – وهو انه حصل للمؤلفات الافريقية ما حصل لاخواتها البغدادية والاندلسية ، واني لا اعلم – فيما علمت – أدوات تنتقل بسرعة ما تنتقل به الكتب من قطر لآخر ، عدا ما يتبدّد منها اثناء الحروب والفتن ، وما يفتقد بالاهمال وعدم العناية كالتمزق والحرق وعمل العثّ الى غير ذلك من المصائب والنوائب .

ولقد رأيت من المخطوطات القيروانية والتونسية ما يرجـــع تاريخ نسخه الى ذلك العصر الذهبي في اقاصي البـــلاد العربية فلقد شاهدت بمتحف دمشق العربي نسخة جليلة من كتـــاب « الملخّص »

للقابسي على الرق مكتوب في القيروان في حيـاة المؤلف ، ورأيت نسخة كاملة من مدوّنة سحنون على الرقّ ايضاً ترجع الى القرن الخامس وهي على غاية الجمال والضبط جلبها مالكها الحالي من مدينة « تنبكتو » ببلاد الشاد في اواسط السودان

وهذه مصنفات أبي حنيفة محمد بن النعمان القيرواني ، قاضي قضاة الفاطميين ، في فقه الشيعة الاسماعيلية وتاريخ ملوك بني عبيد لا يوجد منها اليوم تاليف واحد في البلاد التونسية وانما هي – باجمعها تقريباً – عند جماعة الاسماعيليين في الهند ، وقس عليه ما خفى عنك .

انظر الى ما روى ابو محمد عبد الله الشبيبي – من علماء القرن الثامن – فانه قال : « إن الوافدين لقراءة العلم بالقيروان من شغفهم بكتاب « المدونة » قد تغالوا في اقتناء نسخها واكثروا في ثمنها فاشتروا ما بالقيروان حتى عدمت منها (١) . . »

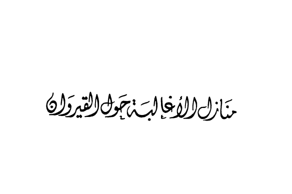
وفوق ذلك كله لا ننسى تلك الكارثة العظيمة المؤلمة : زحفة الاعراب من بني هلال وبني سُليم في آخر عهد المعز بن باديس سنة ٤٤٩ هـ فانها كانت الكارثة القاضية على تمدن البلاد اذ زعزعت اركان الحضارة العربية بافريقية ، وذهبت برونقها اللامع كامس الدابر ، وحتّمتْ

---

(١) المعالم ج ٣ ص ٢٢٦

على السكان الجـلاء الى اطراف الاصقاع ما بين المشرق والمغرب ، فاصبح القطر بعد انتقالهم أثراً بعـد عين مما جعل أحـد أبنائها الادباء – وهو علي بن محمد الخولاني المعروف بالحدّاد المهدوي – يندب حاله ، وقد اضطرّ لبيع جميع كتبه في مسقط رأسه ليتقوّى بثمنها على مفارقة وطنه والهجرة الى ثغر الاسكندرية ، فانشد قبل السفر :

قالت وابـــدتْ صفحةً كالشمس من تحت القِنَاعِ
بعتَ الدفاتِرَ وهي آخــــر مـا يُبَاعُ من المتَــــاعِ
فاجبتَهـا ويــدي على كبدي ، وَهَمَّتْ بانصداع
لا تعجبي ممـــا رأيتِ فنحن في زمن الضَّيَاعِ !


منازل الأغالبة حول القيروان





منازل الاغالبة حول القيروان

منذ تأسست القيروان كان الولاة والعمّال ـ من طرف الدولتين الاموية والعباسية ـ ينزلون « قصر الامارة » الذي أنشأه عقبة بن نافع الفهري حذو المسجد الجامع من الناحية الجنوبية حيث يوجد الآن براح فسيح لا عمارة فيه .

العباسية

واستمرت الحال على ذلك مع ما اعترى قصر الامارة من التغيير والاصلاح والتوسيع مدى تلك المدة الطويلة الى أن تولى ابراهيم بن الأغلب ناصية البلاد واستقل بحكمها ، فنزل أول إمارته هذا القصر ، الا أنه لم يسكن به الا أشهراً قليلة حتى ارتاد موضعاً قريباً من العاصمة يأويه ويأوي آل بيته وحشمه وحرسه ، فوقع اختياره على مكان بجنوب القيروان ويبعد عنها باربعة أميال ـ خمسة كيلومتر ـ في فحص متسع ؛ به ربوة معتلية على الارض تحميه من مياه وادي زرود لما ينساب في وقت فيضانه عند تهاطل الامطار في زمن الخريف .

هناك اختط ابراهيم مدينـة جديدة أطلق عليها اسم (العبّاسية) تخليداً لذكر ساداته الخلفـاء من بني العباس ، وكـان ابراهيم قصد باختيـاره ذلك الموضـع الطلق التبـاعد عن غوغاء العـاصمة الكبرى من ناحية ، ومن ناحية أخرى التحصّن من مفاجاة زعماء الجنـد العربي المزاحمين له ، الحاسدين لاستقلاله بزمام الأمر دونهم ، إذ كان هـو في الحقيقة فرداً من أفرادهم .

فعلى شرف تلك الربوة ابتـدأ ابراهيم بانشاء قصر لنفسه وحشمه سمّاه (بالرُّصافة) اقتـــداء بما فعل مخدومه أبو جعفر المنصور بمدينة السلام ببغداد .

ثم ابتنى قصراً ثانياً أسماه (الابيض) سكنه فيما بعـد ابناه عبد الله وزيادة الله مـــدة ولايتها ، ولا نعلم عن هنـدسة الـقصريْن ولا عن مشتملاتها شيـئًا يذكر سوى أنها كانا يحتويان على سقائف طويلة عريضة ، معقـودة السقوف ، وهناك كان يقف الخدم والفِتيان من الصقالبة ويجلس الزائرون ريثما يؤذن لهم بالدخول ، وهـذه السقائف تتقدّم قاعات الاستقبال والمخادع وغُرف السُّكنى .

وابتنى ابراهيم الاول بها جامعاً متسعاً للصـــلاة جعل له مـاذنة ـ صومعة ـ مستديرة مبنيـة بالآجر والعُمَد ، سبع طبقات لم يُبْنَ

أحكمَ منها ولا أحسن منظراً [(١)] ، على طراز المنارات المشاهدة اليوم في رباط المنستير والقصر الكبير في سوسة .

واتخذ داخل المدينة أسواق جمَّـــة لانواع الصنائع والتجارات ، وفنادق للمسافرين وحمامات ، وقد جعل بين الشوارع عدة رحاب فسيحة تتخلل الانحاء بقصد تهوية المدينة واجتماع السكّان ، أكبرها ساحة (المَيْدان) وبها كان يقع عرض الجيش والفرسان في أيام العرض والعطاء .

وحفر آباراً عميقة وبنى صهريجاً للماء الصالح للشراب ، وقد أدار على الجميع سوراً عالياً من الطوب المطبوخ ، من ورائه خندق عريض ، وِقايةً للمدينة من غائلة المهاجمين .

وجدير بالذكر أن الطوب المطبوخ – قراميد الآجر – كان في عهد بني الاغلب يمتاز عن غيره مما استعمل بعد لصلابته ومتانة طبخه وبكبَر حجمه اذ أن الواحدة منـــه يبلغ طولها ذراعاً كاملا – ٤٣ سنتيمتر – في عرض نيف وثلاثين سنتيمتر .

وقد فتح في السور المحيط بالمدينـة خمسة أبواب (باب الرحمة)

---

(١) راجع مسالك البكري ص ٢٨ ، ودائرة المعارف الاسلاميـة ، في كلمة (عباسيه) ج ٣ ط ليدن ١٩٠٥

و(باب الحديد) : قبليين وباب (غلبون) [١] و (باب الريح) : شرقيين ، و (باب السعادة) : غربي قُبالة المقبرة الخارجة عن السور [٢].

وأقام ابراهيم في اطراف المدينة عدة ثكنات ذات غُرف صغيرة ، بسيطة البناء لإسكان الحَرَس الذي اتخذه من الزنوج ، وكانوا زهاء الخمسة آلاف جلبهم من بلاد السودان وأعدّهم لمقاومة الثائرين لعدم ثقته بافراد الجند .

وانتقل ابراهيم الى سُكنى (العبّاسية) مع آل بيته ومواليه من الصقالبة ورجال دولته ، وقد هيأ لكل منهم منزلا مناسباً ، مثل (بني حُمَيْد) الذين تداولوا الوزارة في أيامه ومدة خلفائه ، ومثل أقاربه التميميين منهم غلبون المنسوب اليه الباب المتقدم .

وحُوِّلت مصالح الحكومة ودواوينها من القيروان الى هنالك ، ولم تكن لترجع بعدُ الى القيروان مدة الدولة الأغلبية ومن خلفها في الامر بافريقية .

وقد تحقّق حدسُ ابراهيم الأكبر ، فان مدينة العباسية كانت له ولعقبه الحصن الحصين والمعقل المنيع لدفع هجمات الثائرين وقمع حملات المتوثّبين على الدولة الفتية .

---

(١) باب غلبون منسوب الى الاغلب - ويدعى غلبون - بن عبد الله بن الاغلب ، صنو الاغالبة وتولى الوزارة لزيادة الله الاول

(٢) راجع البكري ص ٢٨

وكان ابراهيم يشرف بنفسه على تشييد البناءات حتى لما قدم عليه سفراء مملكة فرنجة وجدوه يراقب المرمّة ويامر الصنّاع بما يجب عمله .

وذلك ان ابراهيم لما كان مشغولاً بانشاء مدينته هذه وفد عليه رسُلُ الخليفة هارون الرشيد محمّلين بالهدايا الموجهة منه الى قارلُه (شارلمان) طاغية الافرنج ، وقدم عليه في آن واحد سفراء هذا الامبراطور الأخير ، وهم ثلاثة نفر ، اثنان من الافرنج وثالثهم ترجمان يهودي ، فانزل الجميع مكرّمين في دار ضيافته بالعباسية ، وأقاموا مدة الى ان تهيالهم السفر .

وفي العباسية أيضا عقد ابراهيم مع (قسطنطين) بطريق صقلية هدنة بين القطرَيْن لمدة عشر سنوات كان مبدأها عام ١٨٩ هـ . (٨٠٥م) ووقع في أثنائها فداء الاسارى بين الجانبين .

كما استقبل خلفاؤه بعده في العاصمة الجديدة نفسها سِفارات متوالية من بلاد الفرنج (فرنسا) ومن قياصرة القسطنطينية ، وكذا من الخلفاء العبّاسيين ،وكادت تكون المواصلات بين بغداد والعباسية متتابعة في كل ثلاثة اشهر من الطرفيْن ، أضف الى ذلك الوفود القادمة من بقية الممالك : من ملوك بني أُمية في الاندلس ، وأمراء السودان ، وقد بسطنا القول عن السِفارات المتبادلة بين القيروان وغيرها من البلاد في بحث مستقل .

وهكذا تسنّى لابراهيم الاكبر أن يؤسس مدينةً لنفسه ولابنائه

وخلفائه من بعده (العباسية) مقراً منيعاً للدولة الى أن تحـوّل عنها ابراهيم الاصغر الى (رقّادة) كما سيأتي ، ومن ذلـك الحين صـــارت العباسية تعرف باسم (القصر القديم) .

وقد سكنها بعد انتقال الامارة عنها لفيفٌ من الناس ، وولد فيها غير واحد من العلماء الاجلاء والادبـاء المشهورين مثل أبي العرب محمد بن احمد التميمي ، المـؤرخ الافريقي الكبير ، وسواه كثير ، وصار المنتسب اليها يعرف (بالقصري)

ولم يبق اليوم من معـــالم (العبّاسية) او « القصر القديم » سوى صهريج ضخم للماء ــ فسقيـة ــ خـــارج سور المدينـة ، وربوة في معد وادي زرود ، وليس من شك انه يوجد تحت ترابها التراكم ما بقي من انقاض المدينه التي تمّ خرابها في زمن الزحفة الهلالية أواسط القرن الخامس .

وفي التشوّق الى (العبّاسية) يقول الأمير مُجبر بن سفيان التميمي ، صنو الأغالبة ، وقد أخذه الروم أسيراً وحُمِل الى القسطنطينية فمات بها ، يقول تحنّنا الى مسقط رأسه (القصر القديم) :

ألا ليت شعري ما الذي فعل الدهر ... باخواننا يا قيروان ويا قصرُ
ونحن فإنا طحطحتنا رحى النوَى ... فلم يجتمع شمل لدينا ولا وفر
رأينا وجوه الدهر وهي عوابس ... باعيُن خطب في ملاحظها شزر

وفي آخر القصيدة يقول :

لعلّ الذي نجّى من الجبّ يوسفاً وفرّج عن أيوب إذ مسّه الضُرُّ
وخلّص ابراهيم من نار قومه وأعلى عصا موسى فذلّ له السحر
يصبّر أهل الأسر في طول أسرهم على مُعضلات الاسر لا سَلِمَ الاسر

وهي طويلة بديعة يتأوه فيها ويحنّ الى وطنه وسَكَنه في العباسية، وقد أودرناها في غير هذا الموضع .

رقــادة

تعاقب على ملك افريقية الامــــراء من بني الاغلب ، منذ عهد ابراهيم الاول وبنيه وحفدته ، يتخذون مدينة (العبـاسية) حاضرة لملكهم ، وما منهم أحــد الا يزيد في عمارتها ، ويحسّن من ابنيتها ، ويستكمل مرافقها على مرّ السنين حتى صــار الامر الى ابراهيم الثاني بن احمد سنه ٢٦١ هـ ، وقد شمخت الدولة عزّة وأبهة ، ورسخت فيهـا دعائم الرفاهية والرخـاء ، وذلك بفضل ما تمّ لها من فتـوح في البحر المتوسط ، فتسامت همّة ابراهيم الثاني الى أن يتخذ له حاضرة جديدة ، تخلف (العباسية) ، فطفق يبني مدينة (رقادة) سنة ٢٦٣ هـ .

على أن رُوّاة التاريخ افترقـوا في بيان السبب الذي حـدا بابراهيم الثاني على تأسيس مدينته ، ويقول البكري [١] : « ان (ابراهيم) أرِقَ وشرد عنـه النـوم أيامًا متتابعات ، لما كان يتعهّده من داء السوداء (الماليخوليا) ، فعالجه طبيبه (اسحاق بن عمران) فلم ينم ، فأشار عليه الطبيب بالخروج والمشي في البرية ، فلمّا وصل الى موضع (رقّادة) نام ، فسميت حينئـذ (رقّادة) ، واتخذتْ قـرارًا ومسكنًا وموضع فرجة للملوك » .

---

(١) المسالك والممالك ص ٢٧

وبعضهم يزيد ان الذي أشار عليه بالخروج والمشي هو الطبيب (زياد بن خلفون القيرواني) .

وفي غير هذا الموضع ناقشنا النصوص المتخالفة في هذا الصدد .

ويتسنّى لنا أن نستظهر مما ذكره المؤرخون السبب الحقّ لانشاء الحاضرة الجديدة ، ذلك ان ابراهيم حين تسنّم الامارة ، كانت افريقية قد بلغت المدى من قوة الدولة العسكرية في البر والبحر ، إذ كان لها أسطول يعدّ في الطليعة من أساطيل البحر المتوسط في العُدة والعديد، وأما الأهلون فكانوا في طمأنينة ورغد ، والسابلة في أمن ، والبلاد تدرّ خيراتها في ميدان الفلاحة وميدان الصناعة على السواء ، وما تنتجه يروج في الافاق ، شرقاً الى العراق ، وغرباً الى المحيط الاطلنطي ، وشمالاً الى الأصقاع السكندنافية ، وجنوباً الى أرض السودان . أضف الى ذلك ازدهار العلوم والفنون في المدائن الافريقية الكبرى ، ولا سيما القيروان التي أمّها طلاب العلم زرافات ووحداناً من بلاد الأندلس ومن أقطار الغرب ، فاصبحت تلك المدينة مهبط القُصّاد من العلماء الأجلاء ، والصنّاع المهرة ، وأرباب الحرف والمهن والفنون من شتى الأصقاع قاصية ودانية .

لاغرو إذن ان يتّخذ ابراهيم الثاني لنفسه مدينة فَتِيّة ، تكون مقراً له ، وعنواناً على نهوض بلاده في العلم والفنّ والاقتصاد ، ولكي تلائم ما أوتي من سعة الملك وبسطة السلطان ، ولعله أضمر في نفسه ان

يباري بمدينته الممالك القوية الأخرى ، وربمـا كان ينظر في ذلك الى العراق والى مصر، فقد أنشأ المعتصم الخليفة العباسي مدينة(سُرّ مَن رَأى) وأنشأ أحمد بن طولون صاحب مصر مدينة (القطائع) خارج الفسطاط.

لاح لابراهيم الثاني ان (العباسية) التي بناها جدوده ، باتت لا تناظر حواضر اخوانه من ملوك العرب ، ولا عواصم جيرانه من ملوك الافرنج ، فلم يكد يمضي على ولايته عام واحد ، حتى عقد عزمه على ابتناء مقرّ جديد للدولة ، يباهي به نظراءه ، ويوائم عصره ، ويخلد به اسمه ، ويكون لخلفه من بعده ، فوقع اختياره على مكان (رقّادة) وهو مكان طيب الهواء ، جيد التربـة ، قريب من العاصمة القيروانية الكبرى . قال البكري : « وليس بافريقية أعدل هواء ولا ارق نسيما ، ولا اطيب تربة من مدينة (رقادة) ، ويُذكر ان من دخلهـا لم يزل ضاحكاً مستبشراً من غير سبب . . . » [١]

ويكفي ان نشير الى ان مكانها كان معروفاً لمن تقدّم : « اذ كانت مُنيَة للصيد ، وفُسحة للأمراء ، فكانوا يخرجون اليها في زمان الربيع للنزهة مع عيالهم وحريمهم » [٢].

* * *

تقع (رقّادة) في الجنوب الغربي من القيروان وتبعد عنها نحـو

---

(١) البكري في المسالك ص ٢٧

(٢) المصدر نفسه

ثمانية كيلومترات ، وهي في بسيط من الارض يحاذي مفرش وادي زرود ، حيث ضريح سيدي عمر الكناني الآن ، وكان محيط دائرتها عند تأسيسها ــ بما يضاف اليها من حدائق وبساتين ــ أربعا وعشرين ألف ذراع وأربعين ذراعاً (قرابة عشرة كيلومترات) ، ثم اتسعت رقعتها نحو الثلث من بعد ، في أيام زيادة الله الاخير .

في خلال شهر صفر سنة ٢٦٣ هـ ــ نوفمبر سنة ٨٧٦ م ــ أمر ابراهيم الثاني بان تخطّ المدينة الجديدة ، ثم أدار بها سوراً محكماً يحيط بما ابتناه بعد ذلك من القصور والابنية ، وجعل منافذ المدينة في مدار السور سبعة أبواب ، عليها صفائح الحديد ، أعظمها قدراً « باب القيروان » الذي يتّجه منه الى العاصمة .

وكان في مقـــدمة ما يُعنى به أمراء الاغالبة منذ تولوا الملك ان يجتلبوا الماء من ينابيعه، وان بعدت عن الحواضر،عن طريق القنوات أو المجالب او الحنايا وان يتخذوا لحفظ الماء صهاريج للانتفاع بها حين احتباس الغيث ، وكانت تلك القنوات والصهاريج محكمة الصنـــع ، لتقاوم الاحـــداث وتشهد لاولئك الأمراء بالقـدرة والحكمة وحسن الاحدوثة على مرّ الزمان . وانها لسياسة مائية رشيـدة ، ما كان أشدّ الحاجة اليها في بلاد لا يعوز اقتصادها الزراعي الا ان أمطارها مختـلّة النظام في ابان الزرع .

اتبع ابراهيم الثاني تلك السُّنـة الحكيمة ، فساق الماء الى ربيبـتـه

« رقادة » في قناة مشتقة من حنايا « القيروان » ، فكان الماء يجـري الى المـدينة الناشئة من مسافة ثمانين كيلومتر او تزيد، واتخذ لخزن الماء صهاريج فساحاً بناها بالحجارة المنحوتة كهيئة الصناديق ، على غرار الصهاريج الرومانية المتينة .

ثم شيّد لنفسه خاصة قصراً فخماً عظيّما اسمـــاه « قصر الفتـح » وارحب فيه الأبهاء للاستقبال ، وأكثَرَ من الحُجُرات للحَرَم والآل والاحراس ، وعلى مسافة منه ابتنى قصوراً اقل شأنا من ذلك القصر العظيم ، وفي مقدمة هذه القصور الاخرى قصره المسمّى « قصر الصّحن » وعلّة تسميته بذلك ـ فيا يبدو ـ انه احتوى على صحن في وسطـــه رحبة وسيعة ، وكان هذان القصران يحفـــلان بمخادع خاصة للحريم ومقاصير وحمّامات .

وفي داخل « قصر الصحن » فيا نَعتقد أقام الامير جناحاً مستقلا ليكون مقراً (لبيت الحكة) وقد افردناه بالبحث في فصـل تقدم .

لم يفتر الامير عن مواصلة البناء ، فانشأ « قصر بغداد » و « القصر المختار » ، ومبلغ علمنا بهذين القصرين هو التسمية ، ولكننا متحققون بأن هذه القصور جميعاً كان يتوسط كلاً منها بستـان يختصّ به ، ولا يخلوا أحدها من صهريج يواتيه بالماء .

وان هذه البساتين والصهاريج لتتفـاوت في رحابتها وضخـامتها بتفاوت القصور في السعة والكبر .

نالت يد الحدثان من هذه القصور ، حتى عفتْ عليها ، الا قليلاً من جدران « قصر البحر » ماثلة حتى اليوم ، عمد اليها بعضُ شيوخ العربان ، فاجرى فيها بعض الترميم ، واتخذها سكناً ، فحقّ عليها قول من قال :

واذا نظرتَ الى البلاد وجدتَها   تشقى كما تشقى العبادُ وتسعدُ

ويناسب ان نلفت النظر الى ان بني الاغلب كثيراً ما استعملوا في بناءاتهم أوضاعاً معمارية واشكالاً هندسية اقتبسوها ممن تقدمهم من الامم في افريقية، علاوة على الامثال التي ورثوها من الحضارة الاسلامية الشرقية وأدخلوها البلاد .

ومن جملة ما قلّدوا فيه سالفيهم من الرومان والروم البيزنطيين استعمال الفُسَيْفسَاء في فرش الغُرف وزخرفة جوانب صهاريج الماء بها ويمكن ان يشاهد ذلك الى الان في انقاض رقادة ، لاسيا في ساحة قصر « الفتح » فانه يوجد بقايا مهمة وجميلة من الفسيفساء ذات الالوان المختلفة الرسوم الهندسية وتماثيل للخمائل والزهور ، وليس من شك ان أمراء بني الاغلب استعملوا في هذه الصناعة بقايا الروم الذين اختاروا الاقامة في البلاد تحت ذمة الاسلام ، ولا يخفى ان هؤلاء النصارى بقوا على دينهم الى اواسط القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد)

ويحتمل ايضا ان الامراء جلبوا بعضا من أرباب تلك الصناعات من جزيرة صقلية ، واستخدموهم في عمارة قصورهم ودورهم .

حدائق رقادة

أما بساتين رقادة فكانت جنات معروشات ، وغير معروشات، اغترس فيها ابراهيم الثاني أصناف الاشجار والازهار ، فكان فيها ألفاف الحمائل ، وألوان الازاهير ، وربما اتى ببعض ذلك من العدوة الافرنجية المشمولة بسلطانه.

حكى القاضي ابراهيم بن الكوفي قال [1] :

« دخلت يوماً مع الامير ابراهيم بن احمد الى جَنان برقادة ، فيه ثمرٌ قد طاب،فاخذ الامير بعض الثمر فناولنيه فاكلته ولم اقل شيئاً » فالتفت اليَّ وقال :

« دخلتُ هذا الجنان مع عبد الله بن طالب (القاضي) في مثل هذا الحين ، فناولته من بعض ثمره ، فقال لي : « ايها الامير ، يجب عليك لله شُكران : بَلَّغَكَ الى غراسته ، ثم اكلت من ثمرته » فقلت له : «وماهذا الشُّكر ؟ قال : ان تُصلِّي ركعتين » فامر ببساطيْن ، فبسط لي واحد وله آخر ، فصلينا ركعتيْن ، ثم قال لي ابن طالب . « بقي اخرى . فقلت : وما هي ؟ فقال : « تبعث بصدقة الى اهل الدمنة (مستشفى

---

(١) رياض النفوس للمالكي – ج ١ ص ٣٨٢

القيروان) فان أهله أهل زُمانة وضعف » قـال : ففعلت . ثم قال لي : « وبقي شُكر آخر . قلت : وما هو ؟ قـال : تعزل من عُمّالك من كان جائراً ، وتجعل من يعدل في الرعية » قال : فامرت بذلك . وسكت الامير لحظة ، ثم التفت اليّ وقال: ودخلتُ هذا الجنان مع غـيره (من القضاة) فلما ناولته من ثمره ، قـــال : الامير يحبّ قاضيه ، والرعية تمهنه. فانظر كَمْ بين الرجلين ! » . . . .

اسس ابراهيم الثاني وسط مدينته مسجداً جـامعاً ، غير بعيد من قصره « الفتح » واصطفى له إمامـــاً للصلوات الخمس ، يجري عليه عشرة دنانير من الذهب كل شهر ، وقد حلّى مسجده بِعُمُدٍ من الرخام جاء بها من جزيرة صقلية، ثم نقلها الفاطميون فيا نقلوا الى (المهدية) واستخدموها في ابنيتهم هنالك [١] .

وكان في جانب المحراب مقصورة يؤدي فيها الامير صلاة الجمعة، وفي هذه المقصورة يجتمع بكبراء الدولة و وجوه الأمّة ، للمشورة في مثل تسمية قاضي الجماعة للقيروان ، او إعلان الحرب ، او تجهيز غزوة من غزوات البحر ، الى غير ذلك من شؤون المملكة الجسام

---

(١) يظهر ان هذه الاعمدة اقتلعها من أماكنها عبيد الله المهدي واستعملها في بناءاته المحدثة بمدينة (المهدية)ولا يبعد عندي ان تكون الاعمدة البيضاء المدخلة في صلب سور المهدية - من ناحيته القبلية مباشرة - هي من هذه السواري المنقولة من رقادة ، ومازالت رؤوسها ظاهرة لمن يمر امامها في البحر .

ويسعنا ان نستدلّ بهذا على ان المسجد الجامع بمدينة القيروان كانت به مقصورة غير المقصورة القائمة اليوم . وهي التي انشاها الامير المعز بن باديس الصنهاجي ، فانه لا يصحّ في العقل ان يكون بمسجد رقادة مقصورة يصلي فيها الامراء ، ويخلو من مثلها مسجد العاصمة الكبرى ، خلال مدة الولاة الامويين والعباسيين جميعاً ، على حين ان اتخاذ المقاصر في مساجد عواصم الحُكم سُنّة متّبعة منذ خلافة معاوية .

ومما يؤيد ذلك أننا نجد قوس باب مسدود في داخل المقصورة القائمة اليوم بمسجد القيروان ، وذلك الباب المسدود أغلبي الطراز على وجه التحقيق ، واغلب الظن ان ذلك الباب كان لدخول الامير الى مقصورته ، ونحن نشير الى ذلك ليكون الباحثون بعدنا على بينة وان كنّا لم نظفر بَعدُ من النصوص بما يجلو لنا خفية الامر .

لم يقتصر ابراهيم الثاني على ان تكون عاصمته مستقلة بمسكنه هو وحاشيته ودواوينه ومرافق حكومته ، ولكنه زوّد المدينة بالاسواق لمختلف التجارات ، والفنادق لنزول المسافرين . والحمّامات العامة .

وكان بين القيروان ورقادة طريق صادر وارد ، لاينقطع عنه الراجلون والراكبون صباحاً مساء ، وفي ظاهر المدينة ، خلف السور ، مَهّدَ ابراهيم الثاني ميداناً شاسعاً يسمّى « الملعَب » تجري فيه الخيل ، ويتخذه الجند لأيام العرض ، وفي جانب من هذا الميدان مصلّى العيدَيْن ،

وكان من شان امراء بني الاغلب ان يؤموا الناس في الصلاة ويخطبوهم في المواسم والاعياد (١) .

وقد رخّص الامير للشباب ولاهل الخلاعة واللهو ان يرتادوا الحانات في مدينة رقادة ، وكان قد آذن بهذه الحانات او غضّ الطرف عنها في ارجاء المدينة ، على حين ان بيع النبيذ كان محظوراً في مدينة القيروان، وذلك ما بعث احد ظرفاء الشعراء من اهلها ان يسأل الامير : (٢)

يا سيد الناس وابن سيّدهم — ومن اليه رقابُ الناس منقادة

ما حرّمَ الشُّرْبَ في مدينتنا — وهو حلال بأرض رقــادة

ولم ينته الينا بماذا اجاب الامير عن هذا السؤال .

على ان ابراهيم الثاني كان يرى ما يراه سائر اهل بيته من الرُّخصة في شرب النبيذ ، وان الأغالبة كانوا يجنحون في ذلك الى رأْي اهــل العراق على مذهب أبي حنيفة النعمان وصحبه ، وهو المـذهب المرسوم لسادتهم (بني العباس)

---

(١) البيان المغرب ١ : ١٥٩

(٢) معجم البلدان لياقوت

ومن طريف ما حكاه أبو اسحاق الرقيق – مؤرخ افريقية الكبير – قال : [١]

« كان بَكرُ بن حمّاد – الشاعر الأديب – ينتجع ابراهيم بن أحمد ابن الاغلب ، ويمدحه بغرر القصائد ، فغدا يوماً الى رقّادة بديح له ، وقصد الفتى (بَلاّغ) خادم الأمير ، فقال له الفتى : الأمير عنا مشغول في هذا اليوم . قال بكر : فالطف بي في إيصال رقعة اليه ، فقال : انه مصطبح في جِنان قصره مع الجواري ، ولا يصل اليه احد ، فارتجل بكرٌ مقطوعاً كتبه في رقعة ، واحتال (بلاّغ) في ابلاغها ، مساعدة للشاعر ، وكان في الرقعة أبيات ، منها :

خلقن الغــواني للرجال بليّــةً فهنّ موالينا ونحن عبيدهــا
اذا ما أردنا الورد في غير حينـه أتتنا به في كل حين خدودهــا

وكتب تحت الأبيات :

فان تكن الوسائل أعوزتني فان وسائلي ورد الخــدود

وبلغت الرقعة الى الأمير،فلما قراها دفعها الى الجواري ، فانشدنها وأظهرن سروراً بها ، وشفعن اليه الى أن أخرج الى بكر بن حمّــاد بصرة مختومة فيها مائة دينار .

---

(١) الحلة السيراء ص ٢٦٢

وقد علّق ابراهيم الرقيق على هذا الخبر بقوله :

« ... ووصل الى بَكْر من الأمير ابراهيم مال عظيم على مدائحه »

أسكن ابراهيم الثاني عسكره في ثكنة فسيحة تُعرف (بدار البيلَزْميين) كثيرة الحُجُرات ، لها باب واحد ، والبلزميون قوم من العرب كانوا يعسكرون في مدينة بلزمة من معاقل الاغالبة في أرض الزاب ، جنوب عمالة قسطنطينة فدعاهم ابراهيم الثاني اليه في حادثة طويلة ، دوّنها التاريخ ، وكانوا يزيدون على الألف من عرب قيس وغير قيس [1] .

واتخذ ابراهيم الثاني ثكنات أخرى لحرسه من رقيق السودان ، مقتدياً في ذلك بجده الأكبر ابراهيم في مدينته العبّاسية ، فاستكثر منهم حفيده ، حتى قاربت عدتهم في أيامه عشرة آلاف . وفي بعض تلك الثكنات كانت تقوم أبراج « حَمَام الرسائل » ، لانهاء الأوامر العاجلة الى أطراف المملكة ، والمأثور عن أمراء الأغالبة انهم كانوا يُعْنون بتربية هذا الجنس من الحَمَام ، يستكثرون منه ويستخدمونه ، فكانت الرسالة بينهم وبين جزيرة صقلية أو طرابلس تبلغ في يوم إنفاذها على جناح الطائر !

وقد راعى ابراهيم الثاني في خطة المدينة ان تنفسح طرقاتها ،

---

(١) البيان المغرب ١ : ١٦٢

لتجول فيهـا العَجَل (العربات) ، وكان استعمالها كثيراً في العصر الاغلبي ، عليها تنقل أثقال الجيش ، وتحمل مـواد البناء ، ثم انقطـع استخدام العجل في افريقية بعد سقوط الاغـالبة ، فلم يكن لها ذكر في أيام الفاطميين ، ولا في مدةبني زيري الصنهاجيين الا قليـلا . والعلّة في في ابطالها ان هؤلاء وهؤلاء الذين جاءوا بعد الاغالبة لم يعنوا بتعبيـد الطُّرُق ، ولا باصلاح الجسور على الاودية ، التي ترجع الى العهد الروماني ، تلك الاودية التي كان يتعهدها الاغالبة بالترميم والاصلاح ، على نحو مـا بيناه في غير هذا المقام .

ومن معالم رقادة التي تستحق الذكر : « دار الطـراز » ، وكانت مصنعاً تُنسج فيه الاكسية من الحرير والقُطن والصوف ، وكذلك العمائم والاحزمة إلى غير ذلك من الخِلَع التي يهبها الامير في المواسم وعند تقليد المناصب لاعيان الامة ورجالات الدولة . وكانت هذه الخِلَع عليها كتابات موشيَّة بخيوط الحرير والذهب ، وهي تقـوم مقام الاوسمـــة والنياشين في عصرنا الحديث .

لبث ابراهيم الثاني في ولايته قرابة ثلاثين عاماً ، يعنى فيها بمدينته أيمّا عناية ، ويتعهدها بالوان التنسيق والتنميق ، وأنشأ بها الكثير من دواوين الحكومة ، ومن الدور الرفيعة ، ليقيم بها كبراء دولته وقضاته

وحاشيته ، حتى قال (الرقيق) المؤرخ : « ان رقّادة صارت أكبر من القيروان ... » [١]

* * *

ظلت «رقّادة» دار ملك بني الاغلب ، حتى تولّى زيادة الله الاخير سنة ٢٩٠ هـ ، وقد نزل عن قصور جـده ابراهيم لبعض ذوي قرباه ووزرائه ، وابتنى لنفسه قصراً سماه « قصر البحر » ، في وسط بستان مترامي الارجاء ، وفي جانب منه صهريج للماء طوله خمسمائة ذراع – نحو ٢٢٥ مترا – وعرضه اربعمائة ذراع ينهمر اليه الماء بساقية ، فلذلك سمى القصر (بالبحر).وبعد حين ابتنى قصراً آخر أطلق عليه اسم (العروس) ، أربع طبقات ، أنفق عليه فيما قدره الخبراء وقتئذ مائة ألف دينار واثنين وثلاثين ألف دينار ، اعني مـا يقرب من ألف وخمسين كيلو ذهبا خالصا [٢] .

وقد حفظ لنا التاريخ اسم الرجل الذي وكل اليه زيـادة الله الاخير أعمال العمران في مدينتـه ، وهو القـائد (أبو مسلم منصور بن اسماعيل بن يونس) وقد باشر ذلك في خلال سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) فاكتمل للمدينة هندامها ، حتى قال عبيد الله المهدي – وهو من هو ؟ – عند نزوله برقّادة بعد سقوط دولة بني الاغلب :

---

(١) البيان المغرب ١ ص ١١٣ و ١١٧

(٢) الحلة السيراء ص ٢٦٥ – والبكري : ٢٦

_ « رأيت ثلاثة اشيـــاء في افريقية لم أر مثلها قط في المشرق : الصهريج الذي بباب تونس (من ابواب مدينة القيروان) ، وقنطرة باب ابي ربيع (في القيروان أيضا) وقصر البحر برقّادة . . . »

* * *

دالت دولة بني الاغلب على يـد الداعي أبي عبـد الله الصنعاني سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) ، وقامت مقامها الدولة الفاطمية ، وغـــادر زيادة الله الثالث بلاد افريقية يبغي المشرق مخلّفـا وراءه ملكاً عظيماً أسسه أجـداده وآباؤه الصناديد الذين دوّخـوا جوانب البحر المتوسط ، في البر والبحر ، وغلبوا على أصقاعه الغربية ، وأثّلوا بها حضارة عربية افريقية يضنّ بمثلها الزمان .

نزل الداعي الصنعـاني (قصر الصحن) ، وآلت اليـــه ذخائر الاغالبة وتراثهم ، فادخرها حتى يقدم عليه المهدي من سجلماسة ، فوصل الى رقادة سنة ٢٩٧ هـ ، ومعه ابنه أبو القاسم وحاجبه جعفر بن علي ، وقد استقبلهم وجوه القيـروان وسُراتها في موكب مشهـود ، وصفه المؤرخون ، وحلّ عبيد الله في (قصر الصحن) ، وأنزل ابنـه (قصر الفتح) ، ووزّع على رجال حاشيته سائر القصور والدور ، ولحقت به بعد حين دواوينه واجناده في الاماكن المعدّة من قبل ، فلما استقر في رقادة تَسمى (بالمهدي) ، وتلقب بأمير المؤمنين ، فكان عبيد الله هذا أول من تجاسر على ان ينازع بني العباس في بغداد رسوم الخلافة .

وما لبث المهدي ان عجّل بداعيه ، ممهّد الملك له ابي عبد الله الصنعانيّ واخيه ابي العباس ، اذ امــر بقتلهما ، وضمت رفاتهما ضفة حفير قصر البحر سنة ٢٩٨ هـ . وبذلك خلا الجو لعبيد الله .

استأنفت رقادة مهمتها الاولى ، فكانت مقراً للدولة الجديدة ، حتى خطر للمهدي ان يحوّل عاصمته الى جهة البحر ، فاسس القاعدة التي جعل اسمها نسبة اليه ، وهي (المهدية) ، وانتقل اليها هو وآل بيته ورجال دولته وجنوده من البربر الكتاميين وغير الكتاميين ، وكان له فيها قصر خاص به ، ولولده ابي القاسم قصر مثله ، واحاط المدينة بسور .

* * *

وتسرّب الوهن من بعد ذلك الى رقادة ، وغاض بهاؤهــا شيئاً بعد شيء ، ولم يدم لها العزّ والشموخ اكثر من خمسة واربعين عاماً نعمت فيها بجاه السلطان ، وبُعْد الصيت ، وروعة النضارة ، حتى باتت في عداد المدائن التي اسفرت عنها الحضارة الاسلاميـة ، مثل (سر من رأى) العباسية بالعـراق ، و (الزهـراء) الاموية بجانب قرطبة وتلك الايام نداولها بين الناس .

الفسيفساء في المعالم العربية

في البحث السابق تكلّمت عما يوجد من الفُسَيْفِسَاء في انقاض رقّادة الاغلبية، وبقي عليّ أن آتي في الـمامة ـ بشيء من التفصيل ـ على استعمال العرب هذا النوع من الزركشة في مبانيهم .

فالفسيفساء (وتسمى عند الافرنج : موزايكا Mosaica) هي قِطع صغيرة مكعّبة الشكل ، تتّخـذ من المرمر والرخام والحجارة وأحياناً من الزجاج الملوّن ، وترسم على مادة رخوة ـ كالجبس المبلول مثلا ـ فتركّب منها يدُ صانع خبير صوراً محكمة للآدميين والحيوانات الضاري منه والداجن، والنبات والازهار ، وتحوّل برمّتها بعد جفافها الى الواح في احجام متغائرة بين كبير وصغير ، وتغطّى بهـا أرض البيوت والقصور والمعابد ، أو تلصق بجوانب جدرانها ، فيبان للناظر من رؤياها روعة فنّ وجمال يكاد يكون طبيعياً مثلما لو كانت لوحة زيتية متقنة .

والفسيفساء في أصلها من مخترعات اليونان بمدينة الاسكندرية ، وعنهم أخذها الرومان ، وسرعان ما انتشرت في اطراف امبراطوريتهم شرقاً وغرباً ، وكذا في عصر الدولة البيزنطية ، وقلّدم العرب بعد

ذلك ، وزخرفوا بها بعض مبانيهم الشهيرة ، فجلب خلفاء بني أمية الصنّاع الماهرين من بيزنطة ــ قبيل انتهاء القرن الاول ــ واستخدموهم في توشيح جدران المسجد النبوي بالمدينة ، والجامع الاموي في دمشق، والمسجد الاقصى في القُدس،فرسموا على جوانب كلّ منها الواحاً بديعة ومناظر جميلة ، تمثّل حدائق غناء من بينها خمائل خضر تجري من تحتها الانهار ، وليس في جميعها أثراً لصُوَر الآدميين ، ومازالت بقية من تلك الالواح الخلاّبة ظاهرة للعيان في عاصمة سورية وفي القُدس ، اما ما كان منها في المدينة المنورة فقد انعدم تماماً إثر حريق شبَّ قديماً في الحرم النبوي .

وفي مدة استيلاء الرومان على شمال افريقية انتشر استعمال الفسيفساء في فرش البيوت وقاعات المعابد والهياكل ، وتسرّبت طريقتها الى سكّان البلاد من ابناء البربر ،متّبعين في ذلك سبيل الجالية اللاطينية[١] وكثُر اتخاذها لدرجة أن ما يوجد منها الآن ضمن آثار البلاد التونسية ــ كثرةً واتقاناً ــ ليس له مثيل في غيرها من اقطار البحر المتوسط الاخرى،وما ذلك إلّا لأن الافريقيين في ذلك العصر تغالوا في زركشة

---

(١) اللاطين ، هم جنس الرومان الاصلي سكان ايطاليا قديما ، وقد اعتدت ان اكتب اسمهم بحرف الطاء متبعا سلوك قدماء مؤرخينا ــ ومن جملتهم ابن خلدون ــ خلافاً لمن يرسم اسمهم بالتاء من الكتاب العصريين .

مساكنهم بها ، سواء الغني منهم والفقير كل حسب طاقتـه . ودام هـذا التقليد متّبعاً الى ايام البيزنطيين من بعدهم .

فلما فتح العرب افريقية وجدوا تلك العادة راسخة في السكّان ، مألوفة لديهم ؛ وقــد شغلت الغزوات والحروب العربَ عن الاهتمام بزخرفة بنــاءاتهم وتزويقها ، حتى اذا ما تولى بنو الاغلب الامـارة واستقر بهم القرار،وجّهوا عنايتهم الى تعمير القطر وتمدينه ، فشرعوا في اقامة المعالم العمومية في البلاد . وقد امتدّ سلطانهم الى جزائر البحر وسواحله المقـابلة لافريقية ، فطاب لهم حينئذ ان يقيمـوا المـدائن والمُتنزَّهات خارج عاصمتهم الكبيرة – القيروان – وبنوا فيها لانفسهم ولحاشيتهم البيوت والقصور الفاخرة،واستخدموا ما كان تحت ايديهم من حذّاق البُنّاة .

وفي مدينة رقادة شاء مؤسسها ابراهيم الثاني ان يزركش بعض حافات صهريج قصره الكبير بالواح جيلة من الفسيفساء على الطريقة الموروثة صناعتها من تاريخ تقادم عصره .

ولا يبعد عندي ان يعثر يوماً مّا على الواح أخرى من هذا النوع في في انقـاض القصور التي ما زالت مدفـونة في الـتراب ولم تصل اليها الحفريات الاثرية .

ويؤيد ما أشرت اليـه ان الخلفاء الفاطميين – ورثـة الاغالبة في

الملك ــ اتخذوا الفسيفساء في فَرش غُرف من منازلهم بالمهدية ، وقد عُثِر أخيراً في انقاض قصر القائم بن عبيد الله المهدي على رَدْهَة كبيرة مزخرفة بعشرات المتروات من الفسيفساء العربية التي تمثّل دوحات كثيفة تتفرع الى اغصان باسقة بابدع صنع وأجمل لوْن .

أضف الى ذلك اني زرتُ منذ زمان آثار مدينة (بُلّا : Bulla regin) الرومانية الواقعة بالقرب من سوق الاربعاء بغربي التراب التونسي ، ووقفت هناك على آثار كنيسة مسيحية يرجـع تاريخها الى العصر البيزنطي ، ورأيت في قاعتها الوسطى المفروشة بالفسيفساء تربيعات كبيرة مختلفة الاشكال والصور ، ويتخلّل تلك التربيعات واحدة تخالف الاخرى المجانبة لها في التصوير ، فان زركشتها وتوريقها يعود بلا ريب الى الطراز العـربي لا الى الفن الروماني او البيزنطي ، فاستغربت وجود لوحة عربية التصوير والهندام بين اخواتها القديمة ، وبعد التروي بَانَ لي ان تلك اللوحة جديدة حلّت محل تربيعة قديمة انعدمت وتلاشت قطعها الصغيرة فعُوّضت في مدة الاستيلاء العربي بغيرها ، وانما صانعها المسيحي قلّد في رسمها زخرف الفن الاسلامي الآخذ وقتئذ في الانتشار في البلاد التونسية ــ اي في اثناء القرن الثالث والرابع للهجرة ــ وكلّنا يعلم ان العرب بعد فتحهم لافريقية رخّصوا لاهل ذمّتهم ــ من يهود ونصارى ــ بتجديد كنائسهم ، وهكذا كان سلوكهم مع اهل قسطيلية ــ بلاد الجريد ــ وبعض مدائن الساحل وقراه وغـيره من الجهات التونسية التي تمسّك قاطنوها بعقيدتهم المسيحية او الاسرائلية .

ساقني الى الحديث عما تقدم اعتراض بعض غلاة الافرنج عليّ في نسبة لوحات الفسيفساء الموجودة الآن في رقادة الى الاغالبة ، مدّعياً — بلا حجة ولا برهان — ان تلك اللوحات كانت هناك قبل دخول العرب افريقية ، فوجب كشف الواقع الاثري واثبات الحقيقة . وسواء أكانت تلك الالواح ترجع بوضعها الى العصر العربي او الى عهد الرومان فان الفنّ المعماري الاسلامي له من المميزات الخاصة به ما يغنيه عن ذلك الاقتباس ، و . . .

في طلعة البدر ما يُغني عن الشُّهُب !

وما دمنا نخوض في موضوع الاقتباس فلنذكّر ان جميع الحضارات — بفعل امتزاج الاجناس والعناصر — قلّدت بعضها بعضاً في الاوضاع والرسوم ، فاخذ اللاحق عن السابق الاشكال والامثال في البناءات والعادات وادخلها في تقاليده ؛ وذلك من يوم ظهر البشر على وجه البسيطة ، ولم تزل الحال كذلك الى آخر الدهر . ولله الامر من قبل ومن بعد .



المصاهرات بين افريقية والعراق

زخرت القيروان ـ في مستهل القرن الثاني للهجرة ـ بالسكّان ، ولم تكن رقعتها تضم أهلها الاصلاء وحدهم ، وإنما تفسح صدرها للواردين عليها من مختلف الامصار الإسلامية ، فكانت بيئتها الاجتماعية تحتوي على عناصر أشتات من عرب وأفارقة وبربر وروم ، وقد أشار الى ذلك الرحالة (اليعقوبي) حيث يقول : [١]

« وفي مدينة (القيروان) أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب ، من مضر وربيعة وقحطان ، وبها أصناف من عجم البلاد البربر والروم وأشباه ذلك .. »

ومن بين قطّان القيروان : الاجناد وأبناء الاجناد الوافدون من شمال جزيرة العرب ، ومن اليمن والشام ومصر ، وكذلك الولاة

(١) كتاب « البلدان » لليعقوبي ـ وقد زار المغرب في حدود سنة ٢٨٥ هـ ـ طبع بغداد ص ١٠٦ .

والاعوان الذين تبعث بهم الخلافة الاموية لكي يسند اليهم الولاة مرافق إدارة البلاد ، وكذلك أهل التجارة الذين يزاولون عرض بضائعهم المجلوبة من أطراف المشرق والمغرب .

وفي من ضمّت القيروان طائفة أخرى غير هؤلاء وهؤلاء ، طائفة العِلية والسُّراة من أهل البيوتات العربية العريقة الانساب ، ساقتهم مطامحهم السياسية الى افريقية ، لكي يكونوا بمنأى عن مقر الخلافة ، وبنجاة من سلطان بني أمية ، أو كانت هجرتهم لغير ذلك السبب من الدواعي والمرغّبات ، فوجدت الجالية العربية الفتية في مقدمهم تعزيزاً لها وتقويةً على الايام ...

فمن اعيان الوافدين : (منصور بن عبد الله بن يزيد الحميَري) من ذرية (ذي رُعين) احد ملوك اليمن قبل الإسلام .

طرأ منصور على القيروان نحو سنة ١١٠ هـ . واتخذها له وطناً ، وابتنى بها داراً حسنة في الحي المنسوب الى (بني نافد) غير بعيد من المسجد الجامع ، وقد صاهره البشير بن خالد صاحب الشُرطة بإفريقية إذ تزوج اخته ، فزاد ذلك من مكانته في الجالية العربية .

قال ابن الابار[١] ـ ناقلا عن ابن الوكيل القيرواني ـ : « كان منصور

---

(١) كتاب الحلة السيراء : ص ٣٥١

شريفاً في قومه ، معروف المكانة فيهم ، مذكوراً بالبلاغة والشعر وكرم الاخلاق »

وبعد حين من مقدمه ، ورد عليه شاب قُرَشي من البصرة ، يعرف آل بيته في المشرق ، وهو : (ابو جعفر عبد الله العبّاسي) فاكرم منصور مثواه وانزله على الرحب والسعة .

ويجمل بنا هنا ان نسوق نبذةً من خبر أبي جعفر وما كان له من الصِلّة الوثيقة بإفريقية التونسية قبل ان يلي الخلافة وبعد ان وليّها ، وهو : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وامه (سلامة) بنت بشير ، جارية بربرية من قبيلة نفزة التونسية ، تزوجها ابوه محمد فولدت له ابا جعفر سنة خمس وتسعين للهجرة بمدينة البصرة ، فنشأ بها ، وقرأ على اعلامها ، ومن رفقته في مدارسة العلم زمن الصغر : عبد الرحمن بن زياد بن انعم الافريقي (١)

حكى عبد الرحمن عن نفسه ، قال :

ــ « كنت أطلب العلم مع ابي جعفر المنصور ، قبل ان يَلي الخلافة ، فادخلني يوما منزله في (الكوفة) ، فقدّم طعاماً ومُريْقة من حبوب ليس فيها لحم ، ثم قدّم زبيباً ، وقال : يا جارية ! عندك حلوى ؟

---

(١) واجع ترجمته في « خلاصة » تاريخ تونس ص ٥٩

قالت : لا ، قال : ولا تمر . قالت : ولا تمر ». فاستلقى ابو جعفر ثم قرأ هذه الآية : (عسى ربكم ان يهلك عــدوكم ، ويستخلفكم في الارض ، فينظر كيف تعملون) .

ولما كبر ابو جعفر وترعرع ، اقتفى خطا اخويه الكبيرين ابراهيم المعروف بالامام ، وابي العبّاس الذي اشتهر فيما بعد بالسفاح ، فجرى مجراهما في دعوى استحقاق الخلافة ، فاذكت الدولةُ الاموية العيونَ عليه ، واوعزت إلى العمّال والاعوان ان يتتبعوه ، وان يتعرفوا ما يكون منه ، وان يقبضوا عليه إذا لزم الامر ، فكان هو واهل بيته يتخوّفون ما استطاعوا ، ويسرّون دعوتهم بكل سبيل ، ويلوذ منهم لائذون بالبقاع القاصية ، مثل خراسان ببلاد فارس ، وصنعاء باليمن .

وما عتم ابو جعفر ان توخّى إفريقية لما بينه وبينها من رحم واشجة ، فان ابن عمه حفيد عبيد الله بن عبيد الله بن العباس كان قد طرأ على القيروان وتزوج فتاة تسمّى « أروى » و تكنى « ام موسى » ، وهي ابنة منصور بن يزيد الحِمْيَري فاولدها بنتاً ، ومات نحو سنة عشرين ومائة للهجرة ، فبقيت « أروى » في بيت أبيها ، وتقلّبت بها الايام ، حتى كان مقدم ابي جعفر يستلحق ابنة ابن عمه في ظاهر الامر ، على حين ان حقيقة الغرض من مقدمه هي التماسه سبيل النجاء من طلب بني أمية له . حلّ ابو جعفر ضيفاً عزيزاً على منصور بن يزيد الحميري،

وفي اثناء مقامه عنده ، شهد من وسامة « أروى » ما بهر بصره وخلب لبّه ، فخطبها إلى ابيهـا وتزوجها ، وتعلّق بهـا أكبر التعلق طول حياته ، وقد اشترط لها ابوهـا فيعقد زواجها ألا يتزوّج أبو جعفر غيرها والا يتخذ السراري معها ، فإن تسرّى عليها كان طلاقها بيدها، كما جرت بذلك عادة اهل القيروان من عهد قديم، حتى سميت تلك الطريقة بالصداق القيرواني (١) .

مكث ابو جعفر في كنف منصور بن يزيد الحميري والد زوجـه (أروى) حتى كتب الخليفة هشام بن عبد الملك الى عامله على إفريقية يطلب منه القبض على ابي جعفر، فلما احسّ الخطر اضطرّ ان يستخفى في بيت ختنه بشير بن خالد ، وهو قصر يقوم في وسط ضيعـة خارج القيروان على طريق سوسة ، وربما كان في موضع الخزّازية الآن .

وبعد حين ازمع ابو جعفر عوداً الى المشرق ، ليلتحق باخوته وآل بيته ، وكانت انباء دعوتهم تتناهى اليـه في القيروان ، فانحدر بزوجه أروى مختفياً الى الكوفـة ، وظلّ يتردّد على منـازل الاشياع من الهاشميين في سرّ ، حتى ظفرت الدعوة العباسية بناصرة ابي مسـلم الخراساني ، وسقطت دولة بني امية ، وآلت الخلافة الى عبد الله السفاح

---

(١) راجـع ما كتبناه في هـذا المعنى في كتابنا « شهيرات التونسيات » ص ١٠ طبـع تونس .

سنة ١٣٢ هـ. وكان الاخ الاكبر لابي جعفر ، فلما مات اسندت اليه الخلافة سنة ١٣٦ هـ. وفي بادئة امره انشأ مدينة بغداد التي سميت اول ما سميت : مدينة المنصور ، وابتنى لنفسه قصراً سماه « قصر الخُلْد » واسكن فيه زوجه أروى وبنيه وذويه .

وقد وفّى المنصور لزوجه « أم موسى » ما كان عاهدها عليه في عقدة الزواج ، فلم يتخذ له زوجاً سواها ، ولم تكن له سراري معها طول حياتها ، وقد ولد له منها جعفر اكبر أولاده ، ومات في حياة أبيه ، وهو والد (الزبيدة) التي تزوجها هارون الرشيد فيما بعد ، وابن ثان هو (محمد المهدي) الذي صارت اليه الخلافة .

ولم تزل (أروى) ـ أم موسى ـ في المحل الارفع من قلب زوجها ومن اجلاله وتكريمه ، يرعى أولادها ، ويحتفي بأهل بيتها ، حتى توفيت سنة ١٤٦ هـ. بعد عشر سنين من ولايته إمارة المؤمنين .

حزن المنصور على زوجه الحِمْيَرية الافريقية حزناً أليماً ، اذ كان يحمد لها ما تمتاز به من جليل الخصال ، ويذكر لهــا مشاركتها اياه في الباساء والنعماء، ويفاخر بأنها سُلالة ملوك اليَمَن من حِمْيَر ، ذروة مجد العرب الاثيل .

ومن آثار (أروى) التي خلدت لها ذكراً دائماً وحسنة باقية على

الدهر ما رواه الجاحظ (١) نقلا عن معاصره علي بن محمد بن سليمان قال : أبي يقول : « كان المنصور اشترط (لام موسى الحميرية) ان لا يتزوج عليها ولا يتسرّى ، وكتبت عليه بذلك كتاباً اكدتـه واشهدت عليه بذلك ، فبقي المنصور على عهده حتى ماتت ببغداد ، فاتته وفاتها وهو بحلوان ... وكان المنصور اقطع أم موسى الضيعة المسماة « بالرحمة » فاوقفتها قبل موتها على المولدات الاناث دون الذكور ، فهي وقف عليهن الى هذا الوقت » ــ حدود سنة ٢٥٠ هـ ــ .

وقصدت أم موسى بالمولدات الاميرات من بني العباس اللواتي لم يتزوجن او اللواتي مات عليهن بعولتهن وتركوهن أرامل ، وفي غالب الوقت لم يكن للخلفاء المتولين عناية كافية بشؤونهن والقيام بنفقاتهن بالرغم من منزلتهن الرفيعة ، فيجدن حينئذ في ريع ما اوقفته جدّتهن الحسنة ما يصون عفافهن ، ويحفظ كرامتهن ، ويغنيهن عن الالتجاء الى الامراء وغيرهم ، والالحاف بالسؤال فيما يعوزهن من الضروريات .

وبهذا العمل الانساني كانت (أروى) من اول نساء الاسلام تفكيراً في حالة العوانس والارامل اللاتي عضّهن الدهر بنابه ، وفي تخفيف وطأة النوائب عليهن ونيل الاحداث منهن ، رحمها الله تعالى

وقد عُرفت أم موسى فيما بعد بأنها « ام الخلائف » ، اذ ان خلفاء

---

(١) راجع كتاب « المحاسن والاضداد » للجاحظ ط. مصر ١٣٣١ ص ١١٧

بني العباس – من بعد المنصور – كانوا من ذاتها الماجدة ، نازعين الى تلك الاعراق البالغة من النبالة اقصى المبالغ .

ومن قول الشاعر الكبير سالم بن عمرو المعروف بالخاسر في مدح الخليفة المهدي . [(١)]

اكرم بقوم امين الله والده وامه أم موسى بنت منصور

ومن قول الشاعر المعروف ابي نواس في الخليفة محمد الامين بن الرشيد وزبيدة :

وما مثل منصوريْك منصور هاشم
ومنصور قحطان إذا عدّ مفخر
فمن ذا الذي يرمي بسهميْك في الورى
وعبد مناف والداك وحمير

ومن قول ابي نواس ايضا : [(٢)]

فجدّاك هذا خير قحطان واحداً
وهذا ما عدّ خير نزار

يعني بالقحطاني منصور الحميري ، وبالنزاري ابا جعفر المنصور

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢
(٢) الحلة السيراء ص ٣٠٣

وتقتصر على هذه الابيات في الإشارة الى رفعة نسب منصور الحميري واتصاله ببني العباس ، والمأثور من امثالها كثير لا يتسع لا براده المقام.

عاش ابو جعفر المنصور بعد وفاة زوجه ، في عزه وصوله ، حتى توفى سنة ١٥٨ هـ، وهو في طريقه الى الحج ، ودفن في مكة ، وخلفه على الامر ابنه الاكبر محمد المهدي .

وقد اجتمعت كلمة المؤرخين على انه لم يكن فى خلفاء بنى العباس اعـلم من ابي جعفر المنصور ، وحفيده عبد الله المامون ، ودونهما في المعرفة هارون الرشيد، والواثق بالله ، والمنصور معدود في الملوك الشعراء

وقد أورد له الإخباريون وصيته الخالدة الى ابنه وخليفته المهدي[1]، ومن قوله فى بعض مواقفه الحربية ، وقد التفَّت عليه جموعٌ من الاعداء :

وجعلتُ نفسي للرماح دريئةً ... إن الرئيس لمثل ذاك فعولُ

وقوله ، مجيباً من نصح له بالاناة في امر ابي مسلم الخراساني :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فان فساد الراي ان تتردّدا

ولا تهمل الاعداء يوماً بقدرة ... وبادرهم ان يملكوا مثلها غدًا

وقوله ايضا :

تقسمني امران لم افتتحهما ... بحزم ولم تعرك قواي الكراكرُ

---

(١) الكامل لابن الاثير - ج ٦ ص ٩

وما ساور الاحشاء مثل دفينة　　من الهمّ ردتها عليك المصادر
وقد علمت ابناء عدنان انني　　لدى ماعـــرا مقدامة متجاسر

وله غير ذلك من الشعر الحماسي ، نظمه اثناء ولايته وقبل ان يتولى.

عني المنصور عناية خاصة بالبلاد الإفريقية وباهلها منذ قبض على زمام الخلافة اذ كان يعلم من حقيقة امرها ما بصّره به العيان ، فقد سكنها واقام بها زمناً . وعرف خباياها ، وخبر رجالها ، فلا غرو اذن ان يصطفي لإمارتها كبار قواد دولته ، مثل محمد بن الاشعث الخزاعي والاغلب بن سالم التميمي ، ويزيد بن حاتم المهلبي ، واخيه روح بن حاتم ، وما منهم الا من قاد الجيوش في الفتوح ، وتوّسد جلائل الاعمال في تلك الدولة الفتية الناهضة .

ويروى عن المنصور انه كان يسال من يفد عليه ببغداد من اهل افريقية : « كيف حال احدى القيروانيْن ؟ » يعني بذلك مدينة تونس، اذ أقام بها فترة من الزمن .

والآن وقد قصصنا عليك ما كان من صلة ابي جعفر المنصور بالقيروان قبل الخلافة وبعدها ، نلمع الى ما كان من صلة ذريّة العباس بن عبد المطلب – عمّ النبي صلى الله عليه وسلم – بافريقية التونسية ، وما لهم من قدم صدق في فتحها ...

شارك عبد الله بن عباس – حِبْر هذه الامة – في اول غزوة

لافريقية ، مع عبد الله بن ابي سرح سنة ٢٧ هـ. وهو الذي قسّم الغنائم بين القواد والاجناد في (سبيطلة) .

والغزو الثاني لافريقية باشره شقيقًا عبد الله بن عبـــاس ، وهما (مَعْبد) و (عبد الرحمان) سنة ٣٥ هـ. مع الامير معاوية بن حُدَيْج ، وقد استشهدا جميعا – رضي الله عنهما – في فتحها ، ودفنًا في تربتها، وتبرك اديمها باشتماله على رفاتهما الطاهر [١] . وثلاثتهم ابناء العباس عمّ الرسول ، عليهم صلوات من ربهم ورحمة .

وقد اسلفنا لك من نبإ منصور بن يزيد الحميري انه اتخذ بالقيروان داراً فسيحة لاهل بيته ومواليه ، ويبدو انه كان واسع الثراء ، يتخذ الحاشية والاتباع فمن مواليه حفص الذي تولى بعـدُ خراج افريقية ، يدير اموال البلاد ، وابتنى لنفسه قصراً اشتهر باسمه (قصر حفص)، وذلك في عاصمة القيروان وقد ورد ذكر هذا القصر كثيراً في تراجم الافارقة .

كان لمنصور الحميري عدّة اولاد في القيروان من اشهرهم : يزيد بن منصور الذي التحق بابـن اختـه محمد المهدي لما آلت اليه الخلافة سنـة ١٥٨ هـ. فقرّبه المهدي منه ، واستعان به في المهات ، واسند اليه

(١) لنا بحث مطول – في غير هـذا – عمن استشهد من الصحابة في التراب التونسي ، وقد بسطنا فيه من الكلام عن تاريخ ابناء العباس .

المناصب ، مثـل ولاية خراسان ، والكوفة ، واليمن ، وإمارة موسـم الحج ، وقد لمع اسم يزيـد حتى مدحـه عِلية الشعراء ، كابي نواس ، وتوفي يزيد سنة ١٦٥ هـ .

وبما يحسن التنبيه اليه في هـذا الصدد ان أبا محمـد يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي الطائر الصيت ، صاحب ابي عمـر بن العـلاء واحـد كبار القراء ، انما قيل له اليزيدي لانه كان يؤدب ولد يزيد بن منصور هذا ، فنسب اليه ، ثم انه ادّب بعد ذلك الخليفة المأمون .

المصاهرات بين العباسيين والاغالبة

ومن غريب الموافقات انه لا تكاد تمر مائة عام على الاحداث التي قدمناها حتى يقدم على افريقية أمير عباسيّ في بواكير الصبا، من حفدة أم الخلائف (أروى) الحميرية القيروانية وذلك في نحو سنة ٢٧٠ هـ .

ذلك الشاب هو عبد الوهاب ابن الخليفة المهدي ابن الخليفة الواثق، وقد خرج من بغداد بعد مقتل أبيه بأعوام، فوصل إلى القيروان في في مدة الامير ابراهيم الثاني من بني الاغلب، فأحسن الامير لقاءه، وانزله بجوار قصره « الفتح » في احد المنتزهات البديعة التي أنشاها في مدينة رقادة .

ورغب الامير الشاب في الإصهار إلى الاسرة الاغلبية، فزوّجه ابراهيم الثاني ابنة أخيه المتوفى الامير محمد الثاني الملقب بأبي الغرانيق، وتوالت ولائم العرس أياما ولياليَ في رقادة، وكان المتولي لعقد الزواج هو القاضي الطائر الصيت : عبد الله بن طالب التميمي صِنْو الاغالبة .

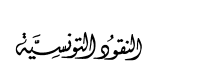
سكن عبد الوهاب وعروسه في قصر لطيف تحفّ به حديقة غناء ذات أفنان، وزهر وريحان، وولد لهما محمد وحسين فنشأ كلاهما في رعاية عمّ والدتهما حتى أهّلهما بالتربية لشغل المناصب الرفيعة في الدواوين،

وبينما كانا في صباهما فارقهما أبوهما عبد الوهاب عائـــداً إلى العراق (وسرّ من رأى) ، فظل الاميران الصغيران مع أمهما إلى ان توفاها الله في سنه ٢٨٥ هـ .

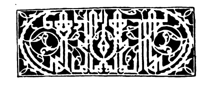
وطرقت افريقية طوارق الحدثان ، وتجمعت البوادر المؤذنة بسقوط دولة بني الاغلب التميمية . وقيام الدولة العبيدية الفاطمية مكانها . فاستنكف الاميران العباسيان ان يقيما بافريقيـــة ، والتحق أكبرهما أبو اسحاق محمد بالاندلس قاصداً خليفتها عبد الرحمن الناصر ، فاحتفى بمقدمه عليه في قرطبة ، وأجرى له رزقاً واسعاً في كل سنة ، ومات أبو اسحاق محمد في خلال سنة ٣٣٣ هـ ، ولم يعقب .

اما أصغر الاخوين : الحسين بن عبد الوهاب ، فإنه ما كاد يشهد أفول نجم بني الاغلب حتى رحـــل الى جزيرة صقلية وأقام بعاصمتها (بلرم) الى ان وافـــاه الاجل المحتوم فدفن هنالك ، ولا نـدري أأعقب أم لا ؟

ومما مرّ بنا مُجملاً في هذه العجالة ، يتبين لنـا ان الجاليـة العربية النازحة إلى افريقية التونسية خلال القرنين الثاني والثالث ، كانت تعدّ بينها وجوهاً من ابنـــاء البيوتات المشهورين بفصاحة الالسن ، وسعة الادب ووقور الاحساب ، واصالة الانساب ، وفي ذلك بلاغ ! .


النقود التونسية





النقود العربية في تونس(١)

متى عمد الباحث الى دراسة النقود العربية تبين له اول وهلة ان بحثه يتّجه في الواقع الى أصل مهم من اصول النظام الاساسي للفتوحات الاسلامية ، وقاعدة كبيرة ارتكزت عليها سياسة العرب في حكمهم للبلاد التي امتلكوها سواء أكان ذلك في المشرق أم في المغرب .

---

(١) كنت حررت هذا البحث في مدة وجيزة بايعاز من الصديق العزيز والاقتصادي الكبير السيد الهادي نويرة محافظ البنك المركزي التونسي ، وقد همس الي ذات يوم رغبته في تكوين مجموعة شاملة للمسكوكات التونسية ، لتعرض في احدى القاعات لمصلحته المالية حتى يتضح تواصل مهمة البنك المركزي من اقدم عصور التاريخ الى الآن ، وقد كتبت هذا تايبداً لفكرته ، وتقديراً لعزمته ، وبالله العون .

واذا صحّ ان النقود هي واسطة التعامل بين البشر من يوم وجدت، وانها الصلة الوثيقة للتعارف بين الافراد والشعوب ، فقد ثبت انها الوسيلة الكبيرة في سيْر الامم وتنظيم علاقاتها بعضاً ببعض . كما صح انها من العوامل المهمة في تقريب الغالب من المغلوب ، والمهاجم من من المهجوم عليه ، والقادم من المقيم .

النقود البيزنطية

عاش سكان البلاد التونسية ــ من أفارقة وروم وبربر ــ دهراً طويلا قبل مجيء العرب يتعاملون بالنقود البيزنطية المضروبة في القسطنطينية ، ودأب الحال على ذلك الى آخر عهد الحكم البيزنطي بافريقية ، إذ فكّر البطريق (جرير ــ Grégori n) نائب القيصر على البلاد في التمرّد والانسلاخ عن حكومة بيزنطة ، وذلك بالاستبداد بالحكم في افريقية وقطع ما بينه وبين القسطنطينية من الصلة ، فعزم حينئذ على ضرب دنانير من الذهب في عاصمة قرطاجنة إعلانا لاستقلاله بالامر ، وقد عرفت هذه الدنانير باسمه فقيل (الدينار الجرجيري) وهذا النقد هو الذي وجده العرب رائجاً في سائر انحاء البلاد التونسية عند فتحهم لها [١] .

---

(١) راجع كتاب (رياض النفوس) للمالكي بتحقيق صديقنا العلامة حسين مؤنس ، ج ١ ص ٨٠ ط مصر ١٩٥١

وتمتاز هذه الدنانير عن مثيلاتها المضروبة في عاصمة بيزنطة بانها تحمل وسط الوجه الثاني منها صورة صليب يعرف بصليب قرطاجنة، وهو يختلف عن بقية الصلبان المسيحية بزيادة خطين صغيرين متساويين يثلان المدر ج الى عمود الصليب ، وهذه الخطوط موضوعة تحت عمود الصليب الافقي .

اما الوجه الاول من هذا الدينار ففيه صورة لقيصر الروم المتولي، اما وحده واما لجانبه صورة ولي عهد الامبراطورية البيزنطية وعلى دائر الوجهين نقش نصوص باللغـــة اللاطينية من بينها اسم القيصر والقابه الشرفية ومحل الضرب ، ووزن الواحد من هذه الدنانير القرطاجنية ٤،٤٠ (اربعة غرام واربعون مليغرام) اي وزن الدينار العادي بلا فرق ، غير انحجمه يخالف مثيله البيزنطي لانه اصغر منه قطراً واغلظ سمكاً ، لكن قيمتها النهبية واحدة ، وقد يتجزأ الدينار الى نصف دينار وثلث دينار .

وعلى غرار الدينار (الجرجيري) ضربت بقرطاجنة ايضا قطع من فلوس النحاس للتعامل الجاري البسيط ، وقد تمّ هـذا التغيير في مسكوكات قرطاجنة الرائجة في بـلاد افريقية قبيـل ظهور العرب وانتشارفتوحهم في المغرب باعوام قليلة . فلماغزا قوّاد بني أمية المغرب واستولوا على القسم الكبير من أرضـه ، اقرُّوا التعامل بتلك النقـود القرطاجنية وقبلوها في مغارم الصلح ومعلوم الجزية .

ولما قدم (حسّان بن النّعمان الغسّاني) قائد الجيش العربي الغازي ايام الخليفة عبد الملك بن مروان ، واخذ بخناق قرطاجنة عاصمة الروم ودخلها قسراً بعد حصار مرير اقرمؤسساتها الادارية ، وابقىدواوينها تعمل للعرب على ما كانت عليه في زمن حكم الروم البيزنطيين ، ومن جملة ما احتفظ به العرب « دار الضرب » للمسكوكات لما راوا من المصلحة في استخدامها والانتفاع بها ، متّبعين في ذلك منهج من تقدمهم من كبار القواد الفاتحين من العرب في بلاد فارس ، وفي ارض الشام ومصر ، اذ انهم سلكوا سياسة اشبه ما تكون ببسط الحماية على الشعوب الراقية المفتوحة،وذلك باحترام معتقدات المغلوبين وبقاء هيئة نظمهم واوضاعهم في الحكم ، وباستعمال لغتهم في الرسائل الرسمية ، فكانت المحافظة على المؤسسات الدولية والاستفادة منها تأنيساً من الفاتحين للسكّان الاصليين على قبول الفتح الاسلامي .

وقد نهج (حسان بن النعمان) تلك السياسة الرشيدة حينما امتلك قرطاجنة واقام البرهان للشعوب المغلوبة ـ باختلاف عناصرها ـ على حسن نيّات الفاتح واستعداده للمشاركة في تسيير شؤون البلاد .

وليس من شك ان حساناً استخدم مواهب كثير من اعوان البيزنطيين المحليين وموظفيهم في مصالح الادارة الجديدة وجيشها

الفاتح ، ولا ندري على التحقيق هل استعمل دار السكة بقرطاجنة اذ لم نعثر حتى الآن على نقود من ضربه .

نقود لاطينية عربية

اما القائد (موسى بن نصير) الذي خلفه في حكم افريقية سنة ٨٥ هـ - (٧٠٤ م) فاننا نعلم يقيناً انه عنى عناية خاصة بشان التعامل النقدي بين الافراد من غالب ومغلوب ، تطبيقاً للقاعدة التي مهّدها له سالفه (حسّان) من امر الفتح ، وتوطيداً لسياسة الاستيلاء النهائي على البلاد،ولدينا من عهد موسى نماذج كثيرة من دنانير الذهب وفلوس النحاس التي ضربها في دار السكة بالقيروان أواخر القرن الاول للهجرة .

ومن المفيدجداً ان نقف لحظة عندهذا التجديدالذي احدثه موسى في المسكوكات الافريقية لتستبين لنا الطريقة التي نهجها العرب في سياسة انتشارهم ورغبتهم في مدّ نفوذهم فى المغرب بوسائل سلمية .

وجد موسى بن نصير عند قدومه تلك النقود المضروبة في قرطاجنة التي اشرنا اليها آنفا متداولة في المعاملات بين السكان فاقرّ جولانها ، وقلّد أول وهلة سبكها مع احترام شكلها وطرازها بعد ان صيّرها ملائمة للنُظم العربية ومطابقة لمبادىء الديانة الاسلامية ، فامر وقتئذ بضرب نقود على شكل الدينار البيزنطي القرطاجني في سمكه ،

وفي وزنه وحجمه وتجزئته ، وفي لغته اللاطينية ايضا ، ولكن أدخل عليه تغييراً أساسياً يتمشّى مع عقيدة الاسلام ، وذلك انه حذف الخط الأفقي الصغير القاطع للصليب بحيث صيّره مجرد عمود منصوب ليس له الرمز المسيحي المقصود بـه في الاصل ، وقد أبقى موسى على حالها الدرجتين او الثلاث درجات المثلة للخطوط الأفقيـة المرسومة تحت الصليب ، وبالجملة فانه احترم جميع مميزات الدينار البيزنطي ، ومنها إبقاء صورة قيصر الروم وصورة ولي عهده المنقوشتين في وسطه .

كما انه ادخـل شيئا جديداً آخر ، وهو انـه استبدل بالعبارات اللاطينية التي تشير الى اسم القيصر وألقابه عبارات اسلامية تعلـن وحدانية الخالق وتمجيده ، وقد رسمها باللسان اللاطيني وبحروف كتابته المعروفة ، كل ذلك بطريقة الاختصار الجاري بها العمل آنذاك في النقود البيزنطية .

وإليك مثـالاً من الجُمَـل الاسلامية المرسومة (على دائرة الوجـه الاول منها) : NNESDSISDSCVINSA

وبيان قراءتها كما يلي :

NoN ESt Deus NiSi Solus DeuS CVI Non Socius Alius

وتعريبها : « لا الـه الا الله وحده لاشريك له »

وعلى دائرة الوجه الثاني من الدينار :

INNDNIMSRCHSLDFRIN AFRIC

وبيان قراءتها :

IN Nomine DomiNi MiseRicordis - Hic SOLiDus FERitus IN AFRICa

وتعريبها : بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ ضرب هذا الدينار بافريقية.

ولم يات فيا ضرب موسى أولاً ذكر رسالة النبي العربي ، وانما جاء ذلك بعد كما ستراه .

وفيا علمنا لم يبدأ موسى بضرب هذه الدنانير قبل سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م) أعني في اول سنة من ولايته لإفريقية ، وقد تمّ ذلك بعد أن أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بسبك النقود الاسلامية بعشر سنين ، إذ ان أول دينار عربي رسمي ضُربَ بدمشق كان في سنة ٧٥ للهجرة (٦٩٤ م) ـ وانما كان التعامل قبل ذلك بالدنانير الرومية والدراهم الفارسية الساسانية في سائر السلطنة العربية [١] .

ويلاحظ ان تقييد التاريخ الذي كان مستعملًا في المسكوكات عند الرومان وعند الروم البيزنطيين بعدهم ، هو تاريخ اصطلاحي يتجدّد كل خمس عشرة سنة ويسمى عندهم بالعقد (Indiction) أي عقد جبّائي فيقال : السنة الاولى او الثانية من العقد الفلاني ، وقد يرسمون حروف (.IND) اختصاراً لكلمة عقد ، ويضعون بعد هذا الاختصار أرقاماً من واحد الى خمسة عشرة اي العام الاول او الثاني او الثالث وهلم جرا من العقد الجبائي .

(١) راجع رسالة المقريزي في النقود الاسلامية ـ ط اسطنبول

وقد اتّبع موسى هذه الطريقة نفسها في نقوده التي وضعها باديء بدء ، ثم بعد حين حوّل تاريخ الضرب الى سِنِيّ الهجرة النبوية ، كما سيـــاتي .

فيتبين مما تقدم ان موسى قلّد المسكوكات البيزنطية تقليداً كاملاً فيما خلا التغيير الجزئي الذي أدخله ليتفق مع اصول الاسلام ، فكان سلوكه هـذا المرحلة الاولى من فتـح افريقية ، وبعد زمان قصير يضرب دنانير ذهبية وفلوساً نحاسية يحذف منها صورة قيصر الروم مع المحافظة على صورة العصا التي كانت تمثّل الصليب قـديماً ، كما يُبقي العبارات الاسلامية مكتوبة باللغـــة اللاطينية وحروفها، وهذه هي المرحلة الثانية في التغيير ، ثم بعد يسـير من الزمان يـترقّى في التطوّر فيرسم في وسط الدينـار عبارة التوحيد ومعها اثبات الرسالة المحمـدية باللفظ العربي والخط العربي وهي (لااله الا الله) في وجـه و (محمـد رسـول الله) في الوجه الثـاني ، لكنه يبقي الكتابة اللاطينية في دائرة الدينار من الجهتين ، فيقول فيها : (ضرب هـذا الدينار بافريقية سنـة خمس وتسعين) وهذه هي المرحلة الثالثة والاخيرة من تـقليد الدنانير، حتى اذا كانت سنة مائة من الهجرة ، وقد فـــارق موسى بن نصـير افريقية والتحق بالمشرق ، وخلفه في الولاية على البـلاد احد التابعين ، وهو اسماعيل بن أبي المهاجر، شاهدنا دنانير تضرب في مدينة القيروان وجميع ما عليها من الكتابة مرسومة باللسان العربي والخط العربي ،

وهي تتّفق تماماً مع الدينار الاموي في حجمه وشكله ووزنه ، ومن ذلك التاريخ لم يبق فيها للغة اللاطينية من أثر .

ومعنى ذلك من الناحية السياسية والاجتماعية ان سلطان العرب استقرّ استقراراً تاماً، وتمكن من تعريب البلاد على نحو يسمح له بادراج لغته ومباديه بين جميع الطبقات ، كما يدلّ دلالة واضحة على رسوخ السياسة العربية وانتشار العقيدة الاسلامية بين مختلف أجناس السكّان.

ولم يصل الى علمنا حتى الآن ان موسى بن نصير ضرب دراهم فضة بافريقية ، والظن الغالب انه لم يتخذها اقتداء بنظام البيزنطيين النقدي ، بل اكتفى بسكّ دنانير الذهب وفلوس النحاس ، ولدينا من هذه الاخيرة قطع عديدة مختلفة ، ضربها مدة ولايته لافريقية، منها ما هو على شكل فلوس قرطاجنة البيزنطية ، ومنها ما يماثل الفلس الجرجيري في وضعه ووزنه ، وربما يختلف عنه بعبارة تاتي أحياناً في نص رسمه مثل الجملة الآتية :

IN Nomini Unus Deus - Hic Folis Feritus in AFrica MUSE Filius NUCIR Amira

وتعريبها : (بسم الله ـ الله أحد ـ ضرب هذا الفلس بافريقية ، الأمير موسى بن نصير) .

ولا يفوتنا ان نذكر ان موسى ضرب ايضا فلوساً نحاسية أخرى في ذلك التاريخ نفسه وجميع ما تحمله من كتابات عربي مُبين ، وقد

ألغيت منها اللاطينية بتاتاً ، فمن جملة ما بين أيدينـا من هـذا النوع : فلس ضرب بتلمسان ـ في المغرب الأوسط ـ والراجح عندي انه صيغ بمناسبة فتح موسى لهذه المدينة ـ سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) ـ وهـذا الفلس من الاهمية بمكان ، ففي أحـد وجهيه كلمـة (ضرب بتلمسين) بالخط الحجازي [١] ، وليس عليـه غير ذلـك ، وعلى الوجــه الآخر صورة وجه شخص مُلتـــح بذقن مذبب على الطريقـة العربيـة ، وشعرة رأسه نازلة الى الاذنين ، ومفروقة من الوسط ، وتلك أيضا من عادات العرب في مشط شعر الرأس ، والذي يتبادر للذهن انهـا صورة القائد موسى بن نصير، أول فاتح لمدينة تلمسان ، وأرجو ان يتحقق تخميني.

الصور على النقود العربية

وربما يُستغرب من تصوير ذوات الاشخاص على النقود العربية ، ونحن نعلم انها طريقة كانت متّبعة ، فقد استعملها غالب خلفاء بني أمية منذ امتلاكهم لزمـام الدولة الاسلامية ، فهنـاك دنانـير وفلوس تحمل صورة الخليفة (معاوية بن أبي سفيان) وفلس آخر عليه صورة ابنـه يزيد ، وكذلك صورة عبد الملك بن مروان ، وابنه هشام ، وهلم جرّاً.

---

(١) تلمسين ـ بالياء ـ هو اسم مدينة تلمسان كما كان يرسمها العرب في اول الامر ، وقد جاء هذا الاسم بصيغة تلمسين ـ في اقـدم مصادر التاريخ العربي مثل تاريخ ابن عبد الحكم وغيره .

فكل هؤلاء الخلفاء لم يروا باسا من نقش رسومهم على المسكوكات ، والصورة تمثّلهم وقوفاً متمنطقين بالسيف ، تقليداً في ذلك كله لاوضاع قياصرة الروم البيزنطيين .

ولا يفوتنا ان ننبه القارىء الى ان هؤلاء الخلفاء اعتـــادوا رسم صورهم كاملة وفي طول الانسان بالادهان على جـدران قصورهم في بادية الشام ، كقصر (الاخيضر) (وقصر مشتّا) وغيرهما ، فاذا علمنا ذلك فلِمَ لا يرخص موسى بن نصير لنفسه نقش صورة وجهه على فلس وضعه يوم فتح اكبر مدينة في المغرب الاوسط أعني : تلمسان ؟ ولا سيما ان وُلاة الجهات ـ في مدة الخلافة الاموية ـ كان يرخّص لهم في وضع اسمائهم على فلوس النحاس دون الدنانير الذهب كما سنبينـه بعد ، فـاذا صحّ هذا التخمين ـ ولا أظنه إلاّ صحيحاً ـ كانت لدينا صورة واضحة بينة لفاتح الاندلس : موسى بن نصير ، وما ذلك بعجيب .

على ان موسى اتخذ أكثر من نو ع من المسكوكات اينما حلّ ركابه من بلاد المغرب ، فله فلوس ضربها في طرابلس وعليها اسمـه : (موسى بن نصير) أو (موسى) فحسب (MUSE) بالحروف اللاطينية ، وقد ضرب مثلها في مدينـة طنجة ، وفي بـلاد الاندلس بعد فتحها ، وهي تشابه نقوده اللاطينـية في افريقية ولا تختلف عنها الا في اسم المكان أو في شكل قطعـة من صورة العصـــا المعوّضـة للصليب ، فـانها بالاندلس تحمل كرّة صغيرة فـــوق العمود الأصلي بَدلاً من الخُطَـيِّط الافقي الذي يشاهد على دنانير افريقية .

ويلاحظ أيضاً ان موسى بن نصير صاغ قطعاً كثيرة من الفلوس النحاس ، نصُّ ما عليها من الكتابة عربيٌّ خالص وليس للغة اللاطينية فيه دخل ، وقد ضربها في القيروان ، وأقدم هذه الفلوس مؤرخ بعام (اثنتين وتسعين) للهجرة ، أي العام الذي أغــزا فيه موسى مولاه (طارقاً) بلاد اسبانيا ، وفي هــذه الفلوس مايحمل تاريخ سنة ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ ، وهو آخر عهد لولاية موسى بالمغرب ، ونصّ ما بالوجه الاول منها : « لا اله الا الله وحده » وفي الوجه الثاني : « ضُربَ في سنة اثنتين وتسعين » وبقي الى الآن من هذه القطع عدد كبير مبعثراً هنا وهناك في أديم التربة التونسية .

ومن دراسة هذه الفلوس والبحث عن سبب اتخاذها يتضح ان موسى بن نصير انما ضربها ليوفي حاجة جنــوده العرب والبربر الذين جهزهم لفتح الاندلس وبقصد تزويدهم بعملة ميسورة الصرف ، سهلة التداول لزهادة قيمتها [١]

والقاعدة الاساسية في المسكوكات زمن الدولة الاموية هي ان النقدين ــ اي دينار الذهب ودرهم الفضة ــ لا يضربهما سوى الخليفة المتولي أمر المسلمين خاصة ، وليس لولاة الجهات الحقّ في وضع أسمائهم

---

(١) انظر بحثنا باللغة الفرنسية عن فلوس موسى بن نصير المنشور في « المجلة التونسية » لمعهد قرطاجنة سنة ١٩٣٢ ص ١٤٥

Revue Tunis. de l'Inst. de Carthage 1932 p. 145

عليها ، اذ كانت في الواقع من خصائص الخليفة وشاراته ، وهو الذي يسهر على جودة مادة النقدين ـ الذهب والفضة ـ وخلوصها من الغش، وفيها دون ذلك يرخص للوُلاة والعُمّال في ضرب فلوس النحاس باسمائهم وفي مقرّ ولايتهم ، وهذه القاعدة لم تتخلف في كامل مدة الامويين ، ودام العمل جاريا بها الى أن جاءت الدولة العباسية فتغير حينئذ الوضع بحصول كثير من الولايات على الاستقلال الداخليّ ووراثة الملك في اعقاب المتولين ، وبذلك صار أمراء الجهات ـ كالاغالبة والادارسة وغيرهم ـ يضعون أسماءهم على النقدين ، وللسبب المتقدم كنت ترى وُلاة افريقية في العصر الأموي يرسمون بلا حرج اسماءهم على الفلوس النحاس خاصة ولا يضعونها على الدنانير ولا على الدراهم ، لان فلوس النحاس لم تكن تعتبر من النقد الرسمي ، وانما هي عملة لتسهيل المقايضات ، وليس لها في ذاتها قيمة نقدية ، وكذلك نجد الوُلاة يحلون باسمائهم صنوج الزجاج المتخذة لعيار الدينار والدرهم ، لان المعتبر في النقد قديماً هو ما يزن من المادة الثمينة ـ من ذهب أو فضة ـ لا نفس النقش والضرب ، ولا يخفى ان النقدين ـ الدرهم والدينار ـ كانا في الزمان الاول يؤخذان بالوزن ويدفعان كذلك ، ولم يكن التعامل في صرفهما بالعدد كما صار الشان بعد ذلك في أيام الاغالبة وستراه .

دار الضرب

كانت دار الضرب تقع في مدينة القيروان ــ العاصمة العربيـة التي خلفت قرطاجنة في الهيمنة على البلاد الافريقية ــ وفي هذه الدار كانت تُسبَكُ النقود على اختــلاف أنواعهـا ، فاذا وجـدت نقـداً يحمـل اسم « افريقية » فاعلم انه صِيغ فيها وصُنِع في معاملها ، وفي اصطلاح كُتّاب العرب القدماء اذا قيل (إفْريقِيَة) ــ بتخفيف اليـاء الثانيـة ــ إنما يقصد بها مدينة القيروان خاصـة اذا كانت (قيروان افريقية) ثم اقتصروا بعد في الاصطـلاح على كلمة (افريقيـة) ، فكل الكتّاب واصحاب الرحـلات ــ مثل الجـاحظ وغيره ــ لا يعرفونهـا الا باسم (مدينة إفريقية) أي قاعدتها الكبرى ، ودأب استعمال هـذا التعريف الى آخر المائة الثانية للهجرة ، ولما تفرد بنو الاغلب بالاستقلال صارت تعرف باسمها الحقيقي أعني : القيروان .

يفيدنا أبو عبيد البكري [1] أن « دار الضرب » في القيروان كانت تحتلّ مكاناً مجاوراً لدار الامارة بالقرب من المسجد الجامع حيث تقوم غالب مصالح الحكومة ، مثل دواوين الخراج ، والجند ، والرسائل ، والمظنون انها كانت ملحقة بديوان الخراج لاتصال مهمتها به ، وكان للدار ناظر خاص يشرف على نظامها وسير العمل بها ، ويرجع نظـره

(١) ك. المسالك والممالك للبكري . وصف افريقية الشمالية . طبع باريس سنة ١٩١١

الى الوالي أو الى الامير مباشرة ، ويباشر الاعمال بالدار عَمَلة ماهرون توفرت فيهم شروط الخبرة بإذابة المعادن وسبكها ، وكذا عمليات الوزن والنقش والطبع . وكل من هؤلاء العَمَلة كان يُعرف باسم (السكّاك) ولذا تجد كثيراً من أسَر المغرب والمشرق تُلقّب بالسكاك والسكاكي .

ولعمال « دار الضرب » اصطلاحات فنية خصوصية لكل تلك العمليات ، وقد توصلنا بحمد الله الى تحقيق البعض منها ، وغاب عنا منها الكثير ، وربما افردنا لهذه المصطلحات فصلاً مستقلا .

ويقع ضرب النقود بعد تذويب مادتها ، ومَيْز كل قطعة بالوزن حينما تكون لينة رخوة بآلة تسمى (السكّة او الحديدة ـ Poinçon) وهي تتركّب من قطعتي حديد ، كل منهما مستديرة ، مستطيلة الشكل ، طولها بين خمسة عشر وعشرين سنتيمتر ، وغلظ قطرهما بين خمسة وأربعة سنتيمتر ، وفي رأس كل واحدة منها كتابة معكوسة ، فتمسك أحداهما ـ وهي السفلى ـ بكُلاب محكم الصنعة شدًّا متيناً حتى لا تتحرك ولا تتقلقل ، ثم توضع المادة المذابة ـ من ذهب او فضة او نحاس ـ على الطابع المحفور برأس الحديدة السفلى حيث الكتابة ، ثم يوضع عليها محل الكتابة من الحديدة العليا ، ثم يُضرب عليها بطرقة فيرتسم حينئذ نصّ الكتابة المنقوشة على الوجهين الاعلى والاسفل من النقد ، فتظهر الكتابة على أصلها . وبذلك تمّ عملية الضرب ، واذا

كان رسم النقش غير واضح ، طرح ذلك النقد جانباً وأعيد تذويبه وسبكه مرة أخرى .

ابن خلدون والنقود

ويجمل ان ننقل هنا التعريف الذي كتبه علامتنا (ابن خلدون) في مقدمته الخالدة عن (السكة) عند كلامه على « شارات الملك والسلطان الخاصة به » قال [١] :

« السكة هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس ، بطابع حديد ينقش فيه صُوَر أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار او الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد ان يعتبر عِيَار النقد من ذلك الجنس في خُلوصه بالسبك مرة بعد اخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدرهم والدينار بوزن معين يصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عدداً ، وان لم تقدر اشخاصها يكون التعامل بها وزناً »

ولفظ السِكّة كان إسماً للطابع – وهي الحديدة المتخذة لذلك – ثم نُقِلَ الى أثرها ، وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نُقِلَ الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجته وشروطه ، وهي الوظيفة

---

(١) مقدمة ابن خلدون

فصار عَلَماً عليها في عرف الدُّوَل ، وهي وظيفة ضرورية إذ بها يتميّز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ، ويتّقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها تلك النقوش المعروفة » .

وقال في مكان آخر من مقدمته :

« ... ويُرسم العلامة في الدرهم بخاتم حديد اتخذ لذلك ، ونقش فيه نقوش خاصة به ، فيوضع على الدينار بعد ان يقدّر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعـــارف اهـل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة . »

وهو نصّ كما ترى من أوثق ما كتبه علماء المسلمين عن تحديدضرب النقود وسبكها ، ويلاحظ انه يوجد من نوع الحديدة (Poinçon) وهي السكة المتكلم عنها ، عدد لا يستهان به وذلك في عدة متاحف ، منها السكّة (القسم الاسفل فقـط) المعثور عليها في حفريات « قلعة بني حمّاد » في عمالة قسنطينة . ويرجع صنعها الى عصر الامراء من بني حمّاد الصنهاجيين اصحاب القلعة ـ أواخر القرن الخامس للهجرة [1]

---

(١) ومن المناسب ان نلفت النظر هنا الى ان لفظ (السكة) من الكلمات العربية التي تسربت الى اللغات الافرنجية وصارت تطلق على الدينار الذهب نفسه . فقال الفرنسيون (Sequin) وقال الايطاليون (la Zecca) عن دار الضرب كما قالوا (Zeccino) عن الدينار ، وقلدهم غيرهم من الافرنج في ذلك

ولنعد الى أخبـــار مؤسسة « دار الضرب » في افريقية، فانها بقيت تعمل في القيروان الى كامل مدة الولاة الوافدين من لدن الدولتين الاموية والعباسية الى ان فاز ابراهيم بن الاغلب الاكبر باستقلال البلاد وتحوّل بالسكنى الى مدينة (العباسية) التي انشاها جنوبي القيروان - سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) وقد نقل اليها دواوين الحكومة ومُعدّاتها ، ومن جملتها دار الضرب وصاغ بها دنانيره ودراهمه حسبما يأتي خبره .

واقتفى اثره خلفاؤه من ابنائه وحفدته الى ان تولى ابراهيم الاصغر وانتقل الى مدينة (رقّادة) التي انشاها في الجنوب الشرقي من القيروان والعباسية - سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) وقـد ضمّ اليها الدواوين الرسمية والمصالح ، ولا ندري بالتحقيق هل حوّل اليها دار الضرب لأنا لم نعثر حتى الآن على نقد واحد مضروب برسم بني الاغلب يحمل اسم (رقّادة).

ولما انتصبت الدولة الفاطمية في افريقية بعد - سقوط الاغالبة - ضربت نقودها الاولى بمدينة رقّـــادة حينما استولى عليها الداعي : (ابو عبد الله الصنعاني) - سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) - وبعد عام واحد ضرب بها عبيد الله المهدي ، وقد رسم على دنانيره اسم القيروان، ومنذ حوّل المهديّ دار ملكه الى (المهدية) - سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) لم تعد تصاغ النقود الا بها الى ان تولى حفيـده (اسماعيل المنصور) الامـــر وانتصر على الثائر البربري : (ابي يزيد مَخْلد بن كيداد)، وأسس مدينة

المنصورية بقربة من القيروان ـ سنة ٣٣٦ هـ ـ فصارت السكة تضرب تارة بها واخرى بالمهدية ، اما ابنه وخليفته (المعز لدين الله) ـ وهو رابع ملوكهم ـ فانه ضرب مسكوكاته بهما وبغيرهما من مدائن المغرب التي افتتحتها جيوشه كمدينة (فاس) و (طرابلس) و (سجلماسة) وجزيرة صقلية و (القاهرة) قبيل انتقال ملكه الى مصر ـ سنة ٣٦٢ هـ .

وبعده دأب نوّابه على المغرب ، وهم الامراء من (بني زيري الصنهاجيين) على ضرب النقود اما بالمهدية او بالمنصورية الى ان قام الرابع منهم وهو (المعز بن باديس) بقطع الدعوة للخلفاء الفاطميين المقيمين بالقاهرة ، واستبدّ بـأمر افريقية ـ سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ـ كما انه غَيَّر الدنانير عن شكلها الفاطمي وضربها بصبرة (المنصوريـة) التي اسماها (مدينة عزّ الاسلام والقيروان) وذلك لاتصال عمران المدينتين بعضه ببعض .

ولما هاجم الاعراب الهلاليون بلاد افريقية وزحزحوا الصنهاجيين عن ملك القيروان وانتقل المعز بن باديس الى المهــدية ـ سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) جعل دار السكة بجانبه وصاغ بها هو وخلفاؤه نقودهم الى آخر عهدهم بالامارة .

ثم لما امتلك (رُجّار النرمندي Roger II) صاحب صقلية سواحل افريقية سنة ٥٤٣ هـ ـ (١١٤٨ م) ضرب بالمهدية ايضا دنانيره ، وقلده في ذلك ابنـه (غليالم Gulielmo II) .

ولا يفوتنا ان نذكر ان بعض امراء الطوائف المتحازين في المدائن التونسية مثل صفاقس ، وقابس ، وقفصة ، وطرابلس ، استأثروا بضرب دنانير لانفسهم فطبعوها باسمائهم في عواصمهم كما سنوضحه .

وعندما ظهرت عساكر الموحدين بافريقية ، وتغلّب (عبد المؤمن بن علي) على قوات (النرمند) وازاح عن افريقية دويلات الطوائف للسيطرة على البلاد ، نقل عاصمة ملك افريقية من المهدية الى مدينة تونس سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وأقام بها مصالح الحكومة ودواوينها فاستقرّت دار الضرب من يومئذ في مباني (القَصَبة) ولم تعد تخرج من تونس الى الآن ، الا ما ضربه أمراء الدولة الحفصية - بصفة استثنائية - في بعض المدائن الافريقية عقب ثورات تغلبوا عليها ، فقد طبعوا من ذلك بعض دنانيرهم ودراهمهم المربّعة في معسكر جيوشهم عند حصارهم (لقابس) (وقفصة) وتوزر (وطرابلس) وغيرها من المدن الافريقية.

اضف الى ذلك ما كان يضرب به نوّاب الحفصيين في مملكتهم الغربية مثل (بجاية) و (بونة وهي عنابة الآن) و (قسنطينة) وغيرها من عواصم المغرب الأوسط ، لكن مقرّ دار السكة الرسمي كان في مدينة تونس وفي مباني القصبة نفسها ، مركز المصالح الحكومية و مقرّ دواوينها الى آخر عهد سلطانهم .

ولما أطرد الاتراك القوات الاسبانية عن ممالك شمالي افريقية ،

وأزاحوا عن تونس آخر ملوك بنى حفص ، وأزالوا دولتهم ، اتخذ رؤساء الجيش التركي مباني القصبة مقراً لدواوينهم ـ سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) وضربوا به مسكوكاتهم التي صارت تحمل اسم السلطان العثماني من غير ان يذكر فيها اسم الوالي المباشر للشؤون التونسية ، وظلت دار السكّة تعمل هناك الى ان حوّل أحد (البايات) الاتراك معالمها الى (الحفصية) وهي بناية متسعة تقع داخل المدينة أسسها الملوك الحفصيين قديماً ، فكانت تضمُّ عدة مصالح منها مصنع الاسلحة، ولما تولى (البايات) الحسينيون واستقروا بالسكنى في منازل باردو ، خارج العاصمة نقلوا اليه دواوين الحكومة ومنها (دار السكة) وأقاموها بمكان الثكنة المعروفة بقشلة باردو) .

ولما تقلّد احمد باي الاول الولاية التونسية وجه عناية خاصة الى اصلاح مؤسسات البلاد ، وأراد ان يساير في ذلك الممالك الافرنجية ذات الرقي المادي الذي تفوّقت به على جميع العالم ، فالتفت هذا الباي الى العُمْلَة التونسية وكان ضربها لا يزال على الطريقة العتيقة المتبعة منذ دهور ، فاشترى من مصنع الماني بمدينة (قريفنبروخ) آلات عصرية لسبك النقود بأسلوب فني صحيح ـ سنة ١٢٦٥ هـ ـ ١٨٤٨ م ـ ولما وصلت هذه الآلات نصبت بمحل دار السكّة في باردو ، وكان على الآلة الرئيسية منها مرسوم العبارة الآتية :

« بسم الله ـ عمل بامر احمد باشا باي ـ صاحب تونس ـ أيده الله »

ويقابل ذلك كتابــــة بالالمانية ترشد الى اسم المعمل الذي صنــع الآلة ، وعبارتها :

N° 66 - DULHORN - im Grevenbroich, bei Coln am Rein - 1848

ومن ذلك الحين صارت النقود التونسية من فضة ونحاس ـ باستثناء نقود الذهب ـ تضرب بهذه الآلة المجلوبة ، وتركت الطريقة القديمة ولم يعد يلجأ اليها الى آخر عهد دار السكة .

وفي مــــدة احمد باي الاول كان (محمود بن عياد) تقبّل ضرب المسكوكات باسم الدولة التونسية مقابل أجر يتقاضاه عن ذلك ، وقد اتفق ابن عياد مع بعض الشركات الانكليزية لضرب النقود من ريالات فضة ومن أثمان وخراريب نحاس جلبها الى تونس وراجت زماناً في البلاد ، كما انه اتخذ محلاً متسعاً عُيرف باسم (دار المال) يقع قرب دار سكناه . (شارع سيدي زهمول) ـ من ربض الباب الجديد ـ وفي هذه الدار نفسها طبعت على الحجر أول (اوراق مالية) في البلاد التونسية ـ سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٨ م) ـ وتحمل هذه الاوراق طابع البـاي أحمد وكذا امضاء الخزندار وهو وزير المــــال ، وسبب طبع هذه الاوراق هو ضعف دخل البلاد ، ونضوب ثروتها واتساع خرجها بالنسبة لدخلها ، وذلك لكـثرة العساكر النظامية التي رتّبها احـمد باي ـ فاحوجته الضرورة الى طبـع (اوراق مالية) في أعـداد الريالات المتداولة ، وقد أمر بترويجها في البــــلاد في البيع والشراء وسائر

المعاملات مثل النقد المسكوك سواء بسواء مع التزام الحكومة بصرفها نقداً في دار المال المتقدمة بعدخصم اربعة في المائة .

ثم كان دور الاستيلاء الاجنبي على البلاد بقيام الحماية الفرنسية المفروضة ، لكن النقود ظلت تُسَكُّ في باردو كالمعتاد برهة من الزمان الى ان كانت سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م) وفيها أجبرت الحكومة التونسية على تغيير نظام عملتها الجارية وذلك بتنسيقها مع العملة الفرنسية ، فابطل حينئذ التعامل (بالريال التونسي) الذي كان أساسها وعوض (بالفرنك) مع ما ينجم عن ذلك من تقسيم القطع ، وبهذه المناسبة أغلقت ابواب دار السكة في باردووصارت النقود الجديدة لتونس تضرب في دار السكة بباريس وتحمل الشارة الدالة على ذلك .

وهكذا توقفت أعمال دار الضرب التونسية ، وانتهت الوظيفة التي أنشئت من أجلها من زمان بعيد .

الصنوج

ولا ننسى انه كان مما يدخل في وظيفة دار السكة في القديم ، طبع الصنوج التى ياذن الامراء باتخاذها .

والصنج - كما لا يخفى - هو قطعة مدوّرة بقدر الدرهم او أكبر منه او أصغر تُتَّخذ من الزجاج ويرسم على احد وجهيها فقط كتابة بارزة تدلّ على ان مثقالها هو وزن الدرهم او الدينار الرسمي الشرعي

(Etalon de poids) وفي غالب الاحيان يكتب عليها اسم الامير أو الوالي الآمر بضربها ، وبعد تقدير هذه الصنوج بالوزن الثابت تطبع في دار الضرب ثم يوزعها أعوان الامير وأمناؤه على الصيّارفة والتجّار حتى إذا تقدّم اليهم من يريد صرف درهم او دينار يمكن للصيّرفي او التاجر ان يختبر وزنها بالصنج الذي لديه ، فيضعه في احدى كفتي الميزان ويضع النقد في الكفّة الثانية ليتحقق استيفاء وزنه ، فيقبله ان كان مستوفيا ويرفضه ان كان ناقصاً عن النصاب المطلوب .

وهناك صنوج أخرى تشبه في شكلها التي تقدم ذكرها ، غير انها أوزان ومثاقيل أعدت لوزن الاشياء الثمينة كالجوهرات ، والعطور ، والادوية وما الى ذلك ، والكتابة المرسومة عليها تدلّ على نوع العروض والبضاعة المقصودة بذاتها (١)

وقد استعمل العرب هذه الصنوج من ظهور دولتهم ، مقلدين في ذلك الروم البيزنطيين وكانت تعرف عندهم باسم (Exigia) وباسم (dénéral) .

واول والٍ عربي استعمل الصنوج في افريقية هو (عبد الله

---

(١) راجع البحث عن انواع صنوج مجموعتنا وقد نشر باللغة الفرنسية بالمجلة التونسية لمعهد قرطاجنة عدد ١٣ سنة ١٩٥٦

F. Viré - Dénéraux, Estampilles (Collection H.H. Abdul Wahab) Revue Tunis. N°13 1956

ابن الحبحاب (الذي تولى شؤون البلاد من سنة ١١٦ الى ١٢٣ ﻫ (٧٣٤ ـ ٧٤٠ م) من طرف الخلافة الاموية وقد عُثِر في التراب التونسي على أربع قطع منها . كما عثر بجهة القيروان على صنج جميل جداً للامير (حنظلة بن صفوان) مكتوب على وجهه :

« مما أمر به حنظلة بن صفوان ، مثقال درهم واف » .

وهو عِيَار الدرهم الشرعي [١] ، وكان ضربـــه بالقيروان ما بين سنتي ١٢٤ و ١٢٧ ﻫ . في خلافة هشام بن عبد الملك ، كما وجد في ناحية (مرماجنة) بالشمال الغربي من التراب التونسي صنج زجاج من القطع الكبير [٢] ضرب بإذن الامير (عبد الرحمن بن حبيب الفِهري) حفيد عقبة بن نافع ، المستقل بأمر افريقية من سنة ١٢٧ الى سنة ١٣٧ ﻫ .

وفي مدة الامراء من (بني المُهلّب) نوّاب الدولة العباسية بالمغرب ، ضربت عدة صنوج زجاجية غالبها يحمل اسم الامير الشهير (يزيد بن حاتم) ويتبين لنا من كثرة الصنوج التي أمر يزيد بسبكها واخراجها

---

(١) انظر بحثنا عن هذا الصنج في نشرة « كلية النقائش والاداب الرفيعة الفرنسية » سنة 1922

Dèneral Ommayade, in Bulletin du Comité des Travaux Historiques, pp. CXL VIII, 1922

(٢) راجع البحث الذي كتبه عنه ليفي بروفنسال وجورج مرسي في نشرة:
Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, A III 1937 - Alger

للناس مدى عنايته بالتعمير العربي واهتمامه بشؤون الصناعات الاهلية وتنظيم أسواق الحِرَف والمتاجر وترتيبها على أصول محكمة دامت قرونا متوالية بعده ، وربما بقي بعض تقاليدها حيًّا الى زماننا الحاضر في المدائن التونسية الكبرى كالقيروان وتونس وسوسة وصفاقس ، ولدينا من صنوجه المضروبة لهذا الغرض الشيء الكثير كما شرحناه بالتفصيل في غير هذا المقام .

ومن الغريب انا لم نعثر حتى الآن على صنوج مكتوبة في المدة الاغلبية باستثناء صنجين وجدا في ناحية القيروان مرسوم عليهما اسم (ابراهيم) فقط ولا ندري هل تصح نسبتها لامراء تلك الاسرة ، على انا كثيراً ما وقعنا على صنوج من غير كتابة في منازل الاغالبة كالعباسية ورقادة[١] .

---

(١) وبعد بضعة اشهر من كتابة الفقرة المتقدمة عثرت في انقاض مدينة رقادة على صنجين جيلين متساويي الحجم مرسوم على وجه كل منهما كلمتان : (غلب) في السطر الاعلى و (ابراهيم) في السطر الاسفل ، يعني ابراهيم الثاني من بني الاغلب ، وفي ثانيهما ـ (غلب) ثم (زيادة الله) يعني زيادة الله الثالث ، ووزن الاول منهما ٣،٥٠ غرام ووزن الثاني ٣،٧٥

وهذا الاكتشاف الغير المتوقع يرفع الاشكال ، ويؤيد ما ذهبنا اليه من ان الاغالبة اتخذوا الصنوج من الزجاج ، وذلك قبل ظهور الدولة الفاطمية ، وحيث ان التاريخ لم يتعرض حتى الان الى وجود الصنوج في عهد الاغالبة فقد وجب التنبيه على ذلك ليعلم ان الدولة الاغلبية كانت انظمتها سائرة على غرار ما هو جار في ممالك الشرق العربي ، ومقلدة لها في الاوضاع والنظم .

اما الدولة الفاطمية فقد استعملت من الصنوج مدة استيلائها ما لا يحصى كثرة ، فيوجد منها ما هو باسم عبيد الله المهدي وكذا باسماء أبنائه من بعده الى حين نقلوا قاعدة ملكهم الى القاهرة [١] ، بل نؤكد ان نوّابهم من بني زيري الصنهاجيين استمروا على رسم اسماء الخلفاء الفاطميين المصريين على صنوجهم وارطالهم ، كما ذكر ذلك الرحال المقدّسي الذي زار افريقية في اواخر القرن الرابع للهجرة حيث يقول:

« وأرطالهم رصاص على كل رطل اسم أمير المؤمنين (الفاطمي) وصنوجهم من زجاج مطبوع كما ذكرنا من الارطال [٢] »

ولدينا كمية كبيرة من هذه الارطال الرصاصية وهـــذه الصنوج الزجاجية ، ولم يتجاسر بنو زيري على تعويض اسماء الفاطميين باسمائهم لا في النقود ولا في الصنوج والارطال الا ما كان من المعز بن باديس في منتصف القرن الخامس حيث قطع العلاقات بين دولتـــه الصنهاجية وبين حكّام مصر من الفواطم ، وكان ما كـان من زحفة الاعراب الهلاليين على البـــلاد التونسية ، ومن وقتئذ انقطع ضرب الصنوج

---

(١) راجـع بحثنا باللغة الفرنسية :

Déneral Fatimite de Aïn Fourna in bulletin Archéo. du Comité des Travaux Historiques - Paris 1926, p. 38

(٢) أحسن التقاسيم ، في معرفة الاقاليم ، للمقدسي البشاري ط ليدن سنة ١٨٧٧ ص ٢٤٠

بافريقية وانعدم رواجها في البلاد ولم نعـد نسمع بوجودها في المغرب بعد ذلك ، بينما دام اتخاذها واستعمالها في ممالك الشرق العربي الى عصر غير بعيد .

* * *

وبعد هذه الكلمة عن تاريخ (دار الضرب) التونسية وتوابعها نعود الى خبر النقود وتطوّر احداثها في البلاد على مرّ الزمان ، وقـد تقدّم انهـا بقيت في القيروان كامل مـــدة الولاة الوافدين من لدن الخلافتين الأموية و العباسية .

نقود الفهريين

في الفترة التي انتقلت فيها الخلافة الاسلامية من يد بني اميـة الى العباسيين (سنة ١٣٢ هـ) كان يسيطر على شؤون افريقية زعيم اشتهر بالحزم والحنكة السياسية الا وهو الامـــير (عبد الرحمان بن حبيب الفهري) احد حفدة القائد عقبة بن نافع ، وقد استقل بـأمر المغـرب استقلالا ، تاما وحاول أن يؤسس دولة وراثية يكون الحكم فيها لعقبه من بعده ، وفي مدته ضرب دراهم ودنانير بالقيروان على غـرار النقود الاموية ، ويوجـد الآن منها مـا هو مؤرخ بسنتي ١٣٤ و ١٣٦ هـ (٧٥١ و ٧٥٤ م) الا ان امارة هؤلاء (الفهريين) لم تدم كبير وقت بعد مقتل عبد الرحمن اذ افضت احداثها الى منازعات ومعارك بين افراد الأسرة ، فاستنجد بعضهم بقبيلة (ورفجّومة) البربرية التي كانت تخيّم

بالجنوب الشرقي من البلاد التونسية ـ بلاد نفزاوة الآن ـ وفي النهاية آل الامر الى امتلاك هؤلاء الشراة لمدينة القيروان ، فاضطهدوا سكّانها العرب وعاثوا فى معالمها بالفساد والتخريب

في ذلك الوقت نفسه كان يتصرف في طرابلس ونواحيها زعيم من قوّاد الجند العربي هو (أبو الخطّاب عبد الاعلى بن السمح المُعَافري) وقد انضم الى عصابته ثُلّة من الجند العربي وفريق كبير من مُسْلِمَة البربر المقيمين هناك ، وكان جميعهم انتحل مذهب الخوارج ، فلما بلغ أبو الخطاب ما ارتكبته (ورفجّومة) من العيث والفساد بالعاصمة العربية الكبيرة أخذته الحميـة وحشد جنوده وتقدّم بهم الى القيروان فاستخلصها من يد ورفجّومة المغتصبين واعاد اليها الطمأنينة والعــــدل ، ولم يستقر أبو الخطاب المُعَافري إلاّ قليلاً بالقيروان حيث رجع الى ولاية طرابلس بعد ان استخلف مكانه رفيقه (عبد الرحمن بن رُسْتم) الفارسيّ الاصل سنة ١٤٢ ﻫ (٨٥٨ م) فقـام عبد الرحمن بالحكم فيها مـدة اربعة اعوام ضرب خلالها فلوساً من النحاس مكتوباً على وجه منها « ضرب هـذا الفلس بافريقا (كذا وعلى الوجه الثاني : سنة اثنتين واربعين ومائة[1] »

(١) يلاحظ ان اسم البلاد جاء مكتوبا على هذه الفلوس بصيغة (أفريقا) لا افريقية كما هي العادة العربية ، ويظهر ان هذه الصيغة نقلت مباشرة عن اللاطينية (AFRICA) ولا يخفى ان كثيرا من الافريقيين في ذلك العصر بقـوا متمسكين بالديانة المسيحية ، وان عددا وافرا منهم كان يحسن جيـدا اللسان اللاطيني كتابة وتكلما .

واستمر ضرب هذه الفلوس الى سنة ١٤٤ هـ و ١٤٥ هـ اعني الى ان قدم القائدالعباسي (محمد بن الاشعث الخزاعي) في جيش عرمرم أرسله أبو جعفر المنصور، فحارب بولاية برقة وطرابلس جموع أبي الخطاب من عرب وبربر وهزمهم ، ثم اتجه الى القيروان واعاد ملكها الى السيادة العباسية ، وخرج عبد الرحمن بن رستم فارًا الى المغرب الاوسط حيث أسس مدينة ' تاهرت) واتخذها قاعدة للامارة الرستمية سنة ١٦١ هـ (٧٧٨ م) كما هو مبسوط في مطوّل التاريخ .

نقود المهالبة

تقدّم لنا ان الدولة العباسية كانت ترخّص لولاتها في الجهات ضربَ نقود الفضة مما لم يسمح به خلفاء بني امية .

ومن أشهر وُلاة بني العباس على افريقية والمغرب ، آل المهلّب) البيت العربي البصريّ الطائر الصيت ، وقد تولّى منهم ستة أو سبعة تعاقبوا على ولاية القيروان وطرابلس' من سنة ١٥٠ الى ١٧٨ هـ ' وأولهم (عمر بن حفص المشهور بهزَارمَرْد) وثانيهم (يزيد بن حاتم) المهلّبي المشهور بالكرم والنجدة ، وما منهم واحد الا وقد ضرب السكة باسمه ما بين دراهم وفلوس نحاس في القيروان ،ولدينا من جميعها قطع ذات بال ـ وقد ضرب هؤلاء الامراء بعض الدراهم الفضية في مدينة (العباسية)

وهنا نريد ان ننبّه القارىء الى ان هذه المدينة ليست بالعباسية

المعروفة جنوب القيروان التي اسسها فيها بعد ابراهيم الاول من بني الاغلب ، وانما هي مدينة صغيرة كان أسسها الامير (عمر بن حفص المهلّبي) في حدود سنة ١٥٢ هـ لما كان واليا على افريقية ، والعباسية هذه تقع في ارض الزاب حيث بسكرة الان في ناحية المعاقل الحربية العربية للتخوم الافريقية .

وهنا استرعي انتباه القارئ الى اهمية النقود الافريقية العربية التي وجدت في تراب جمهورية سويسرة بأواسط أروبا ، فقد عثر حنو قرية (ستيكبون = Steckbon) على دراهم كثيرة تحمل اسماء الامراء المهالبة مضروبة بالقيروان ، فمنها ما هو باسم يزيد بن حاتم المتقدم (سنة ١٧٠ هـ) وبعضها باسم (نصر بن حبيب المهلّبي) و عليها تاريخ سنة ١٧٢ هـ ـ وكذا باسم (الفضل بن روح بن حاتم) .

وقد تساءل بعض العلماء المستشرقين مثل الاستاذ (فراين = Fraehen) عن سبب وصول هذه المسكوكات الى سويسرة واختفائها في الارض حتى اكتشفها بعض الفلّاحين في القرن الماضي مدفونة في التراب ، وقد ذهب بعض علماء الافرنج الى ان رجال (النرمند) هم الذين اخذوها في غزواتهم من افريقية وحملوها الى ارض سويسرة ، والراي السائد ـ بل المحقق في هذا الشان ـ حسبما اثبته الاستاذ (صورى Soret) من علماء جنيف ، ان هذه الدراهم مما تركه العرب الافريقيون لما كانوا يشنّون الغارات على بلاد سويسرة ، وقد دام مقامهم في أرضها طويلًا ،

وبقي من آثارهم بها الشيء الكثير كأسماء الاماكن والانهار والجبال ؛

وهذا الرأي هو الارجح عندنا لانه يتّفق مع واقع الأخبار التاريخية.

وضرب (هرثمة بن أعيُن) بعد المهلّبين دراهم وفلوساً بالقيروان حينما حلّ بها والياً من قبل هارون الرشيد ، وهي تحمل اسمه ، وتاريخها سنتي ١٧٩ و ١٨٠ ﻫ ، وفي مجموعة النقود التي بمتحف المنستير قطعتان منها ، عُرضتْ هناك بمناسبة تاسيس الامير هرثمة للرباط الكبير بها ، وهذه القطع نادرة الوجود الآن .

وفي مجموعتنا ايضا درهم بتاريخ سنة ١٨٣ ﻫ (٧٩٩ م) باسم الامير (محمد بن مقاتل العكي) أخي هارون الرشيد من الرضاعة ، وهو آخر من تولى إمرة افريقية للعباسيين قبيل استقلال ابراهيم بن الأغلب .

نقود الاغالبة

بعد ثورات متكرّرة وفتَن متوالية تقلّد (ابراهيم بن الاغلب) التميمي أمر افريقية بعهد من الخليفة هارون الرشيد ــ جمادى الآخرة سنة ١٨٤ ﻫ . (٨٠٠ م) ــ معترفاً له فيه باستمرار وراثة الامارة في عقبه ، وهكذا نالت البلاد التونسية استقلالاً داخلياً واسعاً . وفي مقابل ذلك التزم ابراهيم للخلافة العباسية بترك الاربعين الف دينار التي كانت تاتي على سبيل الاعانة من خزينة مصر ، كما التزم بدفع خراج سنوي

قدره ستون الف دينارا يُرفع من القيروان الى بغداد ، فتسلّم ابراهيم مقاليد الامور ووفىّ بشروط العهد المبرم .

ومن حسن الحظ ان وقع لنا دينار من التي التزم بدفعها في كل عام. وهو مؤرخ بسنة ١٩٦ هـ . (٨١٢ م) — يعني في آخر حياة ابراهيم،وقد رسم على أحد وجهيه كلمة « للخليفة الامام » وهو وقتئذ المأمون بن هارون الرشيد ، وظل الامراء الاغالبة يرسلون هذا المقدار الى بغداد مع الهدايا المناسبة حتى في سِنيّ الشدة والمسغبة ، وكانت نقود ابراهيم الاول وخلفائه من دنانيرودراهم قد اتُّخِذَتْ على شكل النقود العباسية، وهي متقنة الصنع واضحة الكتابة،حروفها من أجل الحروف الكوفية الرائجة عندئذ في سائر الإمارات العباسية .

ومن التقاليد المتّبعة في النقود الاغلبية انها تحمل مع اسم الامير المتولي اسم ناظر دار الضرب القيّم على جميع شؤونها ، وكان الناظر في غالب الوقت من موالي بني الاغلب وفتيانهم الصقالبة اوالصقليين، فنجد مثلا على نقود ابراهيم الاول اسم « موسى » وهو من فتيانه المقرّبين ، وفي نقود ابنه زيادة الله الاول : (مسرور) وفي نقود محمد الاول (خلف) وفي مدة محمد الثاني : (حسن) وفي مدة ابراهيم الثاني: (شُكْر) ثم (بَلّاغ) وفي مدة زيادة الله الثالث (خطّاب) وهو آخر من تولى النظر على دار الضرب الاغلبية .

درهم ثائر

وفي أيام زيادة الله الاول ثار الجند العربي في ناحية تونس ، وكان برأسهم (منصور بن نصر) المعروف بالطنبذي[1] فانه بعدو قائع وأحداث تمكن من الاستيلاء على مدينة القيروان ، وبمجرد دخوله اليها ضرب منصور بها عُملة عليها اسمه . وصل الينا منها درهم فضة يشبه تماماً مثيله الاغلبي في حجمه ووزنه وخط كتابته ، غير انه أبدل كلمة « غلب » التي هي شارة الأُسرة الاغلبية بلفظ (عَدْلٌ) وعوّض اسم الامير الاغلبي باسمه (منصور بن نصر) ورسم تاريخه سنة عشرين ومائتين (٨٢٥ م) ولا شك ان سَكَّ هذا الدرهم كان في دار الضرب بالقيروان التي لم يملكها هذا الثائر أكثر من اربعين يوماً ، حيث أعاد زيادة الله الكرّة واطرده منها مع اتباعه الثائرين[2] ولا ندري هل تيسّر لمنصور الطنبذي أن يضرب دنانير ذهباً باسمه حين تغلُّبه على العاصمة الافريقية لأنّا لم نقف لها على أثر .

---

(١) نسبة الى طنبذة ، وهو قصر كان موجوداً في مكان قرية المحمدية الآن بجنوب مدينة تونس .

(٢) راجع بحثنا باللغة الفرنسية في المجلة التونسية لمعهد قرطاجنة عدد ٣٢ - ١٩٣٧

H.H. Abdul Wahab , « Un tournant de l'histoire Aghlabite - Revue Tunis , N° 31 et 32 , 1937 p. 343

وفي مدة زيادة الله ايضـا حـدث حـادث من الاهمية لتاريخ تونس بمكان ، وذلك ان هـذا الأمير لأسباب يطول شرحها عزم على غـزو صقلية لاضافتها الى ممتلكاته ، فجهّز لهذا الغرض جيشا قويا وأسطولا ضخما حمل بها على تلك الجزيرة ، وعيّن قائدا لهذه الحملة قاضيه (أسد بن الفرات) سنة ٢١٢ هـ (٨٢٨ م) فـنزل الجيش في الناحية الجنوبية وامتلك من الجزيرة قـلاعا ومعاقل كثيرة كانت باكورة الفتـح ، ثم تقدم الى عاصمة البلاد وهي إذذاك (سِرَقُوسَة = Siracusa) وحاصرها، والتحم القتال فاستشهد أسد تحت سور المدينة ـ سنة ٢١٣ هـ. وعيّن زيادة الله خَلَفًا له القائد (محمد بن الجواري) ، وبينما كان هذا القائد يواصل عمليات الفتح اضطر لضرب دراهم فضّة وفلوس نحاس ، ووصل الينا منها نمـوذج واحد هـو الان محفوظ في مجموعة متحف (اللُّوفر) في باريس [1] وهو مؤرخ بسنة ٢١٤ هـ (٨٣٠ م) وقد نقـش على وجهه اسم الامير زيادة الله ، وفي قفـاه اسم القائد محمـد بن الجواري ، وليس من شك ان هـذا الدرهم انما ضُرب تحت خيـــام الجيش الفاتح ، لسد حاجات العساكر ومقايضاتهم اليومية .

---

(١) راجـع كتاب :

Henri Lavoix - « Catalogue des Monnaies Musulmanes du Musée du Louvre » - Paris 1887-91 - vol II p. XXXIX

ثورة الدراهم

عزم ابراهيم الثاني مدة ولايته على ادخال تغيير جوهري في نظام العملة الاغلبية وذلك ان الدراهم كان يتعامل بها في أسواق القيروان ومدائن افريقية بالوزن لا بالصرف، وكثيراً ما كانت تقطع أجزاء صغيرة من انصاف وأثـلاث وأرباع بدعوى تسهيـل الشراءات الصغيرة والمعامـلات الطفيفـة ، ويحصل ذلك على غير قـاعدة مضبوطة ، وشاع ضرر هذه الطريقة وأدّى الى فوضى في المقايضات، فاراد الامير ابراهيم الثاني تلافي الامر بتنظيم التعامل على أصل صحيح يحفظ مصالح الناس ويرفع الريبة ويكفّ التناز ع بين الافراد ، فـأمر بضرب دراهم صحـاح خالصة العيار ، وجعل كل عشرة منها تساوي ديناراً ذهباً وقد سماها (بالعشارية) ، وأمر بقطع التعامل بالمقطوعات من الدراهم ، فانكر عليه التجار وأصحاب الدكاكين ذلك لما ينـالهم من قِلّة الربح الذي كان ينجرّ لهم من القِطَع، فاعصوصبوا واغلقوا الدكاكين وتألّبوا وقصدوا مدينة رقّادة مقرّ الامير معارضين لهذا الاصلاح ، واخـذوا يصرخون ويعلنـون غضبهم واستنكارهم في شدة، فامر الامير بجمعهم وسيقوا الى جامع رقّادة حيث حبسهم بواسطة اعوان شرطته، وبلغ الخبر اهل القيروان فانقلبت المظاهرة الى ثورة شعبية وكادت تتفجّر وتنتشر لولا ان تداركها ابراهيم بحكمة ورصانة ، فـاخذ يُطَمّن السكان باطلاق المحبوسين فَهَدَأت الخواطر ، لكن الاصلاح النقدي الذي اراده الامـير

ثبت وأخذ مجراه واستقر نهائيا في البلاد ـ سنة ٢٧٥ هـ ـ (٨٨٨ م) .

وهو لعمري من الاصلاحات ذات الشان في اقتصاد البلاد اذ صارت الدنانير والدراهم تؤخذ صرفا لا وزنـا ، وقد عُرِفَ هـذا الانقلاب النقدي باسم (ثورة الدراهم) (١)

ميدالية أغلبية

ولا يفوتنا ان نذكر ان رؤساء الدول الاسلامية في المشرق والمغرب كثيراً ما كانوا يضربون دراهم فضّة ودنانير ذهب خارجة عما يتعامل به الناس ، وكان يؤمر بسبكها في مناسبات معلومة كموسم رأس السنة وفي بعض الاعياد مثل عيد النوروز ، فيقدمها الامراء من جملة الهدايا الى الملوك والى كبراء رجال دولتهم ، ويكون حجمها في غالب الاوقات غير الحجم المعتاد للنقود ، تزن ضعف الدينار او الدرهم الجاريَيْن ، وقد بلغ أحيانا عشرة أضعاف .

ومن جملة ذلك الهدية التي أرسلها (زيادة الله الثالث) آخر الامراء الاغالبة سنة ٢٩٦ هـ ـ الى الخليفة العبـاسي (المكتفي بالله) وذلك لما هاجم أبو عبد الله الشيعي داعي دعاة الفاطمي المملكة الافريقيـة ، فكان من جملة الهـدية عشرة آلاف درهم ، وزن كل واحد منها عشرة

---

(١) واجع ك « البيان المغرب » لابن العذاري ط ليدن ج ١ ص ١١٤

دراهم ، والف دينار في كل واحد عشرة دنانير ، وقد كتب على تلك القِطَع ، من دراهم ودنانير (في الوجه الاول) :

يا سائراً نحو الخليفة قُل له   أن قد كفَاكَ اللهُ أمرك كلّه
بزيادة الله بن عبد الله سيف الله دون الخليفة سَلّه

وفي الوجه الآخر :

ما ينبرى لك بالشقاق منافق   الا استباح حريمه وأحلّه
من لا يرى لك طاعة فالله قد   أعماه عن طُرُق الهُدى وأضلّه

ومن الاسف الشديد لم يعثر الى الآن على قطعة واحدة منها ، وربما كان ذلك لانها دخلت الى بغداد ولم يبق منها في افريقية .

وهذا النوع من النقود يشبه ما يطلق عليه عند الافرنج اسم (الميداليات) التي تضرب مثلًا عند زيارة أحد الملوك او الامراء الى دار السكة بالعواصم الاوروبية ، مثال الميدالية التي ضربت بدار السكة في باريس لما زار احمد الاول باي تونس في ديسمبر ١٨٤٦ ومنها نموذج جميل جداً أهديته لمتحف الآثار الاسلامية في (دار حسين) .

وخلاصة القول ان نقود الدولة الاغلبية كانت من أجود ما ضُرب في الاسلام ، لا لصحتها فحسب بل لجمال ضربها وبهاء رونقها ، ولا مبالغة إذا قلنا انها تفوق في بهجتها ونضارتها دنانير ودراهم الدولة الاموية المعاصرة بالاندلس .

وهنا نسترعي النظر الى أمرمهم آخر ، وهـو كثرة ما بقي من الدنانير الاغلبية لا في التربة التونسية فحسب بل في عمـوم المغرب وفي بلاد النيل ، لا سيا منها التي تحمل اسم (ابراهيم الثاني) فقد يُعثر في كل حين على جانب منها بالرغم من تقدم تاريخها وبُعْد أمدها حينا لايعثر على مثيلها من النقود الصنهاجية أو الحفصية أو التركية التي هي اقــرب عصراً وأجدُّ تاريخاً ، وربما يسوغ تفسير ذلك بوفرة الثروة التونسيـة في مدة الاغالبة خصوصاً بعد فتحهم لجزيرة (صقلية) وجنوب ايطاليا الغنية بخيراتها ، والتي كانت تجبي الى خزائنهم خراجاً سنويا كبيراً ، يضاف الى ذلك ازدهار البلاد الافريقية في عهــدهم اذ تقدمت وسائل الفلاحة - من زراعة وغراسة - وانبعت عيون المياه ، وأقيمت السدود المناسبة في كل مكان [1] وانتشرت أسباب الصناعة المحلية والتجارة في سائر الانحاء ولذا قصد تجّار سواحل البحر المتوسط البـلاد التونسيـة للتزوّد منمنتوجاتها ومحصولاتها .

زد على ذلك العلاقات الدائمة التي كانت تربط الوطـن التونسي 
ببلاد السودان الغربي ، فقد أثبت التاريخ ان إسلام مملكة (مالي) وما يجاورها من البلاد الواقعة حول بحيرة (الشاد) حصل على يـد تُجّار

(١) راجع بحثنا باللغة الفرنسية عن « الاستيلاء الاسلامي في صقلية » ط تونس ١٩٠٥

H H Abdul-Wahab - La Domination Musulmane en Sicile - Tunis 1905

ينتسبون الى القطر التونسي في عصر متقدم ، كما أوضحته في غير هذا المقام ، فالصِّلات التجارية الجارية بين الناحيتين ساعدت كثيراً على وجود الذهب ـ وهو التِّـبْر ـ المجلوب من تلك الاصقاع الى الامارة الاغلبية .

ولا جرم ان استتباب الامن العام في افريقية مدة الأغالبة بتأمينهم طرقات السابلة على المسافرين من تجار وغيرهم المتردّدين على جهات البلاد ،وتطمينهم السكان على النفس والأهل والمال يسّر لامحالة الاسباب التي تشترط غالباً في توفير ثروة الاهالي القاطنين ، وبسبب ذلك حل بين ظهرانيهم الرفاهية والرخاء .

نقود الفاطميين

من المعلوم ان (أبا عبد الله الصنعاني) قام بالدعوة للفاطميين في بلاد كِتَامة ـ جبال القبائل الآن ـ وذلك في اواخر القرن الثالث للهجرة ، وسريعاً ما تمكّن من التغلّب على القسم الغربي من افريقية ، وتقدّم يفتح المدائن الواحدة تلو الاخرى الى ان وصل الى (الأُرْبُس) وهناك ألحق بالجيش الأغلبي هزيمة كبرى ، كانت الاعلان لسقوط دولة وقيام دولة مكانها ، ومنها تحوّل داعي الشيعة الى (رقّادة) وقد فرّ منها زيادة الله الثالث ، واستحوذ الداعي على ما بقصورها من الذخائر والنفائس المخلّفة ، واخذ يرتّب شؤون الدولة الفتية ، ووزّع على أعيان رجاله من الكتاميين وغيرهم أهم الوظائف ، وقد عيّن على مصلحة

السكّة (أبا بكر بن القمودي) المعروف بالفيلسوف ـ وكان من علماء القيروان المشهورين ـ وأمره بضرب اول دنانير فاطمية نقش عليها كلمة (الحمد لله رب العالمين) واسماها « السيدية » وذلك أواخر سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) [١]

المهدي بالله

ثم ان الداعي توجه الى سَجِلْمَاسَة ـ بلاد تفيلالت الآن ـ حيث كان المهدي مسجوناً فاخرجه من محبسه وقفل راجعاً معه في أُبّهة عظيمة الى رقّادة ، وتربّع المهدي في قصور الاغالبة وتلقّب بالامام ، وأضاف الى لقبه (المهدي بالله أمير المؤمنين) مدّعياً بذلك الخلافة العظمى ، ومزاحماً للخلفاء من بني العباس في العراق ، ثم انه أقرّ كبار الموظفين كل على الخطة التي عيّنها له داعيه من قبل ، ومن ذلك ابقاؤه (أبا بكر الفيلسوف المعروف بالقمودي) على دار السكة ، وضرب عبيد الله المهدي دنانير رسم على وجهها (بلغت حجة الله) وفي وسط قفاها (تفرّق اعداء الله) ، وفي الدائرة : (بسم الله ، ضرب هذا الدينار بالقيروان سنة ٢٩٧ هـ) ولم يذكر اسم رقّادة ، واستمرت نقود المهدي ـ من ذهب وفضة ونحاس ـ تنصّ على ان سبكها وقع بالقيروان الى ان تحوّل في جملة أهله ورجاله الى سكنى مدينة (المهدية) التي ابتناها

---

(١) ك البيان المغرب لابن عذاري ١ : ١٤٨ ط ليدن .

على الساحل الشرقي التونسي – سنة ٢٠٨ هـ – وقد حافظت نقـوده على الهندام الاغلبي في الحجم والشكل والخط ، ولا يفرق بينها سوى نص الكتابة .

ولما استقر هو وافـراد أسرته بالمهدية – مقر الخلافة الجديد – صارت دنانيره ودراهمه تُسبَكُ بها ، وأحيانا بالقيروان – يعني برقادة – ومن غريب ما يلاحظ في شأنها ان اسمه يأتي بها دائما بصيغة (عبد الله) ولم يعثر على واحد منها يحمل اسم (عبيد الله) بصغة التصغير كما هو مشتهر به .

القائم بالله

مات المهدي سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) وخلفه ابنه ابو القاسم وتلقب (بالقائم بأمر الله) ومقرّ دولته المهدية ، وفيها ضرب دنانيره ودراهمه ، وهي تمتاز على نقود ابيه بشكل حروفها اذان الاولى كانت مكتوبة بالكوفي القديم ذي الحروف المحـددة الواقفة ، وهي المستعملة في المسكوكات العباسية والاغلبية معاً ، فغيّرها القـائم بحروف مقلّدة عن الكوفي المعروف عند اهل الخطاطة (بالقَرْمَطي) وهي كتابة ظهرت في المـشرق في القرن الثالث وانتشرت في انحائه ، وقد تـدرك بحروفهاالمزخرفة ان آذان رؤوس ألفاتها ولاماتهـا تنتهي باوراق وازهار .

دينار صاحب الحمار

وأكبر حادث وقع في مدة استيـــلاء القائم بالله ، هو ظهور ثائر بربري تولىّ حركة الخوارج من (اباظية ونكّار) وهو (أبو يزيد مَخْلَد بن كيدّاد) اليفرني ويُدعَى (صاحب الحِمَار) لركوبه حماراً أشهب ، وأصل هذا الثائر من بلد توزر مدينة قسطيلية ـ الجريد ـ الآن وكان في أولياته مؤدّباً للاطفال ، ثم اخذ يدعو قومه من قبيلة زناتة وغيرهم من البربر الخوارج الى مقاومة المنكر المتفشي في البـلاد ووجوب اتبـاع الحق ومكافحة بني عبيد الشيعيين ، وسرعان ما اشتدت شوكته وتضخّم جمعه وانصاره ، فهاجم بجيوش جـرّارة افريقية الفاطمية ، وامتلك جوانبها من كل الجهات ، ثم قصد القيروان ، وبعد حروب عنيفة تمكن من الاستيلاء عليها ،وقد انظم اهلها اليه لانكارهم على بني عبيد الفاطميين محاولتهم فرض منهبهم الشيعي على المغرب ومحو السُّنّة منه ، كما هـو مبسوط في التاريخ ،

ولنقف برهة عند امتلاك هذا الثائر للقيروان ـ أمّ القرى الافريقية ـ سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٥ م) فانه بمجرد حلوله بها مع جنوده البرابرة عزم على ان يسكّ بدار ضربها القديمة ديناراً ذهباً يرمز الى انتصاره على الدولة الفاطمية ، ويؤيد سيطرته على البلاد ، كما أشار الى ذلك كثير من من المؤرخين منهم ابن خلدون ، بيد ان النص الكامل لما هو منقوش على

هذا الدينار لم يكن معروفاً الى عهد غير بعيد ، اما الآن فلدينا منه نماذج عديدة ، وهاك نصه الكامل نظراً لاهميته :

الوجه الاول (في الوسط) :

« ربّنا الله ، لاحكم الا لله ، وحده لاشريك له ـ الحق المبين »

وفي الدائرة : بسم الله الرحمن الرحيم ـ ضرب هـــذا الدينــار بالقيروان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة .

وفي الوجه الثاني (في الوسط) : العزة لله ، محمد رسول الله ، خاتم النبيئين .

وفي الدائرة الاولى منـه : « الذين آمنـــوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هو المفلحون » .

وفي الدائرة الثانية منه : « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .. »

واعتبر ما جاء في الوسط الاول من ذكر آية (لاحكم الا لله) فانه يشير بلا شك الى شعار الخوارج الذي اتخذوه رَمْزاً لطائفتهم ، كما هو معروف .

ولا نعلم هل ضرب أبو يزيد هذا دراهم فضة مع الدنانير ، اذ لم نعثر على شيء من ذلك .

والواقع ان نقود الثائرين في كل زمان تكتسب أهمية خاصة في التاريخ وفي علم المسكوكات ، لانها كما لا يخفى ضربت في مدة قصيرة لاثبات سلطة الغازي على الهيئة الحاكمة الموجودة في البلاد ، وفي غالب الاوقات يكون ضربها محدود العدد فتكون بطبيعة الامر قليلة الوجود ، وقد تقدّم لنا ذكر بعض نقود الثوّار في افريقية .

دينـار المنصور

وفي أثناء الحرب بين عصابات الثائر وانصار الفاطميين مات القائم بامر الله شوال ٣٣٣ هـ (٩٤٥ م) وقد أخفى ابنه وخليفته (إسماعيل المنصور بالله) وفاته ولم يتسمّ حالاً بالخلافة ولا غيّر السكة بل جدّ في مقاومة صاحب الحمار بحزم وثبات ، ويؤيد ذلك ما يوجد من الدنانير المضروبة في سنتي ٣٣٤ و ٣٣٥ هـ (٩٤٦ و ٩٤٧ م) باسم القائم ، يعني بعد سنتين من وفاته ، وأبلى المنصور في مطاردته البلاء الحسن الى ان شرّد جموعه ، وأخيراً تمكّن من القبض عليه وقتله ـ المحرم سنة ٣٣٦ هـ ـ وحينئذ تلقّب المنصور بالخلافة وانشأ مدينـة جديدة حذو القيروان اعلاناً لانتصاره ، ولذا أسماها (المنصورية) وكان مكانها يعرف (بصبرة) وانتقل الى سكناها في السنة التالية ، وبهـذه المناسبة سبك دنانير ذهب كانت من أجمل النقود المضروبة في الاسلام ، وتغيّر الدينار الفاطمي في الشكل والكتابة ، وصار أكبر حجماً مما كان مستعملا قبل ، الا انه حافظ على الوزن أعني النصاب الشرعي ، وهو المهمّ ، وقد

جعل نص كتابته محصورة في دوائر محدّدة بخطوط نصف بارزة ، وهذا الشكل يسمى قديماً في عُرف الصرف العربي (بالازواج) ، والملاحظ أيضا ان دنانير المنصور تحمل زيادة هي تعيين السنة واسم الشهر الذي صيغت فيه ، مما لم يسبق له نظير في الضرب الافريقي . ومثال ذلك :

«بسم الله ، ضرب هذا الدينار بالمهدية ـ او المنصورية ـ شهر محرم سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة » .

وهكذا يتوالى الضرب شهراً فشهراً من المحـــرم الى ذي الحجّة ، هذا بالاضافة الى جمال الخط الكوفي القرمطي الباهر ، ويتبيّن مما تقدّم ان المنصور سَنَّ لأعقابه الفاطميين طريقـة الدنانير على (الازواج) يعـني في دوائر تحيط بالنصوص المكتوبة ، وبقي هذا الشكل متبعاً الى آخر الدولة الفاطمية في المشرق ، كما ظلّت مـــدينة المنصـورية دار ضرب مستقلة ، وقد سبك فيها من النقود مالايقل كثرة عما ضرب في القيروان ، ولم يتوقف السبك في المنصورية الا بعد زحفة بني هلال .

المعز لدين الله

وبعد وفاة المنصور تولىّ الخلافة ابنه (مَعَدّ المُعِزّ لدين الله) سنـة ٣٤١ هـ ـ (٩٥٢ م) وعصره من أخصب عصور افريقية في الاحـداث وفي المسكوكات ، فقـد كان من أفخر ملوك الاسلام عزةً وجـــلالاً ، والنقود التي ضربها تمتـدّ دائرة سبكها من المحيـط الاطلسي الى خليـج

العرب ، فمن فـاس الى سجلماسة الى المنصورية (صبرة) الى القيروان، والمهدية،الى صقلية(بَلَرم)الى طرابلس ومنها الى مدائن مصر وفلسطين والشام والحجاز واليمن ، وما من مدينة من المدائن المسماة ، ولا صقع مما ذكر ناالاونقد المعز فيها دنانيره ودراهمه ، علاوة على الصنوج والارطال البديعة الصنع، وهذا ما يؤكد عظمة شأنه واتساع سلطانه،ولاننسى ان جانباً وافراً من النظم الادارية ورسوم الحضارة ، ومن أوضاع الفنون التي اشتهرت بها دولة المعز ، وظهرت في ايامها ، يرجـع بأصله ويتمّ بوضعه الى المؤسسات الفاطميـــة التي أنشئت في الوطن التونسي ، وانتقلت بانتقال الأسرة حسبما يدرك ذلك من يمارس البحث عن الفن الفاطمي في المغرب ثم يقارنه بما يشاهد من آثاره في المشرق .

ومن أهم ما يلاحظ عن نقود المعز هو أنها صارت تشير في نصوصها الى المعتقد الشيعي من تفضيل (علي بن ابي طالب) وتخصيصه بالوصاية وبالوزارة للنبوءة المحمدية ، فقد يـأتي فيها ذكر (علي) ويرسم اسمه بعد النبي في مثل العبارة الآتية المنقوشة على الدينار :

« لا الـه الا الله ــ محمد رسول الله ــ عليّ افضل الوصيّن ، ووزير خير المرسلين ».

وهذا أمر لم يسبق لاسلافه العبيديين التصريح به في مسكوكاتهم ، واقتفى خلفاء المعز اثره في نقش عبارات اخرى في تفضيـل علي بن ابي طالب ، مثل :

بعـد محمد رسول الله : (علي خـير صفوة الله او = عَليٌّ وليّ الله) واشباه ذلك .

وواضح ان المعز لدين الله لم يتجاسر على هذا الاعلان بمذهبهم الا بعد ان تحقّق انه لم يبق معارض قوي يخشى منه تهديـد دولته ، مثلمـا حصل لأبيه المنصور وجده القائم بالله من الحركة البربرية العظمى التي قادها ابو يزيد اليفرني وغيره من الثّوار اصحاب المطامع في الملك .

ذكرنا فيما تقدم ان المعز لدين الله حوّل مقر الخلافة الفاطمية من المهدية الى القاهرة المعزية المنسوبة اليه ، وقـــد أناب عنه في امارة افريقية (بُلُكِّين) ، ويعـرف بيوسف بن زيري كبير قبيلة صنهاجة ذات الشوكة القوية في المغرب سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) .

دنانير المعز بن باديس

وقد استمرت النقود الافريقية تصاغ في القيروان وفي المنصورية والمهدية باسم الخليفة الفـاطمي بمصر الى ان تولىّ الامر (المعـــز بن باديس) رابع امراء بني زيري الصنهاجيين ، فانه بعد ان دان بالسيادة للفواطم دهراً طويلاً ـ ثلاثـــين سنة ـ تنكّر لهم واعلن استقلاله بسلطان المغرب وتبرأ من العقائد الشيعية واظهر بَدَلَها مذهب الجماعة والسُّنَة ، وذلك إرضاء للأُمم المغربية وتمشّياً مع ميولها ، فحمل المعز بن باديس رعاياه على التمسّك بمذهب (مالك بن انس) خاصةً ، وقد قطع

ذكر الفاطميين من الخطبة في الجـــوامع وعوّض اسماءهم فيها باسم الخليفة العباسي في بغداد ـ سنة ٣٣٥ هـ . (٩٤٦ م)

وبعد اربعة اعوام من هذا الاعلان ضرب المعز بن باديس دنانير ذهب لنفسه من غير ان يرسم عليها اسمـه ، واكتفى بانكار التشيع ، ونسب اهله الى المروق من دائــــرة الاسلام ، كما يستروَحُ من الآية القرءانية التي اوردها في نقوده ، فقد نقش في وسطها :

« ومن يبتغ غير الاسلام ديناً ، فلن يقبل منه » .

ثم انه استبدل بآية الرسالة محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق) التي ترسم فى غالب الدنــــانير على الدائرة المحيطة بالوسط ، ءاية اخرى مماثلة :

« يا ايها النبيء إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » .

وكان اول سبكه لهذا الدينار في سنة ٤٣٩ (١٠٤٧) واستمر في ضربه الى آخر حياته اي الىسنة ٤٤٦ هـ . (١٠٥٤ م) وكان ضربه بمدينة المنصوريةدار ملكه ،وقدنعتها في نقوده (بمدينة عزّ الاسلاموالقيروان) وذلك حين اختلط بنيان صبرة بمباني العـــاصمة الافريقية الكبرى أي القيروان .

ويستفاد من حديث دار بين المعز وبين بعض العلماء في القيروان انه رغب عن ذكر اسمـه في هـــذه الدنانير خشيةَ ان يلحق الحجَّاج

المغاربة القاصدين الحجاز الضرر من اعوان السلطة الفاطمية التي تراقب كل من يمرّ بتراب مصر ، حتى اذا ما اضطر احد الحجيج الى تصريف دينار صنهاجي بالديار المصرية كان نصيبه الحرمان والعقوبة . [(١)]

ويناسب جداً ان ننقل هنا ما كتبه الاديب القيرواني المشهور ، محمد بن شرف عن تبديل المعز بن باديس للسكّة الفاطمية وما كان لهذا الحدث من التأثير الاقتصادي في المجتمع الافريقي المعاصر ، قال ابن شـــرف [(٢)] :

« وفي هذه السنة (أي سنة ٤٤١ هـ) ١٠٤٩ م » أمر المعز بتبديل السكة في شهر شعبان على الازواج ، في الوجه الواحد (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين) وفي الوجه الثاني : (لا اله الا الله محمد رسول الله) وضرب منها دنانير كثيرة ، وأمر ايضا بسبك ما كان عنده من الدنانير التي عليها اسماء بني عُبيد ، فسبكت وكانت أموالاً عظيمة ، ثم بثّ في الناس قَطْعَ سكتهم وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله ، وقد كان قطع أسمائهم من الرايات والبنود ، وكان مبتدأ ضرب السكك باسماء بني

---

(١) معالم الايمان لابن ناجي ج ٣ ص ٢٠٩

(٢) هذه الفقرة وردت في تذييل ابن شرف على تاريخ الرقيق ، نقلها عنه ابن العذاري في (البيان المغرب) ج ١ ص ٢٨٩ .

عبيد الله ورسمها في الرايات والطرز سنة ٢٩٦ هـ ـ الى أن قطعها المعز المذكور سنة ٤٤١ المذكورة .

« وفي شوال من هذه السنة نادَى منـادٍ بامر السلطان أبي تميم (المعز بن باديس) انه من تصرف بمال عليه اسماءبني عبيد نالته العقوبة الشديدة ، فضاقت الحال بالفقراء والضعفاء ، وغلت الاسعار بالقيروان وكان الدينار القديم باربعة دنانير ودرهمين (؟) وكان صرف الدينار الجديد ٣٥ درهما » اهـ .

وفي الحقيقة لم يكن سبـك المعز الصنهاجـي لدنـانيره في سنة ٤٤١ هـ ـ كما ذكر محمـد بن شرف ، بل انه ضرب منها لاول مرة في خلال سنة ٤٣٩ حينما اعلن استبـداده بالامر ، ثم استمرّ على ضرب امثالها في كل عام موالي ، ولدينا من جميعها نماذج يسترسـل تاريخها من سنة ٤٣٩ الى ٤٥٤ وهو عام وفاته بالمهدية .

والظاهر ان ابن شرف انما اشار هنـا الى اتخاذ المعز بن باديس الدينار الذي اسماه (بالتجاري) وهو الذي امر برواجه دون سواه في سنة ٤٤١هـ ـ وقطع حينئذ النقود التي عليها اسماء بني عبيد الفاطميين [١] الامر الذي أوقـع الاضطراب في العُملة الجارية بالقيروان كما سلف

---

(١) جاء في « البيان المغرب » ١ : ٢٣٩ : « وفي سنة ٤٤١ ضرب المعز الدينار المسمى (بالتجاري) » .

بيانه ، وقد وجب التنبيـــه على ذلك لرفع كل التبـاس لمن يهتمـون بتاريخ النقود التونسية .

الزحفة الهلالية

ما كاد المعز بن باديس يعلن استقلاله ويقطـــع الدعوة لملوك القاهرة حتى فكّرت الدولة الفاطمية في الانتقام منه بوسيلة لم تكلّفها خسائر كبيرة ولا كثير عناء ، وذلك انه كان يوجد بارض مصر قبائل عديدة من الاعراب ينتسبون الى بنى سليم وغيرهم ، يقيمون جبْراً في ارض الصعيد ما بين البحر الاحمر والنيل ، وكان أوطنهم هنـاك الفاطميون قديماً ، وذلك بعد ان كثر عبثهم في بلاد الحجاز ، فاقاموا مدة طويلة في الصعيد، وقـــد عادوا الى الفساد والتخريب ، وتفاقم تضرر سكّان مصر من عبثهم وقطعهم الطريق ، فاغتنم الملك الفاطمي ـ وهو المستنصر بالله ـ فرصة عقوق المعز بن باديس وانسلاخه عن سلطانه فرخّص للاعراب المستقرين بارضه الدخولَ الى المغرب ، وأباح لهم اجتياز النيل والسيْر الى افريقية وتملك ارضها من يد الصنهاجيين ، وسرعان ما تسربوا زرافات وأفواجاً الى ارض برقـة ثم الى طرابلس واستحوذوا عليها ، ثم طرقوا مدينة قابس وامتلكوها ، ومنها انسابوا كالسيْل العَرِم على سهول البلاد التونسية وقهروا أهلها ، وعبثاً حاول المعز ايقاف هـــذا التيار الجارف ، فالتقى بجيوشـــه بجموعهم

فاوقعوا به هزيمة نكراء في مكان (حَيْدران) ما بين قابس وصفاقس . سنة ٤٣٩ هـ . (١٠٤٧ م) وعاد المعز مفلولاً في شرذمة قليلة من جنده الى القيروان التي لم تكن لتمنعه من شرّ الهاجمين ، فاضطر الى الالتجاء أخيراً الى المهدية لحصانة أسوارها ومتانة قلاعها سنة ٤٤٩ هـ .(١٠٥٧م) واتخذها قاعدةً لملكه وملك ابنائه وحفدته .

امراء الطوائف

ولم يغن خلفاءه من بعده شيئاً عودتهم الى الاعتراف بالسيادة الذكرية للفاطميين بمصر ، ولا ضربهم النقود باسماء الملوك منهم ، فقد استفحل شرّ الاعراب بداخل البلاد واشتدت شوكتهم على سائر الضواحي ، وزاد الطين بلةً تنمر الولاة الصنهاجيين واستقلال كل واحد منهم بناحيته ، وهكذا صارت المدائن الافريقية الكبيرة خاضعة لحكم أمراء الطوائف ، فقد استبدّ (بنو جامع) من بني هلال بقابس ، و (بنو الرند) من مغراوة بجهة قفصة ، و (بنو مليل) من برغواطة بصفاقس ، و (بنو خراسان) بمدينة تونس و (بنو الورد) من لخم بناحية بنزرت ، وهلم جرّاً .

والذي يهمّنا من هذا كله هو ان بعض أمراء الطوائف المشار اليهم حدثته نفسه باتخاذ الدواوين في عاصمته ، وضرب السكة باسمه ، لذلك ترى (رشيد بن كامل) أحد رؤساء بني جامع ، صاحب قابس يسبك

بها ديناراً ذهبياً يتحلّى فيه بالالقاب الملوكية ، وقد اشتهرت مسكوكاتهم (بالرشيدية) (١) ويوجد منها نموذج جميل باحدى دور الآثار الاسبانية.

وصاغ (حمو بن مليل) المتغلب على صفاقس في مدة المعز بن باديس ديناراً بتاريخ سنة ٤٤٩ هـ . على غرار الدينار العشاري المتقدم ذكره ، كما ضرب خلفه مثله بتاريخ ٤٦١ هـ . (١٠٦٩ م) وكلاهما يحمل اسم مدينة (صفاقس) — وهذان الديناران يوجد نموذج منهما في مجموعة متحف باردو التونسي .

اما (بنو خراسان) المستبدون بمدينة تونس، وهم من أضخم امراء الطوائف المحليين حسبما تشهد به آثارهم الباقية فإنا لا نعلم شيئاً عن مسكوكاتهم — إن كانت لهم — بالرغم من اجتهادنا في البحث عنها .

وكذا يقال عن (بني الرند) في قفصة ، وعن (بني الورد) في بنزرت ، فانا لم نَرَ من أشار الى أنهم سكّوا النقود مدة استبدادهم بعواصمهم .

نقود النرمند

وكان آخر شان الامراء من بني زيري الصنهاجيين أن طرأ عليهم

---

(١) روى ابن خلدون ناقلا عن المؤرخ التونسي محمد بن نخيل : « ورشيد بن كامل » هو الذي اختط قصر « العروسين » « وضرب السكة الرشيدية » واجع تاريخ ابن خلدون في فصل : الخبر عن بني جامع الهلاليين.

طارق (النرمنديين = les Normands) ملوك صقليـــة ، فانهم بعد هجمات متكررة حملوا باساطيلهم الجرّارة على سواحـــل افريقيـة واغتصبوا مدينة المهدية من يـــد ' الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعـز بن باديـس) ـ سنـة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ـ كما امتلكـوا غالب المدائن الساحلية الشرقية مثل قابس ، وصفاقس ، والمنستير ، وسوسة، وقبل ذلـك بقليل كانوا استحوذوا على مدينـة طرابلس وعلى جزيرة جربة .

واقام ملك النرمند (رجار الثـاني = Roger II) برهة في عـاصمة الفواطم ، وسكن قصورها الباذخة ، واتخذ بها الدواوين لادارة ممتلكاته الافريقية ، وكان من أول اعماله ان ضرب بها نقوداً عربيـة الصيغة والوزن والطراز ، قلد فيها سكّة الفاطميين ، ورسم في وسطهـا اسمه والقابهوشارته الخاصة ، متبعاً في ذلك سُنن الملوك المسلمين ، فقد تلقّب (بالمعتز بالله) وهاك نص ما هو مكتوب على ديناره المهدوي :

ففي الدائرة الاولى : « الحمد لله حق حمده وكما هو أهله ومستحقه »
وفي الدائرة الثانية : « ضرب بأمر الملك المعظم رُجار المعتز بالله بمدينة المهدية ، سنة ثلث واربعين وخمسمائة هـ (١١٤٨ م) .

وفي الوسط من الوجه الاول : « المعتز بالله » .

وفي القفا :

في الدائرة الاولى : « الحمد لله حق حمده . الخ »

وفي الدائرة الثانية : « ضرب بامر الملك المعظم .. الخ »

وفي الوسط : « الملك روجار »

واقتفى ابنه وخَلَفُه (غليالم الاول Gullielmo I) أثره في ضرب الدينار بالمهدية وتلقّب (بالهادي بالله) وهو آخر من صاغ نقودا عربية بافريقية .

وهذان الديناران كانا مجهولين تماما الى أجل قريب ولم يذكرهما المؤرخون فيا علمنا ، ثم عثرت مدة اقامتي بالمهدية على قطعتيْن منهما ، وكنت كتبت فصلًا ضافيا عنهما في بعض المجلات باللغة الفرنسية [1]

وضرب هذين الدينارين بالمهدية يدلّان دلالة واضحة على رغبة ملوك صقلية من سلالة النرمند في اتباع سياسة اللّين والتسامح التي ترمي في الواقع الى تهدئة خواطر سكّان البلاد التونسية واستمالتهم الى قبول الاستيلاء الافرنجي ، لانا نرى المسكوكات التي ضربها هؤلاء الملوك بجزيرة صقلية بعد امتلاكهم لها تحمل من جهة نصاً لاطينّيا مع رسم صليب مسيحي ، وتحمل من الجهة الاخرى نصاً مكتوباً باللغة والحروف العربية ، حسبما هو مشهور من نقود هم المسكوكة في صقلية .

---

(١) انظر المجلة التونسية لمعهد قرطاج سنة ١٩٣٠

H.H. - Abdul - Wahab - Deux dinars Normands de Mahdia « Revue Tunis » - (Inst . de Carth.) N^lle Serie 1930 p. 1

ودام استيلاء النرمند على مدائن الساحل التونسي اثني عشر عاما وفي أثناء تلك المدة التحق الحسن بن علي - آخر الامراء الصنهاجيين - بالمغرب الاقصى واستغاث بخليفة الموحدين الطائر الصيت (عبد المؤمن ابن علي) ورغّبه في انقاذ افريقية من يد الافرنج النرمنديين .

واستجاب عبد المؤمن لنداء الحسن الصنهاجي وهيّأ جيشاً عرمرماً وأسطولاً فخماً قصد بهما افريقية وابتدأ بفتح المدائن الواحدة تلو الاخرى ، وفي أقل من عام واحد قضى على أمراء الطوائف المستبدين بالنواحي ، كما رهس الاعراب الهلاليين في ضواحي البلاد ، واخضد شوكتهم فانضمّوا طائعين ، وانخرط جلّهم في سلك جنوده ، وتقدم الى المهدية - عاصمة البلاد آنذاك - فحاصرها براً وبحراً الى ان افتكها من يد الافرنج ودخلها منصوراً - سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وهكذا تمّ لعبد المؤمن امتلاك سائر البلاد ، واصبح ملكه ينبسط على المغرب كله من أقصى ولاية طرابلس الى المحيـــط الاطلنطي ، ويدخل في ذلك جزيرة الاندلس مما لم يتمّ لاحد سواه .

النقود الموحدية

أدخل الموحدون في عموم البلاد المغربية تقاليد جديدة لم تكن مألوفة قبلهم فقد سنّوا نظماً لادارة مصالح البلاد عُرفت « بالتراتيب

الخزينة « تواصل العمل بها في المغرب نحو الخمسة قرون ، اذ ان الدول التي خلفت الموحدين في الحكم استمرّت على تقليد تلك الرسوم والاوضاع طيلةَ حياتها مثل (الدولة الحفصية) في إفريقية التونسية ، ودولة (بني مَرين) في المغرب الاقصى ، ودولة بني (عبد الواد) في وطن تلمسان ، ودولة (بني نصر) في غرناطة من بلاد الاندلس ، بل نقول ان الانظمة التي سنّها الموحدون تسربت الى الممالك التي ورثت الدول المشار اليها .

ويكفينا شاهداً على ذلك مسالة النقود ، فان الموحدين من أول نشأتهم بدّلوا شكل الدرهم الفضة وجعلوه مربعَ الشكل بينما كان فيما سبق مدوّراً ، ووضعوا دينارهم الذهب مدوّرًا الاّ انه يحمل في وسطه مربعاً ترسم في داخله الكتابة .

ولنلتجئ الى علامتنا ابن خلدون ليشرح لنا السبب في استعمال الدرهم بهذا الشكل قال [1] : « ... ولما جاءت دولة الموحّدين كان مما سنّ لهم (المهدي ابن تومرت) اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل ، وان يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ، ويملأ من احد الجانبين تهليلًا وتحميداً ، ومن الجانب الآخر كتْبًا في السطور باسمه (أي المهدي) واسم الخلفاء من بعده ، ففعل ذلك الموحدون ، وكانت سكّتهم على هذا الشكل لهذا العهد (أي القرن الثامن للهجرة) ــ ولقد كان المهدي

---

(١) المقدمة : باب السكة .

(ابن تومرت) فيما يُنْقَل ينعتُ قبلظهوره (بصاحب الدرهم المربّع) وصفه بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله ، المخبرون في ملاحمهم عن دولته » .

ونلاحظ على مسكوكات الموحدين في جملتها انهـا لم تكن تحمل تاريخ الضرب ولا المكان الذي سبكت فيه ، الا ما قلّ منها يرسم عليه في آخر الكتـابة وبحروف ضئيلة اسم المدينة ، اما تاريخ الضرب فلا وجود له فيها ، وهذا السلوك مغاثر تماماً للسُّنَن والتقاليد التي اتبعتها النقود الاسلامية من أول ظهورها ، اما نص الكتابة فيها فانه قريب المعنى ولا تكاد تختلف عباراته الا قليلا .

النقود الحفصية

اقتدت الدولة الحفصية من أول ظهورها الى آخـر عصرها بسُنَن الموحدين في سبك مسكوكاتهم شكلاً وكتابة ، ولم يشذّ عنها الا أواخر امرائها اذ انهم قلّدوا ــ آخر القرن العاشر للهجـرة ــ نقود الاتراك العثمانيين .

فلنأخذ مثلاً دينــار ابي زكرياء اول سلاطين بني حفص ، نجد مكتوباً عليه في الدائر من الوجه الاول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ــ صلى الله على سيدنا محمد ــ والحكم الـه واحد ــ لا الـه الا هو الرحمن الرحيم » .

وفي وسط المربّع منه :

« الواحد الله – محمد رسول الله – المهدي خليفة الله »

وفي الدائر من الوجه الثاني :

« الامير الاجل – ابو زكرياء يحيى – بن ابي محمد – بن ابي حفص »

وفي وسط المربّع منه :

« ابو محمد عبد المؤمن – بن علي امـــير المؤمنين – الحمد لله رب العالمين » .

وقد تختلف عبـارات الكتابة المرسومة فى نقود بقية ملوك بني حفص ، ففي ايام (المستنصر بالله الاول) ابن ابي زكرياء نجد في وسط ديناره .

« الشكر لله – والمنّة لله – والحول والقوة بالله »

وهذه العبارة كانت تسمّى (بالعلامة) وتعرف في البلاد المشرقية (بالشارة = devise)

ولما اتت بيـعة الحرمين الشريفين الى المستنصر هـذا سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ م) بعد سقوط بغداد في يد التتّر ، نراه يرسم على ديناره :

« المستنصر بالله – المؤيد بنصر الله – امير المؤمنين »

وفي وسط المربّع :

« ابو عبد الله محمد ـ بن الامراء الراشدين » .

ويستمرّ خلفاؤه من بعده على حمل لقب « امير المؤمنين » الى آخر دولتهم ، وكان دينارهم يتجزأ ـ كبقية النقد الذهبي في الاسلام ـ الى نصف دينار وربع دينار واحياناً الى ثمن دينار ، وكان وزن الدينار الموحدي في الاصل ، وكذا وليده الحفصي ٧٢ ، ٤ غ ـ وهو وزن المثقال الشرعي بعينه .

اما الدراهم الحفصية فكانت كلها مربّعة الشكل كما مرّ بنا ، واحيانا تكون مربّعة مستطيلة ومرسوم عليها عبارات تتكرّر ولا تتغيّر الا قليلا ، مثل :

« لا اله الا الله ـ الامر كله لله لا قوة الا بالله » .

وفي القفا : « الله ربنا ـ محمد رسولنا ـ المهدي إمامنا » في ثلاثة أسطر .

اما وزن الدرهم الحفصي فكان غراما واحدا ونصفا ، يعني انه كان يساوي وزنا نصف الدرهم الشرعي الذي سنّه عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي .

وخطّ الكتابة على النقد الحفصي يكون في غالب الاوقات بالحروف المعروفة (بالمدوّرة) وهو الخط الاندلسي ، وفي بعض

الاحيان يكون بالخط الكوفي المزخرف ، خصوصاً في مبتدأ الدولة ثم يقلّ استعمال الكوفي في آخر المدة الحفصية .

والملاحظ ان ضرب هذه الدراهم يختلف جودةً واتقاناً ، وكثيراً ما تكون مشوّهة السبك ، غير معتدلة الحروف والاطراف ، بحيث يحكم عليها الرائي من أول وهلة بعدم تناسقها ، وقلة العناية بضربها ، لاسيما في مدة أواسط الدولة وآخر أيامها ، الامر الدال على تدهور الحضارة وانحطاط أسبابها في ذلك العصر .

ويظهر من البحث ان الحفصيين لم يعتنوا بضرب فلوس النحاس في مدتهم ، ولا ندري كيف كان تعامل السكّان في المشتريات الطفيفة ، اللّهم الّا ما ذكر من التجربة التي قام بها الامير المستنصر بالله ، فقد أخبرنا ابن خلدون عن هذه المحاولة ، قال : (١)

« واستحدث السلطان (المستنصر بالله الاول) سكّة من النحاس مقدّرة على قيمته من الفضّة ، حاكى بها سكّة الفلوس بالمشرق ، تسهيلًا على الناس في المعاملات باصرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجاتهم ، ولما لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوْغها .

وسَمّى سكّته التي استحدثها (بالحندوس) يعني السوداء — ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة على الوزن ، وفشا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٦ : ٦٥٨ ط — بيروت

فيها الفساد ، واشتدّ السلطان في العقوبة عليها ، فقطع وقتل ، وصارت ريبة لمن تناولها ، وأعلن الناس النكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها ، وكثر الخوض في ذلك وتوقّعت الفتنة ، فازال السلطان تلك السكة وعفى عليها . »

ويظهر من سياق الكلام ان ضرب هذا (الخندوس) كان في حدود سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) او ما يقاربها ، ولم يعثر حتى الآن ــ فيما علمنا ــ على نموذج من هذه الفلوس النحاس لقصر مدة رواجها .

وفي أواخر القرن السابع للهجرة قام على الدولة الحفصية ثائر اسمه الحقيقي (أحمد بن مرزوق المسيلي) وادعى انه (الفضل بن السلطان الواثق) بن المستنصر الاول ، وتمكّن من الاستيلاء على سائر البلاد التونسية بمساعدة الاعراب الهلاليين ، واستقر بالقصبة من تونس ، وضرب السكّة باسم (الفضل) المزعوم ، غير ان نقده لم يخرج عن التقاليد الحفصية المعهودة ، وبعد سنة ونصف من ولايته هاجمه الامير عمر بن زكرياء وتقبّض عليه وقتله ــ سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) .

وفي مدة السلطان (أبي عمرو عثمان) ــ من سنة ٨٣٩ الى ٨٩٣ هـ (١٤٣٥ الى ١٤٨٨م) وهو آخر المشهورين من بني حفص ــ جدّد ضرب الدرهم الفضة وأطلق عليه اسم (الناصري) وجمعه نواصر ، وجزّأه الى (خمسي) وهو خمسة أسداس الدرهم ، والى (خروبة) وهي أربعة

أسداس الدرهم ، والى نصف ناصري – يعني $\frac{٣}{٦}$ – والى قفصي وهو (القيراط) يعني سدس الدرهم ، وقلده في ذلك من جـاء بعده من الامراء [١] .

اواخر الحفصيين

عقب ولاية ابي عمرو عثمان المتقدم تراجع أمر بني حفص وتقلّص ظلهم وآل الى الضعف والتدهور ، حتى ان غالب ارجاء المملكة التونسية خرجت عن حكمهم واستبدّ بها ثوّار من الاعراب كأسرة (الشابيين) بالقيروان ونواحيها لعجز الدولة على مقاومة اطماع الثائرين في الوقت الذي قويت فيه شوكة الخـلافة الاسلامية في المشرق بظهور دولة (آل عثمان) الاتراك واستفحال امرها في آسيا الصغرى وفي شرق القارة الاوروبية لاسيا على عهد السلطان (محمد الثاني) فاتح اسطنبول سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣) وابنه السلطان (سليم الاول) فاتـح الشام ومصر والحجاز ، وسريعا ما حصل التنـافس واشتدّت المزاحمة بين العثمانيين مالكي الشرق وبين (دولة الاسبان) المتولين على القسم الأوفر من غربي أوربا

---

(١) راجع البحث القيم الذي خصصه صديقنا الاستاذ برانشفيك في عدة مواضع من كتابه « تاريخ الحفصيين » .

R. Brunschvig : La Berberie Orientale sous les Hafsides Paris 1940 - 47

وفي ذلك الوقت ظهر زعماء من رؤساء الاتراك ، مثل الاخوين (عَروج) و (خير الدين) ويسميه الافرنج (بربروسة = Borbaroussa) فكانا يشتغلان بالقرصنة في البحر المتوسط تحت رعاية السلطنة العثمانية، وابتدأ عملهما بالتقدم الى الامير الحفصي (ابي عبد الله محمد) حفيد ابي عمرو واتفقا معه على غزو البحر والنكاية بمراكب الاسبان،ويكون له الخمس من الغنائم ، واستمر الحال على ذلك مدة ، ثم ان خير الدين وعرّوج توصلا لافتكاك مدينة الجزائر من ايدي الاسبانيول وجعلاها مركزاً مستقلاً لعمارتهما البحرية واستغنيا على معونة الحفصيين ، وبذلك قويت شوكتهما وعلا صيتهما شرقاً وغرباً .

الحماية الاسبانية

وتوفي الأمير (أبو عبد الله) الحفصي سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) وتولى بعده ابنه (الحسن) ولم تستقم له حال لما اعترى دولته من الوهن من جهة ، ومن أخرى سعي القوتين ـ الشرقية والغربية ـ لاظهار التفوق والرغبة في السيطرة المطلقة على سواحل البحر المتوسط .

والباحث عن هذه الفترة من تاريخ تونس يدرك من سياق الاحداث الاضطرابات المتعاقبة والقلاقل المتتابعة كما يدرك الحالة الاسيفة التي آلت اليها البلاد ، وأحسّ خير الدين بعجز الحفصيين على القيام بالدفاع عن حوزتهم فزحف من الجزائر الى تونس وامتلكها سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) ـ والتجأ الامير الحسن الى اسبانيا مستنجداً بالامبراطور

(كارلوس الخامس : شارلكان) فاجاب نداءه وقدم بنفسه في عمارة قوية ونزل (بحلق الوادي) ومنها زحف الى الحضرة التونسية فدخلها قسراً سنة ٩٤٣ هـ (١٥٥٣ م) ورخّص لجيوشه نهب المدينة،فاستباحوا جماها بالقتل والأسر بافظع ما يسمع ، وقد فرّ خير الدين بمن معه الى الجزائر ، ونصب الإمبراطور كارلوس الاميرَ الحسن على كرسي تونس للمرة الثانية ، وأقام معه شريكاً احد قواد عسكره للنظر في شؤون البلاد ، وبمقتضى هذه الحماية التزم الحسن الحفصي بالتنازل عن عدة مدائن تونسية للاسبان وبدفع خراج سنوي قدره اثنتا عشرة الف دوكة [١] كما اضطرّ لتحمّل شروط أخرى قاسية ومهينة ، مما اعتاد الاقوياء فرضه على الضعفاء ، بيد ان هذه الشروط المؤلمة لم ترق في أعين السكّان الذين اتحدوا مع (أبي العباس أحمد) ويلقّب - بحميدة - ابن الأمير الحسن المتقدم ونَصَّبوه على الاريكة الحفصية مكان أبيه المتقدم ، لكن الظروف المضطربة لم تكن لتساعده على البقاء لقساوة الشروط التي افترضها الاسبان مرة ثانية على البلاد ، وقد أنفت نفسه من الرضوخ لتلك التحمّلات فاختار التخلّي عن الملك ومفارقة تونس.

وخلفه اخوه (محمد بن الحسن) وقد رضي بالدخول تحت الشروط

---

(١) الدوكة (Ducat) نوع من النقود الاسبانية قيمة الواحدة من عشرة الى اثني عشر فرنكا ذهبا .

الجديدة للحماية وقاسمه في أمـــر دولته (الكنت سِرّبلوني = Comte Serabelloni) الاسبـاني نائبـاً عن الامبراطور ، ولاقى التونسيون في تلك الاثناء من الجوْر المرير ومن انواع المظالم ما حملهم على الفرار الى البوادي والاختفاء بالشِعاب والكهوف ، ونالهم من التشرّد وضروب الهوان مالا يوصف ، سنة ٩٨٠ هـ (١٥٧٢ م) .

ويوجد من دراهم محمد بن الحسن هذا نماذج رديئة الضرب مما ينـذر بدنو اجل الدولة الحفصية وانهيار سلطانها .

ولا خفاء ان سلطة ترتكـز اركانها على الجـوْر والعسف المقوت ـ كما كانت الحمـاية الاسبانية ـ لم تكن لتـدوم وتستقرّ ، وذلك لحقد الرعايا وتوغّر صدورهم عليها ، فكان غالب السكان ينتهزون الفرص للايقاع بالاسبان والحفصيين معاً ، وقـد ساعدتهم الظروف اخيرا بقدوم قوة تركية عتيدة ارسلها السلطان (سليم الثـاني) تحت قيـادة الوزير (سِنّان باشا) لانقاذ تونس من الاستيلاء الاسباني والاعلان بسقوط سلالة بني حفص من الملك سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) .

وشارك التونسيون مشاركة فعلية في هذا الانتصار الذي أراحهم من العسف والظلم ، لكن قبل ان ينتصب حكم الاتراك بصفة نهائية على البلاد كان بعض القوّاد العثمانيين ، وفي مقـدمتهم (درغوث رائس) واسمه التركي طورغود ـ الذي خلف خير الدين في غزوات البحر ؛

كان تمكّن من امتلاك جانب عظيم من أنحاء القطر التونسي كمدينة المهدية والقيروان ، وقد أقام بها نواباً عنه ، ويهمنا من هذا ان (حيدر باشا) الذي أنابه درغوث على القيروان ضرب فيها نقداً فضياً وفلساً من النحاس اشتهر باسمه (الناصري الحيدري) سنة ٩٨٠ هـ - (١٥٧٢ م) ولدينا منه نموذج .

وتجب الملاحظة أيضا ان في المدة التي تولىّ فيها الاسبان على تونس - أعني مدة اربعين عاما - كان لمسكوكاتهم رواج كبير في سائر البلاد ، مثل (الدوكة) وهي تعادل الدينار الذهب وخصوصاً (الكرونة Courona) [(١)] وهي عبارة عن درهم من الفضة الخالصة ، غير مستوي الاطراف ، وقد يأتي ذكرها كثيرا في الرسوم والعقود التونسية في العصر المتكلم عنه وبعده، وربما جاء اسم الجمع فيها بصيغة (كراين) [(٢)] ويوجد منها نماذج عديدة فيما يُعثر عليه من النقود في التربة التونسية الا انها كلّها مضروبة في إسبانيا لا في تونس .

---

(١) كتاب المؤنس في اخبار افريقية وتونس ، لابن ابي دينار القيرواني ط تونس سنة ١٢٨٦

(٢) الكرونة (Courona) قد من الفضة ، كان له رواج كبير في انحاء البحر المتوسط عندما استولت الدولة الاسبانية على معظم القسم الغربي منه، وذلك بعد ما امتلكت قارة امريكا الجنوبية ومنها كانت تستورد معدن الفضة بالقناطير المقنطرة مما اعانها على انتشار نقودها .

تدهور النقد الحفصي

تدهورت نضارة المسكوكات في عهد آخر الحفصيين من سوء الى أسوأ وصار الضرب مشوّه الكتابة ، رديئا ، فتـــارةً يكون مقطوع الاطراف بالمقراض ، غير مستوي الزوايا خلافـــاً لما امتاز بـه الدرهم المربّع عن ذي قبـل ، وتارة يكون مطموس الخط بتداخل الحروف بعضها في بعض لدرجة انها لاتكاد تقرأ .

ولا مراء ان ذلـك يشير الى تراجـع وسائل السبك ، كما يثبت انحطاط اسباب الحضارة والتمدين بصفة عامة ، إذ ان جمال النقـود والعناية بضربها مما يدل على رقي الصناعة باتقان منتوجاتها .

ولم تكن مسكـوكات الولاة الاتراك الاوّلين باجمـــل من سالفتها في رداءة السبك ، وبشاعة الحروف وقد حاول اولئك الولاة تقليد الدرهم الحفصي المربع برهة من الزمن فكان ابشع من سابقه ، غير انهم ادخلوا عليه شيئاً جديداً ، وهو رسم أسمـــاء السلاطين العثمانيين المتوالين (سليم الثاني ـ واحمد بن محمـــد ، وهلم جرا) وتقييد تاريخ وضعه بالارقام الهندية ، وتعيين مكان الضرب بكلمة « ضرب بتونس . »

ثم انهم تركوا شكل التربيع في الدرهم وجعلوه مدوراً تمشياً مع

طراز المسكوكات التركية التي تصاغ باسطنبول قاعدة السلطنة ، مع الملاحظة ان مـــا ضرب منها في تونس لم تتبع قيمته النقدية قيمة المسكوكات التركية الاصل ، بـل انها حافظت على ما كان متعارفاً وجاريا في البـلاد ، مثل الدينـار (المحبوب) والريال ، والناصري ، والثمن ، والخروبة ، وما الى ذلك .

ظلت نقودهم على هذا الوضع اكثر من مائتي سنة الى ان انفصلت عنها بتغيير نصوصها عندما ابدت تونس طموحها الى الاستقلال في خلال القرن الهجري الاخير ، حسبما يأتي مفصلا فيما يلي .

* * *

هذا وقد أخرنا في هذه العجالة البحث عن المسكوكات التونسية في مدة الولاة الاتراك وعن نقود الدولة الحسينية الى دراسة خصوصية تكون كالتكلة لما تقدم ، والله ولي التوفيق .

انتهى القسم الاول من كتاب « الورقات » ويليه القسم الثاني ان شاء الله

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

رواة اللغة والادب

طبقة ثانية من رواة الادب

النحاة واللغويون

طبقة مختارة من رواة اللغة والادب

صفحة

طبقة أخرى من الرواة

بيت الحكمة التونسي

الفصل الثاني

صفحة

صفحة

صفحة

تلحق في آخر القسم الثاني من الكتاب فهارس تفصيلية عن اسماء الاشخاص والاعلام الجغرافية واسماء الكتب